

# العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايشور

أستاذ تاريخ المشرق الوسطى المساعد  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحفيظ بروت - القاهرة

وزارة الدفاع والبرية  
لصاحبها: محمد عبدالرازق  
١٩ كنيسة الأبريق في الجيش  
تلخيش « ٩٣٤٠٩٨

## تاريخ مصر العريق حافل

### مقدمة

التاريخ دول ؛ وتاريخ مصر العريق حافل بعدد الدول التي تعاقبت في حكمها . وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تهمل من عصر سلاطين المماليك عصرأ جديراً بمزيد من الدراسة والبحث والتحصيل . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام لحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطى ؛ فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى - اقتصادية وغير اقتصادية - التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام .

وإذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداء من الجنسيات الأوروبية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجر كس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأسبان والألمان . . . حملهم تهمار الرقيق صفاراً إلى بلاد غير بلادهم لبشبووا في أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكم وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك في تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التي أبدتها تلك الدماء الجديدة في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي مهدته من جانب التتار حينئذٍ ومن جانب

العالميين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقع عين جالوت ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطرابلس وعكا وخير وكيثا من ناحية أخرى ؛ ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المهاليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني والعلمي الحصب الذي صاحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، والذي ظهر أثره وتردد صده في مصر والشام جميعاً ؛ فنحرص على المبالغة في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظير على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامحة في التعليم والتعلم ونشاط ليس له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف ، حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألقت في عصر المهاليك في مختلف ألوان المعرفة والتي تكتنظ بها دور المكتب في العالم أجمع ، مشرقة ومفربة .

وإذا نحن ذكرنا عصر المهاليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي غدت فيه مصر والشام قسبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفهم في ضوءه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المهاليك ، وذلك الأراء الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة والأبهة الذي انصف به عصرهم . وما زالت مخلفات وآثار المهاليك من جوامع شامخة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ؛ فضلاً عما حفلت به مراجع العصر المهاليكي من وصف لحياة المهاليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض ... ما زال ذلك شاهداً على أن ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون بعضاً من فتاتها .

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصرأ عادياً من العصور الهادئة أو الهامة في التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط بدائب : في الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى . . . وفي الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة في التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أو آخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات العديدة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام ، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية ، وتاريخ العالم في أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ؛ مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر في صورة وحدة مترابطة تبدو في إطارها العام ميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره .

وقد حاولت في هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الثغرة الهامة التي تشكو منها المكتبة العربية ، فحرصت فيه على إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة للعصر المماليكي بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٥١٧ للميلاد ؛ وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجي لتاريخ ذلك العصر الهام علاجاً موضوعياً شاملاً بعيداً عن التفاصيل الثانوية الصغيرة التي لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك المليئة بالمصطلحات الغربية غير المألوفة ، التي لا نجد لكثير منها تفسيراً في القواميس العربية لأنها

( و )

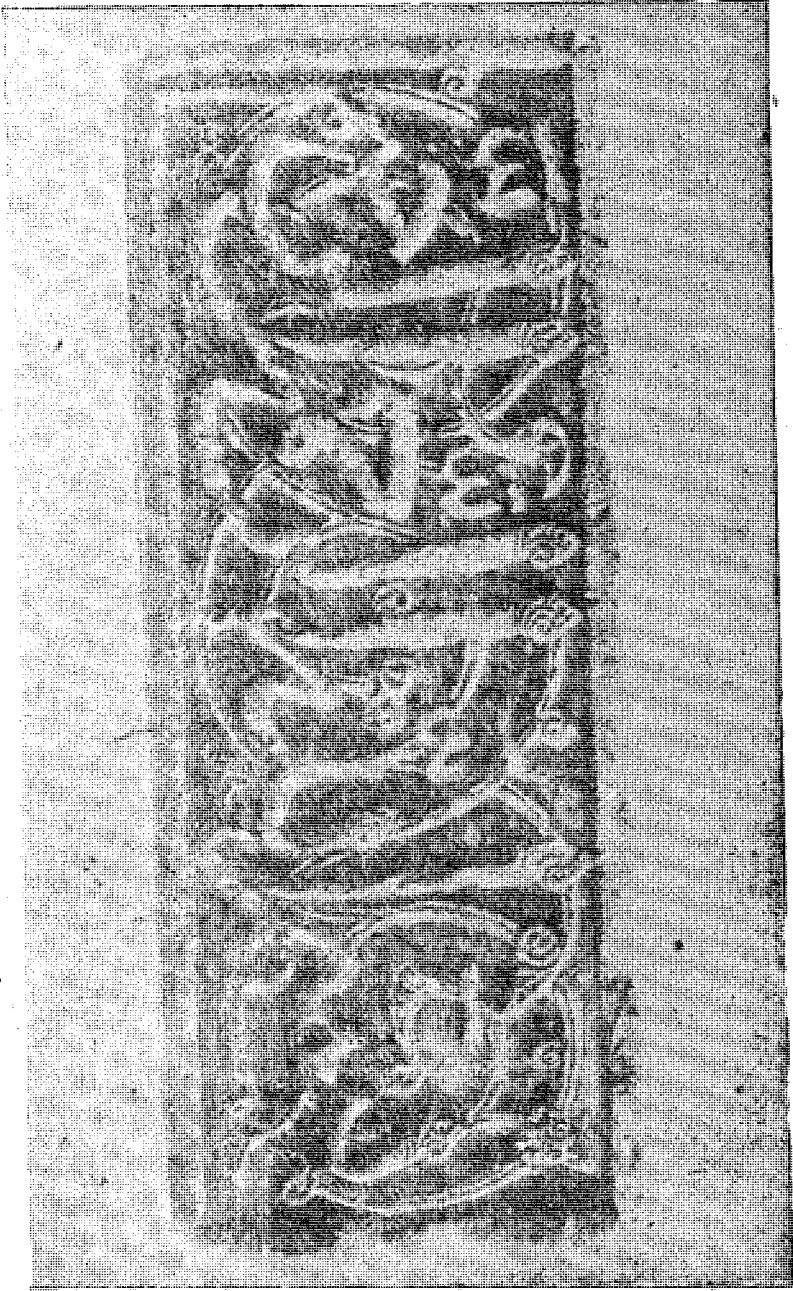
دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التي تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ؛ فإنني رأيت إتماماً للفائدة أن أورد في نهاية الكتاب كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علياً ، مستمياً في ذلك بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا في خدمة تاريخ المماليك .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة في استكمال نواحي النقص في مكتبتنا العربية .

سيد عبد الفتاح هاشور

ضاحية المعادي في ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ  
٣ يناير ١٩٦٥ م

عجزة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام باطلح النسخ المائلي







## الفصل الأول

### قيام دولة المماليك في مصر

#### نشأة نظام المماليك في الدولة السلجوقية:

المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي « ملك » ، ويقال عبد مملوك بفتح اللام وضمها إذا سُبى ومُلك دون أبيه . ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « ملكتم أيما نكم » و « ملكتم أيما نهم » و « ملكتم يمينك » أكثر من مرة (١) .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يهلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، ولكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا ينخشون ازدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم ، فلجأوا إلى الإكثار من شراء مماليك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

(١) انظر مثلاً سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ : وسورة النحل آية ٧١ .  
وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .  
( ١ — العصر المماليكى )

ولم يلبث أن شاع استخدام الماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يشترونه من ماليك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالماليك الذين يجلبون صفاراً يهظون بمطامع ساداتهم وأسانذتهم فيتمحرون ويزداد نفوذهم حتى يسقطون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها .

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ الماليك حتى أتت ملكوا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي . وعندما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من الماليك الديلمية والأتراك ؛ حتى ذكر ابن إياس أن ماليك أحمد بن طولون بلغوا أربعة وعشرين ألفاً<sup>(١)</sup> . فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طنج الأحمسي دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على الماليك من الأتراك والديلم حتى بلغت عدة ماليكهم ثمانية آلاف مملوك ، على قول أبي المحاسن<sup>(٢)</sup> . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الأواخر في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكثروا من الاعتماد على الماليك — الأترك وغير الأترك — وبذلك حافظوا على سيادة الطولونيين والأحمسيين في الاعتماد على الماليك وهكذا حتى قامت الدولة الأيوبية لتفتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والماليك جميعاً .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٩ ص ٣٧ .

المقريزي : المواعظ ج ٩ ص ٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩٤ .

### ازدياد نفوذ المماليك في عصر الظاهر بيبي :

والواقع إن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يستحق الانتباه . ذلك أن وريثة صلاح الدين - من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته - اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماه ... وغيرها مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي (١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين وريثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كقامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار ، وكيفا وأمد وخر تهرت فضلاعن بني مسكان في خلاط ... من ناحية أخرى .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمّت العلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في تحقيق مطالبه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد (٢) . ولم يجد أمراء المسلمين - من أيوبيين وغير أيوبيين - وسيلة يتقنون بها في أوجه خصومهم سوى المماليك - أوالرقيق الأبيض - ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبتهم وتلشأتهم ليسكنوا أمد وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والنصف الأول من

(١) عماد الدين الكاتب : المنجج الذهبي ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ،

ابن واصل : منجج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) سمييد طاهر : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر ، وسرعان ما غدا الأولئك المماليك كلمة مسدوعة في الأحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما تزويه المراجع من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر في نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتعالج العادل أخو صلاح الدين الاستيلاء على مصر ، خشي المماليك الأسدية والصالحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً واستدعوا الملك الأفضل من حوران وسلبوه مقاليد الأمور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ (٤) .

و خلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء ممالك صغار من الرقيق الأبيض - وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر - واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة ليثة في أيدي ساداتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم وهيبتهم . وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين -- وبخاصة العادل والسكامل - بتفوقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أسراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

### المماليك البحرية :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني

(١) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ،

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

وإحلال الصالح أيوب عمله في السلطنة (١) وهكذا أحسن السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه ، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بمملكته ؛ فأكثر من شراء المماليك وعفى بهم عنأية فائقة جعلت نفوذهم يتضمنهم في صورة ملهوسة على أيامه . ويروى المؤرخ العيني أن الصالح نجم الدين أيوب جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء المسكر ماليكته ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهايزه وسماهم البحرية ، (٢) .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على ممالك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع - وهو الأرجح في نظرنا - يقول إن هذه النطقة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوحاً من التجديد والرفعة في الخروج على المألوف ، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق ، ومن ثم سموا بالبحرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً ، بعد أن انفض عن الصالح أهوانه من الأكراد وغيرهم . ولم يلبس أن استغل المماليك البحرية سطوتهم في العبث بمصالح البلاد والعباد ، فأكثروا من الاعتداءات على أموال الناس وأرزاقهم ، الأمر الذي دفع بعض المشراء إلى التنديد بهم وإلى إلقاء تبعه أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه ، ومن ذلك قول الشاعر :-

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدواته يا شر محبوب  
قد أخذ الله أيوباً بفعله فالناس قد أصبحوا في ضرر أيوب (١)

عل أن أولئك الممالك البحرية الذين أسروا في العبث بمصالح الناس  
واستثاروا غضب الأهل بعدوانهم وشرهم ، سرعان ما أثرتوا كفايتهم في  
التغلب على أكبر خطرين خارجيين واجها مصر - بل الوطن الإسلامي في  
الشرق الأدنى - حوالي منتصف القرن الثالث عشر ، وهما خطر الصليبيين  
وخطر التتار . ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤  
استثار الغرب الأوربي من جديد ، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨  
على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر . ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج  
من غرب أوروبا بنية الاستيلاء على مصر بالذات ، فقد سبق لها قبل ذلك  
بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة  
حنابرين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً ،  
لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيماً ، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك  
من أعظم ملوك الغرب الأوربي وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية .

ثم إن الظروف التي ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على  
إكساب تلك الحملة قسطاً من التطورة بالنسبة لأوجدها مع مصر الداخلية . ذلك  
أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذي كان السلطان  
الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ؛ ولم تؤكد الأخبار اتصال مسامحة من  
قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في عجلة إلى مصر حيث نزل في

(١) ابن ذياب ٤ بدائع الزهور ج ١ ص ٨٢ ،

جمال الدين سرور : الظاهر يبصر ص ٣٨ . ويلاحظ أن الظاهر يشير إلى الآية  
السكرية « وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » .

أشهرهم طناح ليرقب الموقف<sup>(١)</sup> . وهكذا أتى الصليبيون مصر في وقت كان سلطانها من أيضاً لا تقوى على الحركة لمغازلتهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط في يونيو سنة ١٢٤٩ م وتملكها الفرنج بغير قتال . ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط في قبضة الصليبيين ووبخ المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم في الدفاع عنها وقال لهم « ما قدرتم تقصرون ساهة بين يدي الفرنج ؟ » وقد تحوف المماليك هنذاذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم « اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم »<sup>(٢)</sup> .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، لحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت . وفي الوقت الذي شرع الصليبيون في الزحف من دمياط تجاه الجنوب ، توفي الصالح أيوب في المنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م<sup>(٣)</sup> .

### المماليك الجهرية وإزال اليزيدية بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة خصاصة جسمية ، لعدم وجود من يهمل شؤله بصورة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ، وهو شاب هديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه في حصن كيفا<sup>(٤)</sup> . ولكن شاهدت الظروف أن تظهر في

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولان) .

(٢) العيني : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السالك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

عزيم الصالح أيوب امرأة قوية هي أرملة شجر الدر ، التي قدرت خطورة الموتف فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت استدعي نور انشاء على عجل من حصن كيفا ، واستدبرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً (١) .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يصرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي حلت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعند ما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بصر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يهبطوا بصر أشموم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور بصر أشموم ، وعندئذ اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة وانتحمتها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دي أرتوا أخى لويس التاسع (٢) .

وربما تلك المرحاة الحرجة ظهروا للماليك البحرية على المسرح لينفذوا الموقف . ذلك أن الماليك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليقتلوا في أرقعتها . وعندئذ انقضت الطائفة التركية من الجاندنارية والبحرية الصالحية وحلوا على القرنجة حملة رهنعت وشهدت بليانهم وأناخوا عليهم حربيًا شديداً وقتلوا وإهلاكا ، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسة مائة ولو أنهم لم يكونوا كذلك استطاع الماليك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويهيئوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن الماليك لم يتركوا الصليبيين يهبطون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ -- ٣٦٣ (مخطوط) .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) العيني : عند المجال حوادث سنة ٦٤٧ هـ .



بأكراه تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه  
الذى سبق مكابلاً بالأفلال إلى المنصورة حيث سجن في دار فخر الدين إبراهيم  
ابن لقمان (١)

### نهاية الدولة الأيوبية في مصر :

وفي تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر في  
نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ . أي بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أعلن تورانشاه  
سلطاناً في دمشق ، وهو في طريقه إلى مصر ، وفتح من الناس بطاعته ، وترقبوا  
خبراً على يديه ، ولكن المراجع أجمعت على أن السلطان الجديد لم يكن  
رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشؤون الحكم والسياسة ،  
حتى لقد وصفه سبط بن الجوزي بأنه : كان سيء التدبير والسلوك ذا هوج  
وخفة ، (٢) .

وكان مفروضاً أن يقدر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذى نهم  
من انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون في صورة أصحاب  
الفضل في تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلاً من أن يصانع  
تورانشاه المماليك ، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وكرامة ، وسيطر  
عليه شعور بأن المماليك يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطانه . ولم يلبث أن أضمر  
تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يشرب  
الخمر ويضرب الشموع المصروفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

(١) المرزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان : حوادث سنة ٥٦٤٨ هـ .

« هكذا أفعل بالبحرية ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . » (١)  
وليت تورانشاه حفظ الخيل لزوج أبيه شجر الدر ، بل نسي أنها حرسته له  
ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تستدعيه على عمل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح  
أيوب ، فاتمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهددها ويطلبها بما تحت  
يدها من الجواهر فدأخبا منه خوف كثير ، وكانت المماليك البحرية ،  
وهكذا استثار تورانشاه بسياسته الخفاء المماليك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية  
في البلاد وقتئذ ، واكتفى بجموعته من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن  
كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها المماليك .

وكان أن استقر رأي المماليك على التخلص من تورانشاه بالقتل واستحثهم  
على ذلك زوجة أبيه شجر الدر التي باتت تخشى على نفسها من خدر تورانشاه  
فأرسلت إلى البحرية تقول « اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم ا ، وقد توعم  
المؤامرة بجموعته من أمراء المماليك على رأسهم بيبرس البندقداري وفلاون الصالح  
وأقطاي الجامدار وأبيك التركاني . ولم يكف تورانشاه ينزل بضارسكور في ٢ مايو  
سنة ١٢٥٠ حتى بادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر تورانشاه ليتمتع بكشك  
خدي كان قد أعد لإقامته في فارسكور . ولما أغلق تورانشاه أبواب الكشك  
عليه ، أشعل المماليك النار فيه ، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه في النيل وقد  
اشتعلت النار في ثيابه ، وأخذ يصبح طالباً النجاة ، ولكن المماليك لاحقوه  
بالشاب من كل ناحية وهو يصيح « ما أريد ملكاً دهوني أرجع إلى الحصن  
(كيفاً) ، يامسلمين ! ما فيكم من يهطنني ويجبرني ! » (٢) ، ولكن أحداً

(١) القريري : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتقدم لبعثة تورانشاه ، فأتت جريهاً غريباً عثراً قاً - على قول المقرئى -  
وتركت جنته ملقاءة فى العراق على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على  
دفنه ، حتى شفح فيه رسول الخليفة العباسى وعندئذ وورى فى التراب (١)

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين فى مصر .

### السلطنة شجر الدر :

غدا المماليك بمد مقتل تورانشاه أصحاب الحكمة الأولى والأخيرة فى  
شئون البلاد . وقد اختار المماليك شجر الدر - أرملة أستاذهم الصالح  
أيوب - لتكون سلطنة على البلاد . وكانت شجر الدر جارية تركية الجنس  
- وقيل بل أرمينية - اشتراها الملك الصالح أيوب وحفظت عنده ، حتى أعتقها  
وتزوجها ولذلك فهى من ناحية الأصل والنسب أقرب إلى المماليك ، حتى  
اعتبرها المقرئى أولى سلاطين المماليك فى مصر ، وأول من ملك دهر من  
ملوك الترك المماليك ، (٢).

وكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر فى سلطنتها هى مشكلة  
الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه  
المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع - أسير  
المنصورة - وتمت تأخير التهديد تم الاتفاق بين المماليك والفرنسيين ، فوافق  
الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ  
عهد العادل الأيوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البصر ، ج ٣ ص ١٨٩ ،

المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلاً ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثاني وهم الفرنسيون فقد وافقوا على إخلاء دمياط والجلاء عن البلاد ، كما عهد لويس بعدم العودة إلى ه سواحل الإسلام مرة أخرى . وقد تحدد أجل الصالح بعشر سنوات . ولم يلزم أن تسلم المماليك دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا سراخ الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وعكذا نهجت السلطنة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح فهم الدين أيوب . على أن ذلك كله لم يكف لتدهيم مركز شجر الدر في أعيان المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطنة الجديدة كانت قبل كل شيء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل أن يسلموا زمام حكمهم لامرأة ، ويبدو أن شجر الدر نفسها أحسب بوضعها الغريب ، الأمر الذي جعلها تسرف في التقرب إلى أهل الدولة ومنهجهم الترتب والإقطاعات فضلاً عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ؛ وبالجملة فقد مماست الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالخرج من قيام امرأة في حكمهم ، من أن السلطنة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشدات تصدر عن القلم وعليها علامتها أم خليل ، ؛ ونقش اسمها على السكة والنقود في صحيفة والمستعمية المحلية ، ملكة المسلمين ، والدلة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين ، أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمسجد اللهم وأدم سلطان الصخر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدلة الملك خليل ، وبعض

Joiuville, p. 194 &

(١)

أبو الهيثم : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) القرظي : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول - بعد الدعاء للخليفة العباسي - « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . وفي جميع هذه الألقاب لا نلمس اسم شجر الدر الأمر الذي يعبر عن شهرة الاستحباب وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكنتية بأن تلتصق إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب « أم خليل » لتتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة عورة من هوراتها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبي ، وبالتالي فإنها دخلت على الحكم وليس لها حق شرعي فيه . لذلك حرصت السلطنة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحة » لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضفي على سلطنتها هالة من الشرعية تجعل المعاصرين يهرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي أن مقاليد حكمهم خدت فعلاً في يدي امرأة .

ومع ذلك ، فإن جمع تلك الحيل لم تفلح في دعم موقف السلطنة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيمرية في دمشق أن يخلعوا يمين الولاء والطاعة للسلطنة أم خليل ، ونازت دائرة الأمراء والملوك الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل نورانشاه وقيام شجر الدر في الحكم لأنهم وجدوا في ذلك خروجاً للسلطنة من يديهم . ولم يلبث أن انقلب الموقف في بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيستخدمون موقفاً حازماً هجوماً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك السعيد حسن الأيوبي على غزة وقلعة الصيدية ،

ونار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب السكرتير والشوبك ، وملك الملك المغيب عمر الأيوبي على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيمرية مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبي (١) . وبذلك خرجت بلاد الشام بأكلها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى مرة أخرى فعدت مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ، فتمسكت بقلب « المستعصمية » نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسي ؛ بل على العكس وجد الخليفة العباسي فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر طالب فيه على الأمراء موافقهم ، وقال لهم عبارته المشهورة « إن كانت الرجال قد عدت عندكم ظاهلو نا حتى نسير إليكم رجلاً » (٢)

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت بها مظاهر الكره فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن المعارضين لشجر الدر انهموها بالتفريط مع الصليبيين وأنها المشغولة عن إطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الذى خرج من مصر ليراعى نشاطه الصليبي فى بلاد الشام . ولانخروج من ذلك المأزق دخلت شجر الدر نفسها من ملكة مصر ، فوافقت على التزوج من الأمير عز الدين أيبك - أتابك المسكر - على أن تترك له وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠

(١) القرئزى : السلوك ، ج ١٦ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) القرئزى : السلوك ج ١٦ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها  
مهاورة فائدة وكفاية ممتازة (١) .

### السلطان المصراييك : ( ١٢٥٠ - ١٢٥٧ )

كان عز الدين أيبك أحد المماليك الصالحية ، ولكنه لم يكن من طائفة  
المماليك البحرية ؛ ترقى في خدمة السلطان الطالح أيوب حتى أصبح من الأمراء  
وتولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيبك أتاكك العسكر أى قائد  
الجيش ، حتى تخرج موقف شجر الدر في الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ  
وافق الأمراء على زواج أيبك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة وكان  
أيبك معروفاً بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ، ولكنه يبدو أن هذا  
لم يكن السبب الرئيسى الذى جعل المماليك - ومنهم طائفة البحرية - يجمعون  
على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء  
وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشون الناس جميعاً ، فمال الناس إلى  
أيبك لأنه من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم ، فى حين أيد زعماء  
البحرية - مثل إقطاعى ويبرس وقلاون - اختياره للسلطنة لاعتقادهم  
أنه سهل ومضى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته (٢) .

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد فى الداخل والخارج .  
وكان أول خطر ينهض لها ما خطر الأيوبيين فى الشام وخطر البحرية فى مصر .  
أما ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام فتمدد ظلوا فى حالة رقعة وثورة ، وأخذوا

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٥ ، المرزى : السلوك ص ٣٦٧ -

٣٦٨ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة. وأما المماليك البحرية، فقد عز عليهم أن يتولى أيك السلطنة وهو ليس بحرياً، فلما رأوا بعد خمسة أيام من إعلان أيك سلطاناً وقالوا « لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجمع الكل على طاعته ١، (١) . ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للبحرية كان استثارتهم لأنفسهم بالحكم، ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستاراً يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية .

وكان أن وقع الاختيار على صبي صغير من بني أيوب - هو الملك الأشرف موسى - ليجعله شريكاً للسلطان الممز أيك في السلطنة . يجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله . وهكذا بدأت ظاهرة غريبة هي اشتراك سلطانين - الممز أيك الزكافي والأشرف موسى الأيوبي - في حكم مصر فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والممز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير وجميع الأمور بيد الممز أيك ، (٢) . وكان الأشرف موسى في السادسة من عمره ، الأمر الذي جعل زعماء البحرية - مثل أقباق الجدار ويبرس البندتاري وبلبان الرشيد وسنقر الرومي - يرحعون بذلك الطفل ، حتى يدبرونه كيفما شاءوا وبأكلون الدنيا به ١ ، على قول أبي الهاسن (٣) . أما الممز أيك فقد رأى في إشتراك ذلك الصبي معه وسيلة طيبة لتخدير بني أيوب وتسكين ثورتهم .

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم ، فقرر الباصري يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق الزحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفي تلك الأثناء أثبت السلطان الممز أيك أنه أقوى

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ٧ ص ٥ ،  
(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .  
(٣) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٥



بما ظنّه عليه البعض ، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بمهولم الأيوبيين ، وأعلن في القاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم باقّة العباسي وأن الملك المعز نائبه فيما ١٤٠١ (١) . هذا إلى أن أيك خشي حدوث تفاهم بين الأيوبيين في الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذي كان حينئذ قابلاً في عكا يرقب الموقف ، ولذلك حاول أيك أن يتقرب من الملك الفرنسي بأن أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من السجن المصرية . وفي الوقت نفسه أراد أيك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على مصر لئلا يثار مما حل به من هزيمة في المنصورة ، فأمر أيك بهدم تحصينات مدينة دمياط ، حتى خربت كلها ومحييت آثارها ، وبذلك لا يتمكن الصليبيون من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد .

أما زعماء البحرية فقد نسوا في تلك الأزمات حصبتهم الصغيرة الضيقة ، وتذكروا العصبية المماليكية الكبيرة التي تجعل منهم ومن أيك وبقيّة المماليك كتلة واحدة أمام الخطر الأيوبي الذي هدد مستقبل المماليك جميعاً . وهكذا خرج المعز أيك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة ، فحلت الهزيمة برجال المعز أيك ولسكنهم هادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسية في فبراير سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام وهدد المماليك ظافرين ومهمم الأسرى إلى القاهرة (٢) .

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تحس بخطر التتار الذين اقتربوا بزعامة هولاء كومان العراق . وقد رأى الخليفة المستعصم العباسي أن يعمل بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام خطر المغول الوثنيين ، ولذلك أرسل رسولاً إلى الملك الناصر ( يوسف ) صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز ( أيك ) وأن يتفقا على حرب

(١) الميرزى : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) - العصر المماليكي

التتار<sup>(١)</sup> . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فعدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام الأيوبيين<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيك فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ لحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وبجئته<sup>(٣)</sup> .

على أن الأمور لم تهدأ لأيك في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفوا أن يخضعوا لحكمهم ونادوا بأنهم « أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وقد اتخذتمرد الأعراب شكل ثورة جامحة ، فاختلفوا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيماً لحركتهم . ولكن السلطان المعز أيك استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه<sup>(٤)</sup> .

ولكن إذا كان أيك قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

(٢) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ .

(٤) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

التي واجهته بمساعدة المماليك البحرية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاي حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيك وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا في تولية أيك السلطنة لا اعتقادهم في ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم في سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيك في صورة السلطان القوي الذي نهج في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التي واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيك ليجد أن جميع الانتصارات التي كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً خالياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم و ساروا إلى القاهرة ومصر أنجس سمرة من العسف بالناس والجهور . أما أقطاي زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيك ونفوذه فطنى وتجبى وبغى وتكبر ... وأمره مطاع في الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز ( أيك ) معه باسم الملك لا غير ، <sup>(١)</sup> وقد بالغ أقطاي في احتقار السلطان أيك فصار لا يسميه إلا أيكا . كما أخذ أقطاي ينتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التي كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه الملك الجواد ، <sup>(٢)</sup> .

وأخيراً خطب أقطاي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه ، ثم طلب من المعز أيك أن يسكنها قلعة الجبل و ليكونها من بنات الملوك ولا يلقى سكانها بالبلد ، وعندئذ أدرك أيك ما يجهول بنفس أقطاي ، لأن قلعة الجبل في ذلك العصر كانت المقر الرسمي للحكم ، فكان معنى طلب أقطاي أن نفسه وحدثه بالملك . هذا إلى أن زواج أقطاي من أميرة من أميرات البيت الأيوبي كان كفيلاً بأن يجعل له سنداً شرعياً في الحكم وهو أمر

(١) ابن أيك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأبيك . لذلك قرر أيبك التخلص من أقطاي بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أيبك وهبروه بالسيوف حتى مات ، (١) .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة ، فاجتمع ببيرس البندقدارى وقلاون الألقى وسنقر الأشقر وبيسرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاي ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أيبك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاي من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم أت عن قريب فقررروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أيبك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذى عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢) .

وقد بدت تلك الحركة التى اتخذها أيبك ضد البحرية وقد خلاصته من خطر جسيم ، إذ استطاع أيبك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أهوالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودى في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقته أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهرى ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا نارهم وظلوا يسهبون المتاعب لأبيك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن اتصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ . ويذكر المقرئى أن قطز . الذى ولى السلطنة

فهما بدكان ممن شاركوا في قتل أقطاي .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٢ .

وأغروه بفتح مصر ، وفعلًا ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعز أيك .  
سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة  
الخليفة العباسي (١)

والغريب أن أيك الذي ثبت ذلك الثبات في وجه خصومه في الداخل  
والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ماواجهه من مشا كل متعددة ، جاءت  
نهايته أخيراً على يد زوجته شجر الدر التي ذقت طعم السلطان وتولت السلطنة  
فعلًا ثمانين يوماً ، عز عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهي  
من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها د صعبة الخلق قوية  
البأس ، كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت د متكبرانة من خمرة العجب  
والتيه ، (٢) وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن  
يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز  
الدين أيك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلي عن السلطنة لترضى شعور المسلمين  
ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم في أيك  
وشئون الدولة جميعاً . وفعلًا أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد  
السلطان المعز أيك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده علي ، وخرمت  
عليه زيارتها هي وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر د مستولية على أيك  
في جميع أحواله ليس له معها كلام ، (٣)

ولم يلبث أن ستم المعز أيك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من  
غائبتها لاسيما بعد أن أخبره أعد المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأة . وكان

(١) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،

القرنيزي : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطب المعز أيك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، ففضيت شجر الدر لذلك ، وكانت شديدة الغيرة ، وقد أسرعت شجر الدر في تدبير مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيك - الذي كان قد غادر القلعة في مناظر اللوق - تسترضيه وتطلب عفوّه . فشدع أيك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث احتفت به حفواة بالغة . ولم يكبد أيك يدخل الحمام في الليل ، حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أهدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاهت شجر الدر أن المعز أيك مات جفاة أثناء الليل ، ولكن مالك أيك لم يصدقها وهبوا للنار لاستأذهم فقبضوا على شجر وبعض أهوانها . ويقال إنه بلغ من صلابة شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على الوقوع في أيدي أعدائها جمعت معظم مالديها من جواهر ولآلىء وأنفقتها بأن كسرتها في الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضررتها أم علي بن أيك من بعدها (٢) . ولكن ذلك كله لم ينجها من سوء المصير ، فقتلها مالك أيك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقمص ، إلى أن دحمت في قفّة، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيك وشجر الدر جميعا (٣) .

### السلطان المنصور علي بن أيك : (١٢٥٧ - ١٢٥٩)

لم يؤمن الممالك بنظام وراثّة العرش . ولم يقبوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذي جعل منصب السلطنة دائما موضعاً

(١) المرزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) المرزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء المماليك عقب وفاة كل سلطان. وكان الذي يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الامراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى في منصب السلطنة بدلا من ابيه ، لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينجلي الموقف بين الامراء ويظهر الأمير القوي الذي يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الامراء ، وعندئذ يأخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل .

وكان هذا هو الموقف في مصر بعد مقتل السلطان أيك ، إذ اجتمع كبار الامراء واختاروا ابنه نور الدين علي - الذي تلقب بالمنصور - سلطاناً ؛ وكان في الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبي أن يصمد في وجه كبار الامراء أو أن يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيك أنه كان يقضى وقته في التلهي بركوب الخيول والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسر هان مظاهر التنافس بين كبار الامراء في الدولة ، فقبض الأمير قطز - الذي كان نائب السلطنة وأقوى الامراء نفوذاً في شؤون الدولة - على الأمير علم الدين سنجر الحلبي أنابك العسكر ، وعين بدله في ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاي . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطز وأنه ينوي عزله مع بقية المماليك المعزبة ، ولكن بعض الامراء تواسطوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطز المعزى من ناحية أخرى (١) وهكذا عاشت القاهرة في تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهي المظاهر التي نشأت عن قيام صبي قاصر في السلطنة

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ - ٤٣ .

وبمجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسي السلطنة .

وفي ذلك الوقت كان المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام في عهد المعز أيبك بعد مقتل كبيرهم أقطاي ، مازالوا يتبعون القرص للثأر لأنفسهم . ولم ينس زعماء البحرية بالشام أن السلطان المنصور هلى إمامه وابن المعز أيبك الذى تسبب فى تشريدهم ومقتل زعيمهم ، كذلك لم ينسوا ان الأمير قطز نائب السلطنة فى مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هوىوا بسبب وفهم على رقبة أقطاي تنفيذاً لأوامر المعز أيبك ، وكانت العلاقة قد ساءت بين الفاضل يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحرية بالشام من ناحية أخرى ، فاتجه البحرية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبي فى ملك مصر (١) . وفعلا استجاب المغيث عمر لدعوة البحرية فأمدهم بالمال والسلاح وخرج البحرية متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصرى لصد خطر البحرية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة هند الصالحية ، حيث أسر منهم بعض الأمراء مثل قلاون الألقى وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلاحق بأصحابه (٢) .

على أن البحرية لم يكفوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فاتمروا فرصة الفوضى التى حمت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ، وزيروا المغيث عمر مرة أخرى للخروج معهم لأخذ مصر . وفى تلك المرة - سنة ١٢٥٨ - خرج المغيث عمر بنفسه صهبة البحرية ، ولكن الأمير قطز تصدى للغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى هند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) التريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .



إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار (١). ويبدو أن حركات البحرية في ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبي فتصدى لهم وأخذ يطاردهم، وهدد المغيث عمر بتسليم من لديه منهم، وكان ذلك في الوقت الذي اشتد خطر التتار ليهدد الأيوبيين والمماليك جميعاً في الشام ومصر.

ذلك أن الأخبار أخذت تترى - سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامة هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم. وفي ذلك الموقف الحرج وجد قطن فرصته سانحة لعزل الصبي المنصور علي بن أيك والجلوس محله على كرسي السلطنة، فجمع الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطيعة كل أحد، وينتصب للجهاد في القطار. فأجابه الجميع: ليس لها غيرك (٢).

وهكذا تم الأمر لقطن، فقبض على المنصور علي بن أيك وأخيه قاتان ابن أيك وأمهما، واعتقلهم جميعاً في برج بالقلعة، وتولى هو السلطنة بقلب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩.

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) أبو الهاسن: الذجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٥٥ .

## الفصل الثاني

### الممالك والتتار

سقوط الحضارة العباسية في بغداد :

عرفت قارة آسيا في التاريخ بأنها المخزن البشري الضخم الذي خرجت منه غزوات كثيرة في العصور الوسطى لتؤثر جاسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في أوضاع بلدان الشرق الأدنى حينها ، وبلدان شرق أوروبا ووسطها أحياناً . ويفسر الباحثون تلك الغزوات التي تدفقت من جوف القارة الآسيوية في العصور الوسطى في ضوء العامل الاقتصادي ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان وزيادة ضخمة وتناقص الأمطار في بعض الأوقات ، مما يدفع الشعوب الراهية الآسيوية إلى الهجرة في صورة غزوات هدامة ضخمة ، فتدمر الزرع والضرع وتحرق في طريقها المدن والقرى ، ولا يعنيها في كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجوع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نهض زعيمهم جنكيز خان في توحيد قبائلهم ثم في الاستيلاء على الصين في أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غدا التتار قوة رهيبية لم تقمق بالأقاليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى ، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حريياً عنيفاً واسع النطاق .

ويعمنا من أمر تلك الغزوات المغولية التي شهدها النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أن منكوخان - خاقان التتار الأعظم - أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والعمام ومصر وبلاد الروم ( السلاجقة ) والأرمن . وفعلا لم يكف  
بمنتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قضوا على الدولة الخوارزمية  
وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس ، وبذلك  
جاء دور الخلافة العباسية في بغداد<sup>(١)</sup> . وكانت الخلافة العباسية هندية منتصف  
القرن الثالث عشر - في عهد الخليفة المستعصم باقته - تعانى آلام الموت بعد  
أن اعترها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة  
الأمراء على الخلافة وشؤونها ، ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود في وجه  
الغزو المغولي للعراق سنة ١٢٥٧ . في الوقت الذي نشأت جهود الخلافة المستعصم  
العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في العمام ومصر لصد ذلك  
الخطر<sup>(٢)</sup> .

وهكذا اقتحم التتار بغداد في فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها  
في مذبحه رهية استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار في المدينة بعد ذلك  
فأنت على كثير من تراث العباسيين - بل تراث الحضارة الإسلامية - في  
الآداب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم باقته العباسي فقد قتله التتار في ٣٠  
فبراير بعد أن حصلوا منه على كل دماء كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال  
خمسة قرون ،<sup>(٣)</sup> ولم يكتف التتار بقتل الخليفة العباسي نفسه بل أرادوا  
أن يهدثوا مذبحه لاستئصال جذور البيت العباسي كله وبقضوا على كل شخص  
وجده حيا من العباسيين ،<sup>(٤)</sup>

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ص ٢٩٤ .

## التتار في الشام

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمرؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلما استولوا على بلد - يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فيسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جندهم ولا كورسله وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم<sup>(١)</sup> ، وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسليمان سلاجقة الروم . وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمرؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالاً ، إذ أسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ هـ بتحف وتقدم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه ، لملمه بعجزه عن سلتقى التتر ،<sup>(٢)</sup>

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

(١) رشيد الدين الممقاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) أبو نقدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

لإذ لم يكن إعلان ولاتهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاء عن الشام .  
وقد بدأ التتار هجماتهم ضد أبي أيوب بالاستيلاء على ميا فارقين في ديار بكر ،  
وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل دحمه ، وعندما استولى التتار  
على تلك المدينة ذهبوا من فيها من المسلمين ، في حين قطعوا جسد الكامل  
محمد الأيوبي إرباً وحملوا رأسه على حربة ليطاف بها في جميع أنحاء الشام من  
حلب إلى دمشق (١) .

أما الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل  
ابنه العزيز إلى هولاء ، لأن الأخير نهجج بأن هدم حضور الناصر يوسف  
بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له . ويرى  
المقريزي أن العزيز طرد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاء كوهصف له فيها ما حل  
ببغداد على أيدي التتار وينذر بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد  
أو شرط (٢) . وفي تلك الأزمات لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى  
المماليك في مصر ، فأرسل إليهم الصاحب كمال الدين بن العديم ليطلب معونتهم  
لمواجهة خطر التتار ، فوعده المماليك بالمساعدة (٣) .

وهنا يصبح أن نشير إلى أن فزو التتار لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً  
صليبياً ذلك أن زوجة هولاء كوه وأمهم كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري ،  
الأمر الذي جعل هولاء كوه يعطف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين في  
الشرق الأدنى . وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق  
الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصة طيبة في إمكان تهويل التتار إلى المسيحية  
فانصلوا بهم واستناروهم ضد المسلمين . وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة

(١) D<sup>r</sup> Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(٢) المقريزي : السلوك ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ - ٧٣ .

ما ثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسمه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليقتلها المسيحيون (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكرديستان على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقد رفض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقتمحو المدينة في يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلا وأسرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام ، فأمر حملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو ، في حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار . ولا شك في أن نخاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولاكو بعد ذلك الاستيلاء على دمشق في مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام في الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

### السلطان المظفر قطز : (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

وفي تلك الأوقات التي شهدت سقوط بلاد الشام في أيدي التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف لعزل هلي بن أيوب وإعلان نفسه سلطانا ، كما سبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون السلطان المظفر قطز بأنه « كان بطالا شجاعا

(١) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) Greasset i Hist, des Croisades, Tome III, p587.

مقدماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في  
جهاد التتار. (١)

والواقع أن قطر تولى منصب السلطة في ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ  
كان مطالباً منه أن يصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في  
وجهه. ولم يكف قطر يمتلئ عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاء  
يطلبون منه الاستسلام وينذكرونه بما فعله المغول وينذكرونه سوء العاقبة إذا  
حدثته نفسه بالمقاومة؛ . . . فلكم بجميع البلاد معتبر وعن من منا مزدجر،  
فانظروا بغيركم واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود  
عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد  
فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب  
وعلينا بالطلب. . . (٢)

ولكن قطر لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنها والإفادة  
منها. وكان أن جمع السلطان قطر الأمراء واستشارهم في الأمر فقررُوا المقاومة  
وعدم الاستسلام، وعندئذ أمر قطر بتوسيط رسل التتار - وكانوا أربعة -  
فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثاني عند باب زويلة، والثالث عند باب النصر  
والرابع بالريديانية، ثم علق رؤوسهم جميعاً على باب زويلة (٣).

وفي تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية - الذين كانوا أمازواهاً من على  
وجوههم بالشام - روحاً طيبة وحماسة نادرة مما كان له أثر كبير في التغلب على  
التتار. وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية بصرون على  
مقاومتهم وهدم الاستسلام لهم. ويقال إن أحد أمراء دمشق - وهو زين الدين

(١) أبو الحسن: النجم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤.

(٢) المرزى: السلوك ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٣) المرزى: السلوك ج ١ ص ٤٢٩.

الحافظي - أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام  
لهولاكو والدخول في عاقلته ، ولكن الأمير بيبرس البندقداري - وهو أحد  
زعماء البحرية - لم يعبه ذلك القول ، فقام وصرخ الأمير الحافظي على وجهه  
قائلاً : أنتم سبب هلاك المسلمين ،<sup>(١)</sup> وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس  
البندقداري ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس  
إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار  
وقدر حب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله  
وأقطعته قلوب وأعمالها<sup>(٢)</sup> . وبذلك تماسك المماليك جميعاً بجزيرة وشبه جزيرة -  
وأظهر واروحاطية لمواجهة ألدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى  
في القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفي الوقت الذي أظهر المماليك جميعاً تماسكاً عظيماً في صد خطر التتار ،  
إذا بالظروف نفسها تساعدهم في التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن مشكوخان  
خاقان المغول العظيم توفي في أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته  
حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاًكو بوفاة أخيه ،  
رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار في جوف آسيا ، فعاد إليها تاركاً قيادة  
جيوشه بالشام لقائده كتبغا . ولا شك في أن عودة هولاًكو إلى قراقورم ومعه  
جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي  
أخذ السلطان قطز يعددته لمواجهة خطرهم<sup>(٣)</sup> .

(١) القزويني : السلوك ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣٠٨ .



وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمرأه في السير بعد أن تذكروا ما أحاطت تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العيب في نظر كثير من المعاصرين . ولكن السلطان المظفر قطز هب في أمرائه صائحاً دياً أمرأه المسلمين : لكم زمان نأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون . أنا متوجه ، فنأختار الجهاد يصحبنى ومن لم يفت ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين (١) .

وبمثل هذه الروح وأصل الجيش المماليكي زحفه في اتجاه الشام في بولية سنة ١٢٦٠ . وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى أجهه إلى غزة ، في الوقت الذى كان كتبها قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا . وقد أرسل بيدرا إلى كتبها - الذى كان عندئذ فى بعلبك - يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكي ويطلب منه النجدة ، ولكن كتبها رد عليه قائلاً : قف مكانك وانتظر ، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه . على أن المماليك فوتوا على التتار فرضهم ، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى (٢) .

وكان لو وصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين في كافة مدن الشام ، إذ أروا فى ذلك النصر بادرة أمل ، وتشجعوا على مقاومة التتار (٣) وفى الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظر فلم يحاولوا استنارة الصليبيين وحرصوا على مسالمتهم حتى لا يجاروا برأخصمين فى وقت واحد . وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الصليبية يستأذنونها فى السماح لجيوشهم

(١) المرزى : السلوك ج ٤ ص ٤٢٠ .

(٢) رشيد الدين الهمدانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ، فوافق الصليبيون على ذلك الطلب (١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بحذاء الساحل ، ومر المماليك بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا ؛ بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقدام والهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، فمكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه (٢) . وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على ما لازمهم من ميرة ومون ، اتجهوا شرقا عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة . لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة ، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت - بين بيسان ونابلس - وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار . وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل د وكانه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ (٣) . وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ؛ حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خودته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته دوالسلاماء وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً ودولوا الأدبار لابلون على شىء . أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتيلاً (٤) .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة . فلوانتهصر التتار فى تلك الموقعة لفعولوا

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٥ - ١١٣٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٣) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل لأقاموا واستقروا بالشام مثلما أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى في دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً في تاريخها . ولكن انتصار المماليك في عين جالوت لم ينفذ مصر فحسب من هزيمة التتار ، بل أنقذ الشام أيضا ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بهم في عين جالوت (١).

ولكن مع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم في موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهي العوامل التي تستر عذرة في التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصي لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سليماً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإنزال ضربة قاصمة بالعدو المشترك ممثلاً في المسلمين . كذلك كانت عودة هولاء كوكبهم مع معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاء كوكبهم في المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً في نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كبيرة ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هي أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الغزو كالسكرة التي تنطلق في أول أمرها في سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفترق قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً ، ولا توجد غزوة في التاريخ استمرت في حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

(١) صعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي ، بعد أن طالت خطوط موصلاتهم وبعثوا كثيراً عن مركزهم الأصلي في جوف القارة الآسيوية ، فضلاً عما استنفدوه من جهد وطاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان المسيحية والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

### نومبر مصر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت هي إعادة الوحدة بين مصر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك في مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وإصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لابد منها لمواجهة الأخطار التي واجهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . ولكن تقاعس ملوك البيت الأيوبي عن صد التتار ونفورهم من الجهاد ، بل تواطؤوا بمض أبناء البيت الأيوبي مع التتار واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ؛ أفقد بنى أيوب أي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية هين الجديرة بحكم المسلمين .

وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى دعامة تعتمد عليها في البقاء في الحكم . ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شيء مقتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلاً عن كونهم يجر حنين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم في حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يرضي عليهم نوعاً من

التشريف ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشريعة ويجعل حكمهم مستساغاً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك في عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، في صورة الدرع الواقي للوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإفقاد الشام ومصر من براثنهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فبنى الناس أصلهم غير الحر ، وتناموا أنهم في حقيقة أمرهم مفتضبو العرش من ساداتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرون لإشيتاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ؛ وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى ، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة إذناً بغروب شمس دولة بني أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار فدأة موقعة عين جالوت سيد المرتقب في د بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر ، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرفة وكانت بيد الحلبيين<sup>(١)</sup> . أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصببية - وهو الذي توأما مع التتار وانضم

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٤

اليوم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال<sup>(١)</sup>.

ولم يكف يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر في حين فر د نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم<sup>(٢)</sup> ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليبا إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه<sup>(٣)</sup>.

#### السلطان الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ - ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتسكيراً بما لبطلته إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظاً من التقدير بعدما أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يولييه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فملاً بمنحها إياه<sup>(٤)</sup> . ولكن قطز امتنع وتكرّر للجمل ، وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المسكنة التي أحرزها بيبرس في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولو كان قطز حكيماً لآلى بيبرس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

بقيامته بحلب ، وبذلك يأمن منافسته له في مصر<sup>(١)</sup> . ولا يخفى علينا أن البحرية -  
ورمهم بيبرس - لم ينسوا قطز أنه شارك في قتل كبيرهم أقطاي زمن أبيك ،  
وبمعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائماً أن لهم ثأراً في عنق قطز ، ولذا  
لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التمريض والاستئثار ضد قطز .

وكان أن صمم بيبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه  
من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة . وسرعان ما حانت الفرصة  
عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة . ذلك أن  
قطز أظهر رغبته في الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس  
وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأ نعم عليه بما أراد .  
وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين  
شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز ليندمه من الحركة في حين انهمال  
عليه بقية أمراء البحرية بسيفهم ورمحهم وأقوه عن فرسه حتى أجهزوا  
عليه . وبمقتل قطز على ذلك الوجه في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا  
الطريق للبحرية وزعيمهم بيبرس<sup>(٢)</sup> .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير ركن  
الدين بيبرس ، برصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة  
في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلاً عن مواقفه المشرفة في محاربة المغول  
من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا  
بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على  
سلطنة بيبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند  
باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٣ - ٣٤

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

الأتابك من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا ، فنظر إليه الأتابك وقال : ياخوند ، اجلس في مرتبة السلطنة !<sup>(١)</sup> وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل محل القتيل ، فاستدعى العسكر في الحال ليحلقوا للسلطان الجديد قبل أن نجف دماء ضحيته ، وكان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز وبهنته بانتصاره في عين جالوت ، فاستدعى القاضي نفسه ليقوم بتخليف العسكر للملك بيبرس الذي تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية في الصالحية . قال الأمير أنطاي لبيبرس : لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل ، لذلك أمرع بيبرس ومعه صحبه من الأمرام إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادى ينادى في طرقات القاهرة : ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل ، فلقبه الأمير عز الدين أيمن نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطز ، فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد وتقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأمرام ولاههم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد<sup>(٢)</sup>.

ويروي المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان قاضيا في الأدب وعلم التاريخ - دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه : القاهر ، وقال له : ما لقب به أحد فأفصح ، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسبيل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ، لذلك أشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقباً جديداً هو : الملك الظاهر<sup>(٣)</sup>.

(١) القرظي : السلوك ج ١ ص ٤٣٦

(٢) القرظي : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ .



وبدخول بيبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة في تاريخ دولة المماليك ، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك في الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك في ذلك الدور . أما بيبرس فيكفيه أنه شغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد بقى مدة طويلة في الحكم ، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية ، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار التتار والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ؛ وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي ، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيبرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجهاد ويثبت أركان دولته ، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالهجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب  
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لجأ بيبرس إلى

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٧ .

عدة إجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ؛ ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحجى الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامته له وللحكيم المماليك في مصر والشام ، وسنتكلم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعي في فصول هذا الكتاب ؛ ونكتفي في هذا الموضع بالكلام عن موقف بيبرس من تثار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التثار قد انسحبوا من الشام عقب عين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاصحة التي حلت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سئمت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتثار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محوراً لنشاطه وبجالا لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تثار فارس بوصفهم وثنيين أولاً ومسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد تانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أمراء المسلمين الذين استولى التثار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يهزضونهم ضد المغول ؛ حتى أن يكون في ذلك التحريض تفضيلاً عما تمكنه صدورهم من حقد على المغول ، وسلبوا لما لحقهم من خسارة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي تهددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتثار جميعاً (٢) .

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 431.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٦ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة - وهي قلعة هامة على نهر الفرات - وحاصروها بغية الاستيلاء عليها. وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥، فوصل غزة في ٩ فبراير. ولما شكوا بعضهم إلى السلطان قلة الدواب قال دما أئاني قيد الجمال، أنا في قيد نصر الإسلام<sup>(١)</sup>. على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة؛ إذ وافته الأخبار وهو في دمشق بأن التتار ولوا مدبرين أمام الإمدادات التي أرسلها بيبرس إلى البيرة محبة الملك المنصور صاحب حماة<sup>(٢)</sup>. ولما أدرك بيبرس أن التتار في فارس يتخذون البيرة مركزاً للمبور إلى بلاد الشام؛ أمر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليكفونوا هيوناً له على التتار فيخبرونه بتحركاتهم وأحوالهم<sup>(٣)</sup>.

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار في فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهديته الموقف بين التتار وسلطنة المماليك، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً نسطورياً، فتزوج من ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وحرص على أن يدعم هلاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر. على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعد على الاستمرار في معاداة المسلمين في مصر والشام، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمّل الهدايا وتطلب الصلح. ولمكن بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصلح التتار، وهم الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦ .

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام<sup>(١)</sup>. ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح، عاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ وصولاً إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح. وفي تلك المرة وعط أبغا ملك أرمينية الصغرى في طلب الصلح، كما لجأ إلى مريج من التهديد والترغيب، فجاء في كتابه إلى بيبرس. وإن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا؛ فالصلحة أن تجعل بيننا صلحاً. ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح؛ بل عمد على لسان رسوله - إلى تهرج بيبرس بأصله المماليكي غير الحر، والخط من قدره وقيمته بين الملوك؛ فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث: أنت ملوك وأبعث في سيواس، فكيف لشاقي الملوك، ملوك الأرض؟<sup>(٢)</sup>.

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأهصاب التي حاول أبغا أن يفرضها عليه؛ فرفض مبدأ الصلح، ورد على رسول التتار قائلاً: «أعلم أني وراه بالمطالبة ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض»<sup>(٣)</sup> وهكذا ينس أبغا من مصالحة بيبرس، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحاربة الصليبيين. وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساحور - قرب حلب - دوائهم واهدوا فرنج الساحل، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام. وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجنود، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص ٩٦.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٥٧٤.

(٣) العيني: عند الجناح ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط).

أصد التتار . ولم يكتف ببيرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكده يصل إلى دمشق حتى سمع بانتهزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم يقنع أبغا بذلك الفشل الذي منى به في هجراته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن ببيرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقا من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحاصت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلقائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم هم الآخرون<sup>(١)</sup> .

ومرة أخرى يدس أبغا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين ببيرس والصليبيين بما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناورة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبغا بعض الرسل إلى ببيرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتهدئة لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفي تلك المرة أكرم ببيرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أسرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن أبغا أراد أن يستعجل الصلح ، فقام ببعض حركاته العسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن ببيرس أهمل رسل التتار ولم يحتفل بهم ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان ببيرس بنفسه إلى بلاط أبغا لعقد الصلح ، وعندئذ رد ببيرس على رسل التتار قائلا : بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته .

وكان أن عادت جيوش أبغا إلى الإغارة من جديد على البيرة فنصبوا المحانيق لها جهتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها هرب

(١) المرزبي : السلوك ج ١ ص ٥٨٤ .

(٢) ببيرس الموادار : قبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ١٠٤ - ١٠٥ .

مفضل ابن أبي الفضائل : المنهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) المرزبي : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قواته لإفقاد البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله  
الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد  
وأسلحة (١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس لإزاء تثار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما  
تعدت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة  
سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧  
على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع  
بيبرس أن يمزق الجيش التتاري في الإناضول عند أبلستين في ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ،  
دون أن يستطيع كينغسرو الثالث - الذي كان مسفيراً - أو وزيره معين  
الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر (٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام  
أسرع أبغاً إلى أبلستين حيث « شاهد عسكره صرعى ولم يشاهد أحداً من عسكر  
الروم مقتولاً ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين » (٣)  
ويروي رشيد الدين الهمداني أن أبغاً بكى عندما شاهد قتل التتار مكديين  
وحزن على رجاله حزناً شديداً (٤) .

### عروة المماليك بتتار فارس عهد بيبرس :

وهكذا استمر العداء بين التتار في فارس والعراق من ناحية والمماليك في  
مصر والشام من ناحية أخرى قائمة طوال عهد بيبرس ، ولا تنكاد الحرب بين  
الطرفين تهدأ حيناً إلا لتتور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفي

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .

(٢) مفصل بن أبي الفضائل : كتاب التهج السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٤) رشيد الدين الهمداني : جوامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ .

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان ر على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرها من أرض الالم وقتلهم الخليفة العباسي وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن رى الإسلامية ... هذه الأعمال وغيرها أثارت لئنة المسلمين جميعاً على ر في فارس والعراق وجعلت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها روت بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدي تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس بمجرد اة حاكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة الفلق وعدم استقرار التي تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ يام السلطان المنصور قلاوون في الحكم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام ، سجد يد بنفس الوحشية والدموية التي عرفوا بها من قبل ولسكن السلطان منصور قلاوون أظهر أنه لا يقل ثباتاً في وجه التتار عن سلفيه بيبرس وقطز ، يكند يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل خندم ملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولي التتار الأدبار<sup>(١)</sup> وعندما طرد أبغا الهجوم على الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان منصور قلاوون التي استطاعت إزلال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن وفي بعد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢<sup>(٢)</sup> .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٨٠ .

(٢) بيبرس الفوادار : زبدة الفسكه ج ٩ ورقة ١١٣ ،

النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ - ٩ .

أن تكردار الذى خلف أخاه أبنا فى الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتلائه عرش تمار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم ينف أحمد تكودار فى رسالته إلى المنصور قلاون رغبته فى توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين التمار والمماليك . فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لؤلؤى وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب وهر فناقم طريقتنا وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئناسها وحرمتها على جميع العساكر العمل بخلافها ، نرضى الله والرسول ويلوح على صفحتها آثار الإقبال والقبول ، وتسريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلى بنور الاتفاق ظلمة الاختلاف والفتنة<sup>(١)</sup> . وكان من الطيبى أن يرحب السلطان قلاون بدخول إيمان القتال فى الإسلام ، وبإحلال السلام محل الحروب والعدوان بين التمار والمماليك<sup>(٢)</sup> .

ولكن شاءت الظروف ألا يستمر أحمد تكودار فى حكم تمار فارس ، إذ نقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده ، الأمر الذى أساء إلى العلاقة بين تمار فارس وسلطنة المماليك مرة أخرى مما أدى إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك بضرورة إجلاء التمار عن العراق<sup>(٣)</sup> . على أن سلاطين المماليك كانوا لا يستطيون القيام بذلك بل ينسرعون الضخم فى الوقت الذى استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيراً

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) هبى الدين بن عبد الظاهر : تهرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ص ١٠ - ١٢ .

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .



من جهودهم ؛ فاكتمى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربي الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة لوثوب منها على بلاد الشام (١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذي أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة في نصرة المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبوذية (٢) على أن حماسة غازان للإسلام لم تقربه من سلطنة المماليك ، لأنه أبى إلا أن يتمسك بسياسة أسلافه التوسعية على حساب حيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاوون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . فحير أن الناصر محمد لم يستطع أن يصمد في وجه التتار الذين أنزلوا الهزيمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه (٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الهزيمة إلى دمشق حيث عم الأهالي الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس في المسجد الأموي (٤) ؛ ندد فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالي دمشق بأنه لن يتعرض أحد من المساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريةهم .

ولكن غازان لم يحفظ وعده ، إذ لم يكف رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فسادا في المدينة وأهلها ، ثم اقتشر القتل بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج الجديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) Howarth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

(٤) الذيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

(٤) — العصر المماليكي

والكرك في جنوب فلسطين ، في الوقت الذي عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يميثون فساداً في أرجاء الشام ، ولذلك نادى الناصر محمد إلى مصر ليعمد جيشاً كبيراً يخرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات (١) وفي موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأديبار عبر الفرات وبذلك طادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك ، ويبدو أن النصر الذي أحرزته السلطان الناصر محمد في موقعة مرج الصفر جعله يعتد بنفسه ، فأرسل إلى غازان محقراً إياه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية ، وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والهجوم وتبدل وجودك بالعدم .. فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريماً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، (٢) . ويقال إن غازان لم يحتفل مرارة الهزيمة فمات من الفيظ في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أوجلتايو بن أرغون .

وعلى الرغم من أن أوجلتايو حاول في بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه الله » (٣) ، إلا أن اعتناق أوجلتايو المذهب الشيعي جعله ينفرد من المماليك السنين ، فعاد إلى التفكير في مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أوجلتايو على اتباع هذه السياسة الجديدة فراراً لئلين من كبار أمراء المماليك - هم أقراسينقر والافرم - إليه حيث زينا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلاً في مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أذراجهم بعد أن ضمهموا بأقتراب الناصر محمد

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٩ - ١٩٧ هـ

(٢) زهرهتين : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ - ١٢١ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرارة (١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تكرر سنة ١٣١٥ حول ماردين ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسبق أسراهم إلى حلب (٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجانيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول في العلاقات بين دولتي المماليك وتتار فارس ، إذ هدأت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد في القرن الرابع عشر ، في الوقت الذي أخذت دولة المماليك البحرية تعاني كثيراً من مظاهر التفسكك في عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان في مصر ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئى السلوك ج ٢ ص ١٤٧ .

## الفصل الثالث

### الممالك والصليبيون

التبرير الأدنى بين خطريهما :

إذا كان الممالك قد واجهوا في فجر دولتهم التي أكاموها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونهجوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخرأ كان على الممالك مواجهة بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وأهق بهذا الخطر الثاني خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحاً في بعض النواحي ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، في نواح أخرى . فنحن نرى أن الخطرين التتري والصليبي متفقان في أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتري في دولة فارس والعراق كانوا في الدور الأول من تاريخهم وثنيين بوزيين ؛ إلا أن الميول المسيحية النسطورية لا يمكن إخفاؤها في سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدور بالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولانكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة في بلاطه كانت مسيحية ، نسطورية (١) ، فضلاً عن أن بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى — وبخاصة ملكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار في القضاء على الكيان الإسلامي ، ولذلك تحالف الأرمين مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولانكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية في غرب أوروبا

(١) رشيد الدين المغانني : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (٢٢٠ ج ١) ٥

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين النصارى والمسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات. لذلك لا عجب إذا همل المسيحيون الشرقيون - في الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى - الحركة التوسعية التترية ، ولا عجب إذا سمعنا في المراجع أن رجال هولوكو كانوا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية - مثل حلب أو دمشق - أسرفوا في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا في تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها<sup>(١)</sup>.

وثمة وجه آخر من أوجه التشابه بين الخطرين الصليبي والتتري هو أن كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامي في تلك المنطقة. فالتتار وفدوا من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين في القرن الثالث عشر يحسون بمراة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شقي رحى ضخمة تريد أن تسحقهم وتقضى على كياناتهم. وقد عبر المؤرخ ابن الأثير تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور في رفة عميقة أرسلها قلبه إذ يقول : لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوه إليه الآن. هذا العدو الكافر التتري قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربروها. والعدو الآخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها .. فإننا لله وإننا إليه راجعون ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ... ١٠٠٠، ٢٢

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التتري والصليبي، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبي أعمق جذورا وأقدم عمرا من الخطر التتري. فبينما كان خطر التتار من النوع الدائم المفاجيء الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبي أهمل الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ويتخذ مسمحة دينية - ولو ظاهرية - يظن وراءها أغراضا أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطراً على المسلمين فى الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفاً وبدت أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبي كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمرکز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوروبا، وشتان بين المسافة بين غرب أوروبا والشام، والمسافة بين قراقورم - قاعدة التتار فى جوف آسيا - وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة، وطالما استمر هجمه الحجاج والصليبيين من غرب أوروبا إلى بلاد الشام، ضمنى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قوة تغذيها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار فى فارس والعراق فهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم فى تلك البلدان البعيدة فى الشرق الأدنى ضعفت الصلوات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يجدوا هذاه بشريا مستمرا يهيى فيهم أصولهم الأولى، فتمرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والدوبان البطيء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن تتسلل من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التتري، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضي مصر فضلاً عن إمارات ومشيخات قرية أسسوها في الشام، ودول مسيحية مستقلة تجاوبت معهم في أرمينية وقبرص. وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوربي الغربي، وتعتمد في تهديدها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة.

وهنا أظهر المماليك ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد. وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين في نفس الوقت الذي قاتلوا فيه التتار، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك.

### لويس التاسع في بزء الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إزال العنقبة القاصمة بالجيش الصليبي قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا. وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك في حكم مصر، فكان على الدولة الجديدة أن تقوم بجهد سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر. حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أميراً في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولكن الصليبيين كانوا أماراً والوا يحتلون دمياط الأمر الذي شكل خطراً جسيماً على مصر ودولة المماليك الناشئة. ومن يدري، فإنه طالما ظلت دمياط في أيدي الصليبيين، فإن ذلك كان كفيلاً بأن يجعل منها قاعدة للصليبيين في الأراضي المصرية يمكن أن

تأتي إليها الوفود الصليبية من الغرب الأوربي للقيام بمحاولة أخوى لغزو مصر  
وفك أسر لويس التاسع . لذلك حرصت شجر الدر - أولى سلاطين المماليك  
في مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أسر لويس التاسع ، كما سبق  
أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع في تلك الاتفاقية ألا يقصد شواطئ الإسلام مرة  
أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى  
بلاد مباشرة وقد لاحظت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد  
بلاد الشام أولاً عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه  
مآه وجهه . وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أحوالهم ما يكرهون إلى زعيم قوى  
ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويبعث فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا  
بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً<sup>(١)</sup> . وقد قضى لويس التاسع  
بالشام أربع سنوات ( مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٦٤ ) عمل فيها جاهداً لتصفية  
الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان  
الصليبيين وسط الخلافات التي تاجعت بين بني أيوب في الشام والمماليك في  
مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أعاد لويس التاسع في الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ،  
لأن كل فريق أخذ يخطب وده ويحاول مخالفته ضد الطرف الآخر . ومن ذلك  
أن المعز أيك سلطان المماليك في مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأفرج  
عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحواً من ثلاثة آلاف أسير ، كما أرسل  
هدية إلى لويس التاسع<sup>(٢)</sup> . أما الناصر يوسف - كبير الأيوبيين بالشام -

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256.



فقد يادو هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع في هذا يعرض عليه  
عائلته ويعدده بإعطائه بيت المقدس<sup>(١)</sup> وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه  
أن يقبل العرض الأيوبي ويضحي بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبي  
ما زالوا أسرى في مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك في  
مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين  
وإعطاء لويس التاسع من مؤخر القديرة المستحق هايله ، فضلاً عن إعطاء بيت  
المقدس للصليبيين ، إن نصرهم على الغاميين ،<sup>(٢)</sup> . وفي مقابل ذلك كله  
وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك في القيام بحملة ضد الناصر يوسف  
الأيوبي ، على أن تلتقي جيوش الحلفاء عند ياقا في مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه  
حدث في تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسي في الصلح بين الأيوبيين والمماليك  
— كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة  
الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين  
والمماليك<sup>(٣)</sup> . ولم يجهد لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين  
بالشام سوى الاتصال بالتمتار لمحالفتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك .  
ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤد إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع  
يقادير بلاد الشام عائداً إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن  
هذا الصدام لم يستمر طويلاً ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين<sup>(٤)</sup>  
والعل السبب في ذلك هو أن كلام الطرفين لم يكن مستعداً للدخول في حرب

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) الدينى : عهد الجمان حوادث سنة ٦٥١ هـ ( ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤ ) .

(٣) مسيد ماشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٧ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم في خلافات داخلية خطيرة. - المماليك كانوا يقيمون دولة في دور التأسيس ولم يستطع أن تظف على قدمها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها .

وبانتصار المماليك على التتار في عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطرين واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين. وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام، وحققوا لأنفسهم من الجلب ما أضحى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية. وما دام المماليك قد ورنوا الأيوبيين في ملكهم في مصر والشام، فإنه كان من الطبيعي أن يرنوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام. وإذا كان القدر لم يميل قطر بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يسهم بهمهم وافر في جهاد الصليبيين والتهدد لطردهم كاية من بلاد الشام.

### الظاهر بيبرسي والخدمة بغيره على أنطاكية:

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك في أواخر سنة ١٢٦٠، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبدهم نظراً. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك للحرب الصليبيين. (١) والواقع أن الحقيقة الكبرى التي توأجتها في نشاط بيبرس الحرب ضد أعداء الوطن الإسلامي في تلك الحقبة هي أنه يصعب وضع خط فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيراً ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين، فيحارب

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس س ٣٨ وما بعدها.

الأخر، أو محارب الاثني عشر معاً. وإذا كنا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمثابرة، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة متقطعة تأتي في أوقات متباعدة نسبياً، أي عندما يجرى التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابضين في العراق وفارس لا يبدأون بالهجوم على أطراف دولة المماليك في الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منتشرين في بلاد الشام شمالها وجنوبها - عن طريق عديد حصونهم ومعاقلهم التي أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر التتاري الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى في صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذي أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً خارجياً ضخماً كانت أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام<sup>(١)</sup>. وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، أي في نوفمبر سنة ١٢٦١ عندما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها يوهيموند السادس على مخالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢، وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢٢.

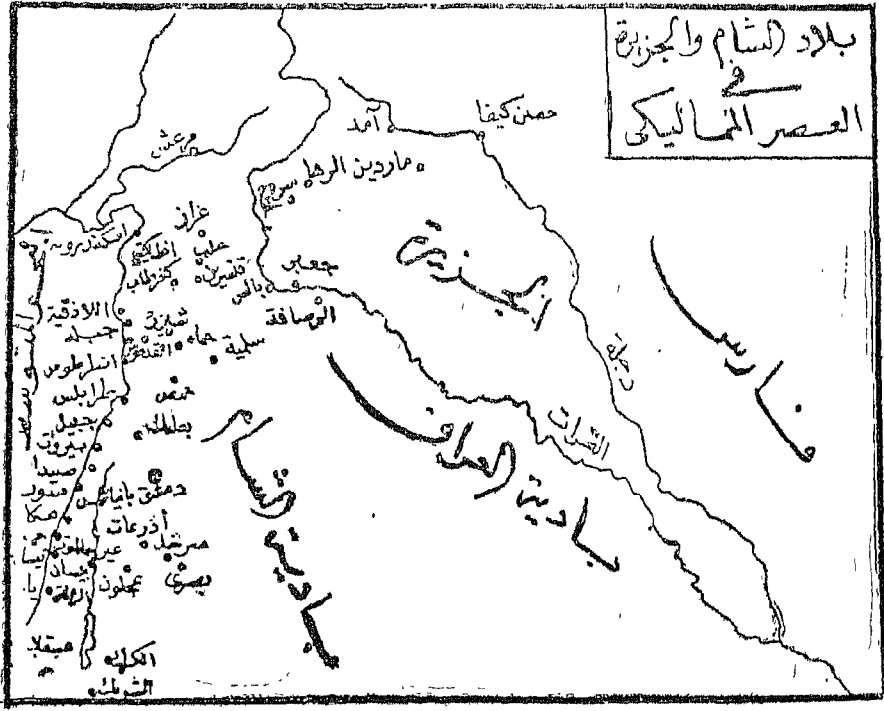
مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمفول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلاثمائة أسير (١) .

على أن بيبرس رأى قبل أن يتوجه بكليته إلى الفرنج ، — على قول المقرئى — (٢) أن يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليظهر سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المنتهكة ببيتها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى محاربة تار القفجاق — فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اعتنقوا الإسلام فأراد بيبرس أن يتخذ منهم عوناً على هولاء كوتار وتار فارس .

وقد بدأت الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح ، وبعض مناشات من جانب بيبرس لسبر فورم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ بيبرس حرباً شاملة ضدهم . ففى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان بيبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وهليلث وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبتها حاميتها من الاستنارية (٣) . وبعد استيلاء بيبرس على أرسوف جاء دور عكا ، ولكن هير الثالث الوصى على عرش قبرس قام عندئذ بالوصاية على عكا أيضاً لخطر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرس فى أبريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن عكا ، مما جعل بيبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

- 
- (١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .
  - (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .
  - (٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ .
  - (٤) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .

بلاد الشام والحجاز في  
العصر المماليكي





ثم عاد بيبرس في العام التالي - مايو سنة ١٢٦٦ - لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدتها هي الأخرى صعبة المنال ، فقصده صفد واستولى عليها في صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استسلمت هورنين وتبينين ومدينة الرملة (١) . وبعد ذلك استولى بيبرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرة .

ولم يفس السلطان بيبرس لأرمينية الصغرى موقفها وموقف ملكها هيثوم الأول في موازنة التنازل وحتمهم على هزول العام سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ . لذلك أرسل بيبرس جيشاً كبيراً في صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير فلان والملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المماليك أن ينزلوا مريمسة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دربساك في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل في الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثاني ، في حين كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار (٢) . وبعد أن أغار المماليك على مدن أرمينية الرئيسية - وهي أذنة والمصيصة وطرسوس - وأشعلوا النار في عاصمتها سيس ، عادوا معهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى (٣) . والواقع إن ملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليون الثالث (٤)

(١) المقرئبي : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ .

أبو الفدا : المختصر حوادث ٥٦٦٤ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ .

(٤) Runciman : op. cit; III p. 323.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة العلاقات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طابرية وعكا سنة ١٢٦٧ كما استولى على باقا والقصيف أرنون في العام التالي (١). أخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية ، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق ، إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع العلة بين أنطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قليبية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى ، في حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة . ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة ، بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالاطاسات . كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام ، وأبيع الصغير بانق عشر درهما والجارية بضمصة دراهم ، (٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير .

ولا نحفي علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات في قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨ . إذ كانت ثاني إمارة - بعد الرها - أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ ، لجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في الشام في أواخر القرن الحادي عشر .

وفي سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكاً على ملكة بيت المقدس الصليبية ، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام . ولكن بيبرس لم يحترم الهدنة التي كان يعتمدها مع الصليبيين بين حين وآخر ، وإنما جرم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية ، وعلى حصن الأكراد وحصن

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ من ١٤٢ ص

العين : عقد الجمان سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) القرظي : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٨ .



عكار من الاستراتيجية<sup>(١)</sup>. وفي طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين - إلى الشمال الشرقي من عكا - في يونية سنة ١٢٧١ ، وكان من الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان النيو تون حتى ذلك الوقت<sup>(٢)</sup>.

وفي تلك الأثناء كان السلطان بيبرس ناقماً على قبرس لجهود ملكها هيو الثالث في توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارصة على السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى . لذلك أرسل بيبرس أسطولاً سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة ، مما جعل حملة بيبرس تلتهم بالفشل<sup>(٣)</sup> .

ويلاحظ أن جهود بيبرس في ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين ، وإنما امتدت إلى تقليم أطراف الباطنية ، وهي الطائفة الهدامة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية . ولم يقنع الظاهر بيبرس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين ، وإنما أخذ يستولى على معاقلم بالشام ، وأقطعهم بدلا منها أراضي في مصر<sup>(٤)</sup> .

وفي سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزي ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام بما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) سميد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ - ٤٨ .

(٤) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ .

سميد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٨٢ - ٨٣ .

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوال مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصيصة وسيس وأذنة وطر سوس ولياس . هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار ، واستطاع أن يمزق الجيش التتري عند أبلستين في أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا (١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

#### أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ - ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المهاليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل علي ابن أيك وقيام قطز في السلطنة ؛ إلى أن خريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المهاليك لابنه الشهيد . وربما اغتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المهاليك ، فظن أنه حقق لنفسه وليته من المجد ما يكفل لابنه الملك الشهيد القيام في الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٦٤ لتنفيذ فرضه . ويروى المقرئ أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقم بديار مصر أثناء غيبة أبيه في حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بما صيحت

(1) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481-488.

هند ماهر ض بيبرس عما كرمهره وحلفهم لولى عهدہ الملك السعيد ناصر الدين  
خاقان بر كة خان» (١).

ولم يلبث السلطان بيبرس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد  
احتفالا كبيرا فأركبه بشمار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشيا على  
قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء  
والقضاة والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه وكانت  
شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع نفوسنا فيه الزيادة والنو وتوسعا منه حسن  
الجننا المرجو .. فليقتل الولد ما قلدها من أمور العباد ، وليشركنا فيما نباشره  
من مصالح الثغور والقلاع والبلاد» (٢).

ثم كان أن توفي السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فسكتب  
الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار إلى الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاة  
أبيه ، وعندئذ جدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر الممسكر  
والقضاة والأعيان ودعا له الخطباء في الجوامع (٣) .

على أن الملك السعيد اتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء ، فقرب إليه  
جماعة من المهالك الأحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة، الأمر الذي  
أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك  
الساق . وهدد ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء حول على  
التخلص منهم ، فسجن بعضهم ، الأمر الذي أثار الخواطر ضده ، وتزعج حركة  
المقاومة بمجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير  
شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيرا اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذارا إلى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة السكر ج ٩ ورقة ٨١ - ٨٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه ذلك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فلما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن<sup>(١)</sup> .

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تبدأ حيوياً وتساءً أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يتخلع نفسه عن السلطنة<sup>(٢)</sup> . وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه السكر ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاون ، فتظاهر بالزهد وتَمَنَع قائلًا : أنا لم أخلع السعيد سرها إلى السلطنة وحرصاً على المملوك ، ولكن فقط للنظام وأفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر<sup>(٣)</sup> ، ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاون الرغبة في الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان الظاهر إنما كان ادعاء باطلا لعدم إيمان المماليك بمبدأ توريث الملك ؛ وكل ما هنالك هو أن قلاون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختار أن يترتب لاسمها وأن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية - أتباع الظاهر - فخشي أن يثوروا ضده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلاش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاون أتباعاً له . وكانت هذه هي فرصة الأمير قلاون ، فاستغل صغر سن السلطان الجديد وأخذ يمسك لنفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ؛ بل لقد جعل نفسه شريكاً للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت  
السكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١).

ولما أدرك الأمير قلاون أن الكثرى قد انضجت ، جمع الأمراء ، وتحدث  
معهم في صغر سن السلطان العادل وقال لهم : « قد علمتم أن المملكة لا تقوم  
إلا برجل كامل ، فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى الكرك وتولية قلاون سلطنة  
مهصر (٢) .

### السلطان المنصور قهوه و الصليبيون (١٢٧٩ - ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه  
لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها  
غيره من سلاطين المماليك ، ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على  
السلطان الجديد لأنهم يأفوا الخنوع لواحد منهم أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه  
بالسلطنة . من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف  
بالمنصور قلاون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب  
بالمملك الكامل ودعى له في المسجد الأموي (٣) . على أن السلطان المنصور  
قلاون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر  
الذي اتصل بالتمتار وأغرام على غزو الشام . وأخيراً خضع سنقر الأشقر  
وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاون .

وقد اتبع السلطان المنصور قلاون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

(١) أبو الهامس : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٨ .

أبو المعاسن النجوم ج ٧ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

بالمصاد للنتار ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه العمل على تقويض بناء الصليبيين بالشام . ويبدو أن السلطان قلاون كان في الدور الأول من حكمه - أي حتى سنة ١٢٨٤ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر في الشام ، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم سنة ١٢٨١ ، الأمر الذي جعل قلاون يحرص في ذلك الدور على مساندة الصليبيين فمهد معهم صلحا لمدة عشر سنوات تبدأ بسنة ١٢٨١<sup>(١)</sup> . على أن الأمور لم تمكث تبدأ السلطان المنصور قلاون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصلح الذي سعى إليه بنفسه مع الصليبيين ، فشرع في مهاجمة الإسماعيلية واستولى منهم على حصن المرقب سنة ١٢٨٥<sup>(٢)</sup> .

والواقع إن جميع القواعد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا يرون بدور الاحتضار ، بعد أن فترت مهنة الغرب الأوربي من جهة وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> . وقد استغل المهالك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية بالشام إجمازا تاما ، فأرسل السلطان المنصور قلاون حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرناهي استولت على اللاذقية في أبريل سنة ١٢٨٧ ، وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية<sup>(٤)</sup> .

وشامت الظروف أن يهتم الخلاف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد وفاة أميرها بوهيموند السابع . ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس استنجدت بالسلطان قلاون طالبة تأييده فوجد قلاون في ذلك فرصة سانحة

(1) King : The Knights Hospitallers. 282.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والصور ص ٧٧ .  
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ - ١١٧٠ .  
(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ .  
محيي الدين عبد الظاهر : تهريف الأيام والصور ص ١٥١ .

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين . وهكذا أهد قلاون عدته ، وتحجز لأخذ طرابلس ،<sup>(١)</sup> وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩ . وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المعاهة ، وبهذه القوة الضاربة شمس قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ ومضايقتها مضايقة شديدة ، بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقاويون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر إبريل سنة ١٢٨٩<sup>(٢)</sup> . ويروى أبو الفدا أن بعض أهالي طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر ، فنجح أقلهم في المراكب وقتل غالب رجالها وسيب طرايرهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين ، ولكن المماليك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة . وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المنبحة السابقة ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها « من تن القتل »<sup>(٣)</sup> . وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة ، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر ، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية<sup>(٤)</sup> .

ولم يلبث الصليبيون أن أخذوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس - مثل بيروت وجبله - فاحتلها المماليك في سهولة . وإذا كانت جبيل قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات آخر ، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك ، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

- 
- (١) القرظي : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ .
  - (٢) أبو المعاسن : الهجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .
  - (٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ .
  - (٤) القرظي : السلوك ، ج ١ ص ٧٤٨ .

للسلطان<sup>(١)</sup> وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض بلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وحمليث .

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتجديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات<sup>(٢)</sup> . ولكن لم تكد المياه تفرغ إلى مجاريها بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا في صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجسد أن يعبروا عن حماسهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين في إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذي قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين<sup>(٣)</sup> .

ذلك أن أخبار العدوان الصليبي لم تكد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى اشتط غضباً ، ورفض الأعذار الواهية التي تجميع بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفي الوقت الذي أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأهرس بالاستعداد للحرب في الشام<sup>(٤)</sup> . على أنه لم يكد السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويقادر القاهرة فعلا للحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمه الموت في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠<sup>(٥)</sup> .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٦ .

(2) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351.

(٣) مفضل بن أبي الفضال : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام ص ١٧٨ .



السلطان الأشرف خليل بن قنوق : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

لم يكتب السلطان المنصور قلاوون يحمل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فعرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلعة سنة ١٢٨٠ و تلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه (١) .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨ أو يقال إن قلاوون حزن حزنا شديدا لوفاته ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاوون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالأشرف (٢) .

ومن الثابت أن المنصور قلاوون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يعميل إليه ولا يرضى عن تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال - عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل - « أنا ما أولى خليلًا على المسلمين » (٣) ويقال إن المنصور قلاوون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم ، فضلا عن اتهامه بفساد السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين (٤) . ولهذا الأسباب توفي السلطان المنصور قلاوون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

(١) بيرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٨ .

القلشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٢) القلشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ - ١٧٣ .

(٣) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٧٤٥ - ٧٥٦ .

(٤) المربع السابق ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاون ، استدعى القاضى ابن عبدالظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله : أين تقليدى؟ فأحضر القاضى التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف : إن السلطان امتنع أن يعطينى فأعطانى الله ، (١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاون .

وقد تعرض السلطان خليل فى أول كتابة للمؤامرات التقليدية التى تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، لحاول الأمير حسام الدين طر نظامى نائب السلطنة لإقصاء خليل عن العرش ولسكن السلطان الجديد نجاح فى القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طر نظامى وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين (٢) .

### طرد البقايا الصليبية من الشام :

وكان الصليبيون قد هلكوا لوفاة المنصور قلاون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت لإرادة الله لإيقاد عكا من مصيرها المحتوم . ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التى أعدها أبوه إلى الشام ، فى الوقت الذى أرسل إلى كافة القوات الإسلامية فى مختلف المدن الشامية بمقابله أمام عكا (٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجهزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار (٤) .

ولم يكف السلطان الأشرف خليل يصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

(٢) بيبرس الدواهار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ .

المقرئى : المواظ ج ١ ص ٧٥٧ .

(٣) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .

(4) Setton : op. cit. II, p. 595.

في خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق الكبيرة التي كان منها ما رمى بقنطار دمشق وأكبر ، وبذلك أمكن إحداث عدة ثغوب في سور المدينة<sup>(١)</sup> . وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط ، لجمعوا كل قواتهم في الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد والواديين ، حتى اجتمع في عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، لمحاولات الهيئات والجلاليات الصليبية أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلمتها<sup>(٢)</sup> .

وفي ٤ مايو وصل هنري الثاني ملك قبرس إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات ، ففرح الصليبيون في عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتوجهوا على الثبات والمقاومة<sup>(٣)</sup> . ولكن هنري الثاني لم يلبث أن فشل في التفاهم مع المسلمين من ناحية ، كما قنط من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافت من ناحية ثانية . ولذلك عاد هنري الثاني إلى قبرس ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المدافعين<sup>(٤)</sup> .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلاً في اقتحام المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية ، حتى خسر كلاهما قتيلًا في المعركة<sup>(٥)</sup> ولم يلبث أن وجد الصليبيون

(١) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ - ٨ .

(2) King : op. cit., pp, 291-292

(3) Sehlumberger : Prise de Saint-Jean d'Acro, pp. 23-36.

(٤) أبو الهاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Crouset : Hist. des. Croisades, III, pp. 755-758 .

(5) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفسهم لاعاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ فخرجوا إلى السفن  
فارين بأرواحهم ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تكن كافية ، فغرق بعضهم  
في البحر بسبب نقل حوائجها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة وكانت  
النتيجة أن نسبة من الصليبيين في عكا وقموا بين قتلى وغرقى وأمرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المعادل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ،  
فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة في ١٩ مايو ، واستولى المماليك على  
صيدا ودمروا قلعتها في ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها .  
وبذلك لم يبق للصليبيين في الشام سوى موعدين هما انطرس وعنليث ،  
فاستسلمت الأولى في ٣ أغسطس والثانية في ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١ ، وبذلك  
تكاملت بهذه الفتح جميع البلاد الساحلية للإسلام (١) .

وذكرنا ذلك دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك الجموع من الغزاة  
الفرجين إلى حيث لا رجعة ، بوحدات البلاد الشام من قيليقية شمالا حتى غزة  
والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها إلا أبنائها الحقيقيون من العرب ولكن  
طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لا يعني  
نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين  
الثالث عشر والرابع عشر ؛ وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في  
ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلى فيما بعد .

(١) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .  
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٦٥ - ٧٦٦ .

## الفصل الرابع الممالك والنوبة

مهصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمهصر روابط قوية متميزة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعي أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما تعرض له مهصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مهصر قد تعرضت في النصف الأول من القرن السابع للميلاد لحركة الفتح العربي ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف في التاريخ أنه لم يكبد يتم فتح مهصر على يد عمرو بن العاص ، حتى أرسل عمرو وأخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع النهري — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا للمملكة المسيحية هي ملكة دنقلة التي امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين ، واضطر الجيش الإسلامي إلى التراجع بعد أن يتحمل خسائر كبيرة (١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عهد الله بن سعد بن أبي سرح أثناء ولايته على مهصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفي تلك المرة أفاد عهد الله بن سعد من التجربة المريرة التي مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعنى بإعداد حملته لإعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل المملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها (٢) . على أنه بوصول الجيش العربي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩ .

الإسلامي إلى ذلك الحد ، كان قد استفند قواه وعجز عن القيام بأى جهد جديد ، الأمر الذي أدى إلى عقد اتفاقية البقظ الشهيرة بين عبد الله بن سعد ابن أبي مرثد من ناحية وملك النوبة المسيحي من ناحية أخرى (١) . وعمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال في مصر خمسة وستين وثلاثمائة رأيا من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مهمل للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقظ كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادي بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذي جعل ابن خردادبه يقول عن البقظ إنه ليس « بجزية ولا خراج » (٢) ، كما قال البلاذري « ليس بيننا وبين الأسود عهد ولا ميثاق ، إنما هي هدنة بيننا » (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن اتفاقية البقظ لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية ، وهي في الوقت نفسه لم توضع حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية في العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التحلل من شروط اتفاقية البقظ ، كما لجأ النوبيون في سنوات الهدنة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تشتد في أوقات عدم الاستقرار في مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك في أواخر الدولة الإخشيدية وفي أواخر الدولة

---

(١) اختلف الباحثون في تفسير أصل لفظ « البقظ » فالبعض قال لأنه تصريف من قبض غير أن الرأي الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة bak وهي كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التي كانت تسمى عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقط مشتق أيضاً من اللفظ اليوناني Pactum ومعناه عهد أو ميثاق .

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقظ فيها غرم فادح لهم أو فيها مهانة ومساس بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثاً - هو ابن ملك النوبة - إلى الخليفة المعتصم العباسي يشكون إليه فداحة البقظ ويطلبون إلغاؤه ، فنظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجهه أكثر من البقظ . . . ، وهدد أنه وافق المعتصم على ألا يكون البقظ سنوياً وإنما يدفع كل ثلاث سنوات (١) .

على أن أحكام مهمل الإسلامية أظهروا من جانبيهم تمسكاً كبيراً بالبقظ ، فدأبوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقظ المفروض عليهم ومن تلك الحملات التي شنّها حكام مصر على النوبة الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتي أوغلت في تلك البلاد حتى أبريم (٢) على أنه يبدو في تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقظ وربما كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين محمد بأنه يسعى لمد نفوذه جنوباً على حساب قوة مسيحية مجاورة . - هذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يحتكر مضي صلاحية النوبة لتتكون مأوى لأبناء البيت الأيوبي في حالة تفاقم الموقف بينه وبين نور الدين وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين يلبذ تلك الفكرة ويوجه أنظاره إلى اليمن (٣) .

(١) القرطبي : المواقف ، ج ١ ص ٣٠١

Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158,

(٢) الأندلسي : صبح الأمدى ج ٥ ص ٢٧٦ ج ٦ ص ٥٠٦ - ٥١٦ .

(3) Lane-Poole : A Hist of Egypt, p. 197.

### السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك في مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور في الداخل - يفترون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تار و صليبيين - لحماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية والتسكين لأنفسهم من طريق الظهور في صورة حماة المسلمين من الأخطار التي تهددتهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيرا من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التي عمت عصر الحروب الصليبية دون أن يلحق ملكة النوبة بهضام رذاذها وإذا كان الصليبيون في بلاد الشام مسيحيين مخلصين يهددون الكيان الإسلامي فإن النوبيين كانوا أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصاً لعقيدتهم وتهديداً للمسلمين في جنوب مصر عن الصليبيين في الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراعوا حرمان الجزيرة ، واستمروا بين حين وآخر يستفزون بحكام مصر بإغاراتهم المدوانية . من ذلك ما نسمعه من أن داود ملك النوبة انتزعت فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بهروب في الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فنهب أسوان وأسر منها جمعا كبيرا من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وهو من موانئ مصر الكبرى على شاطئ البحر الأحمر في ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس في ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتمى بإرسال تهريده العسكرية سنة ١٢٧٢

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩  
ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .



مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نصحت هذه الحملة الصغرى في حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، و قبض المماليك على صاحب الجبل وغيره من النوبيين فأحضرهم إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتت فرصة طيبة لبيبرس للانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكندة ملك النوبة الأسبق الذي عزل ابن أخيه داود وحل محله في الحكم ، فجاؤ شكندة يطلب مساعدة السلطان بيبرس في استرداد عرشه (١) . وكان أن أعد الظاهر بيبرس حملة كبرى بقيادة الأميرين شمس الدين أقمقور الفارقاني وعز الدين الأفرم ، وصحبتهما شكندة الذي أمر بيبرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة وتمنح لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين أقمقور للسلطان بيبرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن المماليك أغاروا على قاعة الدر حيث قتلوا وسبوا كثير من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جزأرميكائيل عند شلال وادى حلفاء ، حتى اضطرب الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قردولة الهرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول في طاعة الملك شكندة وكان أن أظهر قردولة هذا أهمية كبيرة بعد ذلك في معاونة الحملة المماليكية وإعدادها برجال كذا احتاج الأمر إلى ذلك . وبعد أن أقام المماليك شكندة في الملك بدلا من داود وألبسوه التاج ، نظم القائدان أسس العلاقة الجديدة بين دولة المماليك وبمملكة النوبة على الوجه الآتي :-

١ - تعهد شكندة بإرسال البعث السنوي المتبادل إلى سلطان المماليك في مصر

(١) الألفبندى : مسيح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

المترجمي : السالك ج ١ ص ٦٢٦ .

مضافا إليه بعض الهدايا من القهود والفيالة والزراف: على أن يقوم سلطان الممالك بإرسال الغلال إلى مملكة النوبة .

٢ - يستولى شكندة على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر  
٣ - تفرض دولة الممالك سيادتها على الجزء الشمالي من بلاد النوبة، أي دبلاد العلى وبلاد الجبل ، ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها . أما ما بقي من مملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الممالك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان بيبرس والنصف الآخر يبقى للملك النوبة لهارة البلاد<sup>(١)</sup> .

٤ - خير مملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التي طمّل بها المسلمون المغلوب - وعى الإسلام أو الجزية أو القتل - فاختار الجزية، وتمهد بدفع دينار سنوياً عن كل فرد عاقل بالغ في ملكته ولذلك أنعم السلطان بيبرس ديونا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير، الإشراف على جزية النوبة وخراجها .

٥ - أخذ عشرون أميراً من أسراء النوبة ليكونوا رهائن تحت يد السلطان بيبرس، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسرهم داود في إزارته السابقة على أسوان وعيذاب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقم شكندة على احترامها . وذكر في قسمه ما نصه : ... أنى أخلاصت نيتى وطويتى من روقى هذا وساهتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه ، وأنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وأنى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ...<sup>(٢)</sup>

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٦٢٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد من ٢٣٦ - ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع بيبرس أن يبسط سيطرته على مملكة النوبة المسيحية في المصور الوسطى . ولا أدل على حرص بيبرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه في تنظيمه للبريد أنشأ طريقاً هاماً يبدأ من قوص ثم يتشعب شعبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب (١) .

وأخيراً عادت حملة بيبرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان بيبرس بقعودها في القاهرة احتفالاً كبيراً ؛ فخلع على الأميرين القائدين و استعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التي استولى عليها الفزاة ؛ هذا فضلاً عن الرقيق الذين بلغ من كثيرهم أن يبيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان في بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة و غلامها و الأيباع منهم شيء الغير المسلمين (٢) .

وقد اعترف جمهور المؤرخين بأن حملة بيبرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبي القضائل من أن ما قام به بيبرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر دعماً يفوق به على كل ملك تقدمه (٣) . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التي قام بها حكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر بيبرس فيقول : كل هذه غزوات وإنما الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر (٤) .

على أن قصة النوبة في عهد بيبرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود - ملك النوبة السابق الذي أغار على أسوان و عيذاب - أسيراً في قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان بيبرس الذي أمر بحبسهم مع أمه

(١) الألفندي : صبح الاعمى ج ١٤ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن شاكر السكيتي : عيون التواريخ ج ٢١ ق ١ ورقة ٥٢ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبي القضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

وأخيه حتى مات في سجنه (١).

والواقع إن بيبرس لم يستطع أن يفسى ما حل ببلاده على أيدي النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن إلى شكنته ، فهدم إلى أحد الباطنية القداية - واسمه إسماعيل - بالتردد على النوبة سرا ومرآة شكنته وأحواله ، خوفاً من أن يذدر بالهدم ويفعل بأسوان وعيناب مثلما فعل داود . وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه في بعض سفراته إلى النوبة ، فانقض ذلك الزميل على شكنته وقتل به بغاء ذلك ختاماً لصفحة مشيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة - على عهد الظاهر بيبرس (٢).

#### السلطان المنصور قهوجي والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين المماليك بالنوبة عند حدود بيبرس ، وإنما استمر تدخل المماليك في شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من إغارات النوبيين واعتداءاتهم على الأهالي الأمنين . هذا فضلاً عن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر . وساعد على ازدياد تدخل المماليك في شئون مملكة النوبة - تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الكانم والبرنو ، وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة المماليك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتنافسة (٣).

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٨٢ - ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاوون الذي اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩  
حريصاً على اقتناء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء في دفع خطر التتار  
أو قطع دابر الصليبيين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة<sup>(١)</sup> .  
ولا يخفى علينا أن شككته عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت  
ضغط المماليك العسكري من ناحية وأشعوره بأنه يدين في استرداد عرشه  
للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء<sup>١</sup> شككته من  
ملوك النوبة ينهزون الفرص لتفرض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة  
سلطنة المماليك في مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظلوا  
بالمزاج لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك  
أن الملك برك - خليفة شككته - قام بمحاولة من هذا النوع ولكن  
الأمير علم الدين سنجر المسروى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى  
الأمر بقتل برك<sup>(٢)</sup> .

وقد خلف برك في حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه  
كان ذا دهاء ومكر وبأس ، فسعى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها  
شككته مع سلطنة المماليك ، وأهم هذه الشروط مداومة إرسال البقظ إلى مصر .  
وصادف في ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ،  
وآدور ملك ملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراًه إلى السلطان المنصور  
قلاوون سنة ١٣٨٧ حاملين إليه هدايا من جملتها زرافة وفيل . وقد أكد  
آدور في رسالته ولامه وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى  
يلقاه من سمامون ملك دنقلة والنوبة<sup>(٣)</sup> . ولما علم سمامون أن ملك الأبواب أرسل

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(١)

(٢) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر، بأمر هو الآخر بإرسال سفارة من قبله لتشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاوون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأيواب، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل. ويقال إن سفارة سمامون حملت معها إلى السلطان قلاوون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق وما يتا بقرة<sup>(١)</sup>.

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى جميع كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرس أسباب النزاع على الطبيعة، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمي مبعوثاً إلى ملك الأيواب والأمير علم الدين الحصني رسولا إلى ملك دنقلة بالنوبة. وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وعيذاب والبحر الأحمر، مخافة أن يقع في قبضة سمامون فيعذبه. وفعلا استطاع الأمير سنجر المعظمي أن يتم مهمته بنجاح، ولكنه في طريق عودته إلى مصر ألقى سمامون القبض عليه وفكر في قتله لولا أن حذره بعض رجاله فأقبة ذلك، وقالوا له « تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا، وعندئذ أطلق سراحه<sup>(٢)</sup> ». أما الأمير علم الدين الحصني الذي قصد ملكة دنقلة فلا توجد في المراجع إشارة عن عودته؛ وإن كان يبدو أنه هاد سالماً وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سمامون هو المعتدي.

ومهما يكن من أمر، فقد قرر السلطان قلاوون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧ ويفهم من أخبار تلك الحملة في المراجع أن السلطان قلاوون اهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر المسروري المعروف بالحياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين السكوراني كذلك كتب السلطان

(١) Quatrewere. Memoire sur l'Egyppte, Tome 2, pp 109-112

(٢) محمد بن عبد الظاهر: شريف الأيام والنصور من ١٤٤٤.

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفي متولى قوص بأن يشارك في تلك الحملة بكل ما يستطيع من عماليك وأجناد وعربان (١).

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط زحف على امتداد الشاطئ الغربي لنهر النيل ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين أيدمر سار بجنداء الشاطئ الشرقي للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدمر ، حيث أن المدن الهامة في مملكة النوبة - ومنها العاصمة دنقلة ذاتها - تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون - وهو الرجل الذي انصف بالدهاء وسعة الخيلة كما سبق أن ذكرنا - وضع خطة مكيدة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدركهم السكل والتعب من طول الطريق ومشقته . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد في وجهها ، فكانوا يرحلون والعسكر ( المماليك ) وراهم منزلة بمنزلة (٢).

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمسلمين سواء (٣). أما سمامون فقد فر جنوباً ، وعندئذ تبعه الأمير أيدمر حتى ابتعد عن دنقلة مسار خمسة عشر يوماً ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بابن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدمر في القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكاً على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ - ٧٣٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremere : Memoires . p. 113 .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبها حامية عسكرية (١) . كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقعة القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها شكندة . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد - والذي أورده القلقشندي - مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه شكندة من قبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصورة قلاون كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما انعقد له من نصر ؛ فخضع السلطان على الرسول وأعادته إلى النوبة بكتاب إلى الأمير سنجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أيديمر بدفلة مع حامية ليكون أميراً مقيماً من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد - ابن أخت الملك داود الذي أسر أيام بيبرس والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام - ليعاون أيديمر في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر سعد الدين أن يصل إلى النوبة عندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعاً - كما سيلى فيما بعد - الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص (٣) .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين سنجر للمسروى إلى القاهرة ، ومعه د ملوك النوبة ونساؤهم وتيجانهم وعدة أسرى كثيرة ، ففرق السلطان الأسرى ونهادهم الناس ويهوا بالثمن اليسير لكثيرتهم (٤) .

غير أن قلاون يكذبها بذلك الفخر حتى جاءت الأخبار بأن سمامون

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والمنصور من ١٥٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأمشى ج ١٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) المرزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٤) المرزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .



ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد ملكه ، وأنه نجح في إنزال الهزيمة بالحامية المماليكية وسيطر على دنقلة ، في حين فر ملك النوبة الجديد . . . بدمه — وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة . وقد غضب السلطان المنصور قلاوون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سهامون (١) .

وفي تلك المرة أراد قلاوون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقاً ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن — من حراويق وغيرها — ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ؛ فإلى جانب الأمير عز الدين أيبك الأفرم الذي عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبيحاق المنصوري والأمير بسكتمر الجوكندار والأمير أيدير والى قوص ، فضلاً عن ملك النوبة الطاريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة — التي زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفاً — القاهرة . فانضم إليها بالوجه القبلي كثير من أجناد الأمراء فضلاً عن العربان . ولكن لم تسكد الحملة تصل إلى نجر أسوان حتى توفي ملك النوبة فدفن هناك ؛ وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشيريه فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود . كان معتقلاً بقلعة الجبل — لتعيينه ملكاً في دنقلة (٣) .

ويروى المقرئى أن تلك الحملة الجديدة التي أرسلها السلطان قلاوون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التي اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربي للنيل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبيحاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقي تحت قيادة أيدير والى قوص

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبسكتهم . أما جريس الذى لقبه المقريزى بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند ومعه أولا كنز د ليؤمن أهل البلاد ويجوز الإقامة » (١) : ويبدو أن حملة المماليك لم تصادف مقاومة في ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة - أى من بلاد الدالى - سجن اترميكايل - لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فكان العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وعادوا » . ومن جهة أخرى فإن المماليك احترموا أرواح الأهالى وممتلكاتهم في تلك الجهات ، رهابة لجريس .

على أن سياسة المماليك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نفاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جلاوا عن البلاد « طاعة لمتملك النوبة » ، فأخذ المماليك ينهبون ويقتلون من يصادفونه من الناس « فرعوا الزروع وخرّبوا السواقي » (٢) . ويفهم من ذلك أن سمامون عاد إلى خطته القديمة فجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع المماليك في معركة فاصلة . وعندما وصل المماليك إلى دنقلة - عاصمة مملكة النوبة - وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا المماليك أن سمامون فر إلى جزيرة في النيل تبعد عن دنقلة خمسة عشر يوماً (٣) .

وكان أن اتجه أيدمر والى قوص بمن معه من جنده إلى تلك الجزيرة لمطاردة سمامون ، حتى وصلوا إلى تجاههما فطلبوا منه الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سمامون خشى أن تحاصره سفن المماليك في تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جهة الأبواب هلى بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمر أنه يفتل عن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك (١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، فخلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج المماليك الملك الجديد — الذي كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان المماليك والوفاء بالالتزامات التي تعهد بها شكندة من قبل ، وبعد أن أحيى المماليك في دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزيّنوا الحراريق والسفن في النيل حيث لعب الزرقون بالنفط ، فقلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة في دنقلة لمساندة الملك الجديد (٢).

أما سمامون ، فإنه لم يكند يعلم بعودة المماليك ، حتى خرج من جحره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرد الأمير بيبرس العزى قائد الحامية المماليكية ، في حين قبض على الملك الذي عينه المماليك وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات ، كما قتل جريس (٣) .

وكان سمامون يعرف أن سلطنة المماليك في مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، وإن تغفر له عمله ؛ فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأنه يقوم بالقبض المقرر وزيادة ، وبمك رقيقا وغيره مقدمة . ويبدو أن المنصور قلاون كان في ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفذت مشاكلة الداخلية وحروبه ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمامون وقبل تعهده ، وأقره على ما بيده من بلاد (٤) ، وذلك بعد أن حلفه على يمين مشابه لليمين التي حلف عليها شكندة (٥) . وقد ذكر النويري

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) القلقشندي : ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذي دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع في النوبة . وإقرار سماون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان في ذلك الوقت يتأهب للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة<sup>(١)</sup>.

وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر النوبة جزءاً من ملكه الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية المهدي الذي كتب للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم الدولة ، دون جعلها مملكة النوبة وما احتوت عليه<sup>(٢)</sup>.

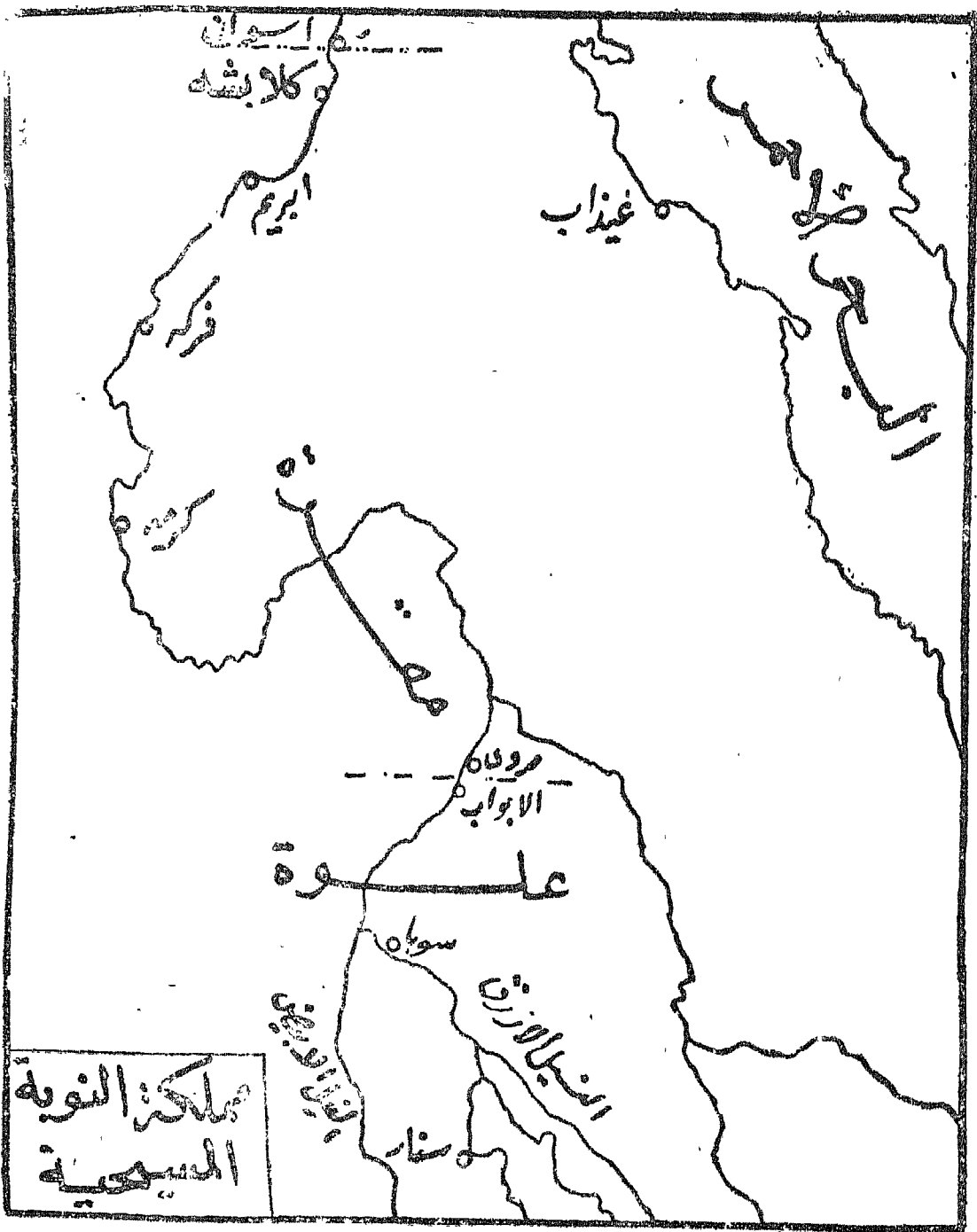
#### السلطان الأشرف خليل والنوبة :

على أن سماون لم يف بالمهد الذي قطعه على نفسه إذ لم يكفد يعلم بوفاة السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعد ذلك إلى السلطان الأشرف خليل يعتذراً بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة دخول العساكر الإسلامية إليها ككرة بعد ككرة ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب الأبواب قد زادت البلاد خراباً إلى خرابها<sup>(٣)</sup>. لكن السلطان خليل لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سماون مهددة منذرة ، حتى سأل الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سماون وعمته وبعض أهله بمطافه بوصفهم رهائن وأنزلهم في دور الضيافة بالقاهرة وبعد ذلك بقليل أرسل سماون أخاه جريس — وهو غير جريس الذي سبقت الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه.

(١) النوبري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) الفقهندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الخفية ص ٢٩ — ٣١ .



مملكة النوبة  
المسيحية



وقد ذكر سمامون في رسالته « إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء » إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان (١) . ويظهر أن العداوة كان مستحكما في ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط في الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التي أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأي رسول يرسله ملك الأبواب (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم يندفع بكلام سمامون المعسول ، بل ضاق ذرعا بما علمته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آني من ناحية أخرى . وقد ذكر يحيى الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة في اقتضاب ؛ فقال إن الأمير الأفرم أوغل في مملكة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبي دنقلة في مطاردة الملك آني الذي فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الأناج (٣) . ولمكن المماليك لم يستطيعوا الاستمرار في مطاردة آني بسبب « شدة العطش ، ولأن البلاد التي وصلوا إليها خراب ، مأوى القبيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام » ما يشير إلى أن المماليك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى المماليك بتأديب تلك الجهات « ورجعوا بغنيمة » إلى دنقلة (٤) . أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شيء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة المماليك له .

وفي تلك الأثناء وصلت تعليقات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

(١) المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٠

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الحقيرة ، ص ٣١ .

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والصور ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكاً على دنقلة ، وفي الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى المماليك وأكابر مملكة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية بيمين الولاء له ، ولكن ذلك اليمين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان المماليك « ولولا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أمسكتناك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً فلاحاً أو جليلاً ، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته » (١) . وبعد ذلك حلف المماليك جريس — الذى كان نائباً لملك النوبة فى جزائر ميكائيل وعمل الدر — ، وبذلك تعهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان المماليك « وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عوناً عليه لمولانا السلطان » .

وبعد ذلك شرح الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جنود إلى القاهرة ، وبعد رحيله بخمسة أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدى الأمير الأفرم لأنه كان مشغولاً بمطاردة آفى ، وأنه يسمى للسيطرة على بلاد الأنج ، فإذا تم له ذلك « صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته » (٢) .

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحاً كبيراً ولأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثلثمائة جمل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره « متجملة فى أحسن زى » ، ومعه أمهال عديدة من غلات النوبة (٣) .

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والمصور ص ١٥٣ .  
(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .  
(٣) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٥ .



## السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك في القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشعب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أمانى ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والى قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أتمت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥<sup>(١)</sup>.

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماني ملك النوبة، بدليل أن أخاه كرنبس قتله سنة ١٣١١ ليحل محله في عرش دنقلة، وقد أحس الملك الجديد بحاجته إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلناً ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملاً الجزية والضرائب المفروضة على بلاده<sup>(٢)</sup>.

ولكن كرنبس سرعان ما انسكرك لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقطة إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كرنبس ووضع حد للمشكلة النوبية<sup>(٣)</sup> وحشد لهذه الحملة عدداً كبيراً من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيوب جهاركس عبد الملك<sup>(٤)</sup>. واصطحبت هذه الحملة معها أحد النوبيين - هو سيف الدين عبد الله

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر السكينة ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦١ .

برشلون ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق - لتتويجه مملكا على النوبة بدلا من كرنيس وكان برشلون قد أسر في إحدى الحملات السابقة التي أرسلها مملكاتين الممالك إلى النوبة وترتب نشأ في الطباق السلطانية ضمن جملة ممالك السلطان واعتنق الإسلام<sup>(١)</sup>، والواقع إن تفكير مملكاتين الممالك في تعيين بعض أبناء النوبة - الذين عاشوا وشبهوا في مصر وتشر بوا كثيرا من مظاهر الحضارة المماليكية الإسلامية - ملوكا على مملكة دنقلة ، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه في التاريخ إلى أن اختيار حاكم مسلم للنوبة كان كفيلا بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام ، وبالتالي إلى زيادة نفوذ العنصر العربي فيها ؛ وكل هذه أدت في نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية<sup>(٢)</sup> . ذلك أن بني كنز - وهم من عرب ربيعة الذين تطرقوا إلى بلاد النوبة في العصور الوسطى - أخذوا يتطلعون في ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلا عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالك في النوبة ، حتى أن الملك كرنيس كان خال كنز الدولة أمير بني كنز . ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت ، فإن الملك كرنيس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيين ملك مسلم في عرش دنقلة فإنه أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإعانة السلطانية في توليته الملك . وقد جاء في رسالة كرنيس إلى السلطان الناصر محمد مانصه : « إذا كان يقصده ولانا السلطان بأن يولى البلاد مسلم ، فهذا مسلم ، وهو ابن أختي . والمملك ينتقل إليه من بعدى »<sup>(٣)</sup> .

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة ، ومضت حملته بقيادة

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٩٥ .

اللقيندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥ - ٩٦ .

الأمير عز الدين أيوبك وصحبتهما عبد الله برشلبو إلى النوبة . وقد فر كرئيس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذي عاد بهما إلى مصر سنة ١٣١٧ بهد أن تم تتويج عبد الله برشلبو أول ملك مسلم على مملكة النوبة (١) .

أما كنز الدولة ، فقد اتخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان ، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وعندئذ رحب به الناس وحيوه كعادتهم في تهيئة الملوك بلقظ « موשאى ! ... موשאى » (٢) وفي ذلك الوقت كان اسقياء الأهل في النوبة من ملكهم الجديد الذي عينه السلطان الناصر محمد . وهو عبد الله برشلبو . قد بلغ أشده لأنه « غير قواعد البلاد وتعاطى نوعاً من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله ، وحامل أهل البلاد بغلظة وعدة » . (٣) وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشلبو وأن يقتله ؛ وجلس كنز الدولة على عرش دنقلة . وقد ذكر النويرى أن كنز الدولة رفض أن يرضع تاج الملك على رأسه « رعاية لحق أخواله وتعظيماً لهم وحفظاً لحرمتهم » (٤) ولكن يبدو أن السبب الرئيسي الذي جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه ، هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية (٥) .

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مهصر أن ما فعله كنز الدولة

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً للمسيمة السلطنة المالكية وإخلالاً بمهبتها ومكاتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرئيس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكذب أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام خدر بابن أخته وقبض عليه ليرسله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التي أوقفت ذلك الإجراء (١) .

وهكذا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليعتلى كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدي كنز الدولة له ولرجاله ، وإنما بادر بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن علي قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد رسالة إلى كنز الدولة كرس ليعتلى عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد في المراجع أن كرئيس اعتنق الإسلام عقب هجرتيه إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن هجرت تلك الحملة في تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرئيس العرش ، ولكنه لم تكف الحملة تلمس من النوبة حائفة إلى مصر ، حتى أظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

### العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر المصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،

النورى : نهاية الأرب - ٣٠٠ ورقة ٩٦ .

(٢) البلاشهندي : صبح الاحشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

في ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين . وكان لسلاطين المماليك سند قوى في تلك الحملات لأن مملكة النوبة كانت مسيحية ، حكمها ملوك مسيحيون ، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميادانا جديدا للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى في عصر الناصر محمد بن قلاوون بقيام كنز الدولة في حكمه ونقله ، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربي صريح . ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم ، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تصطبغ بالصيغة العربية الواضحة نتيجة طهجرة بعض القبائل العربية - عدا بني كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها (١) . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لاسيما إذا كانت هذه الدولة في عهد الجديده قد جنحت إلى السلم ولم تقدم مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية . وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البعثات ، فإن هذه الضريبة صار لا مبرر لها أيضا بعد أن غلب الطابع العربي الإسلامي على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندي نصها وفتح السلطان كرئيس إليهم فليسكنهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم (٢) .

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا من ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ .

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكة النوبة المسيحية سقطت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتمدى بهن المبادلات التجارية المحدودة .

## الفصل الخامس

### بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك للأقوى والأكثر أتباعاً والأوفر ذكاءً . وربما حاول المماليك أن يظهر وا قسطاً من الوفاء للسلطان الراحل فيعيّنون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنقشع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعي ، وأنهم لا يقبلون أحقية في الملك عن السلطان الراحل ، ويكفي أنهم رضوا بحكمة حيناً من الدهر ، فلا هبر لأن يخفضوا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون - حيناً للنزاع - بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يبدؤملا ه في سلطوته وعصبيته المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلمس في دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة ، - وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويحالف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده - فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن ( ١٢٧٩ - ١٣٨٢ ) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

في حقبة معينة بمبدأ وراثته الملك ؛ وإنما هي مجرد الصدفة والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراد فضلته عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينتقدوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض السلاطين بنى قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولى السلطنة فعلا في تلك الأثناء ، ولكن التيار القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة ، جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعاً خاصاً يميزه في تاريخ المماليك ، وربما كان في بقاء اسم الجده قلاوون ، في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً يميزه . هذا بالإضافة إلى أن جميع مميزات وخصائص العصر المماليكي اقتصرت ونضجت في ذلك العصر ، فاستقر الحكم للمماليك تماماً في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي أنهتها بيبرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتطور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها ؛ وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي قاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنتهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاوون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصلبيين من ناحية ثانية وفي أرض النوبة من ناحية ثالثة ؛ فضلاً عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في إفريقيا وأوروبا وآسيا ... أدركنا في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاوون في تاريخ دولة المماليك .



السلطان الأشرف خليل بن قهوجي : ( ١٢٩٠ - ١٢٩٣ )

والواقع إن السلطان المنصور قلاوون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل في أعقابه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل سلامش - ابن الظاهر بيبرس - من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه . وإذا كانت عاقبة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاوون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً في حياة أبيه ، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفي في حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨ . وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاوون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولي الملك، ومع ذلك فقد شامت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب مخاوفه من ابنه خليل . حقيقة إن خليلاً عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهورة في محاربة الصليبيين والتتار والنوبيين ، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو آفة الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكن ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تعسفية في أخلاقه، فقدر بالأمراء وتعاضم عليهم واستخف بهم ، مما يجلب بهائمه . وفي ذلك يقول المؤرخ ابن إياس « كان الأشرف بطالاً لا بكل من الحروب ليلاً ونهاراً . وكان مسعوداً في حركاته ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام . . . ولكنه كان يسمع الكلام في الناس بالباطل من وزيره ابن السلموس ، وكان ذلك سبباً لروال ملكه . . . » (١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكديتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص ١٢٦ .

حتى أخذ يفدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الحكمة والنفوذ في عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل وياً للهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طر نطاي ، فحرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد ، ولكن طر نطاي رفض الاستجابة لهم . وكانت النتيجة أن السلطان خليل بادر بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طر نطاي وقتله فدرأ ، الأمر الذي أثار امتياء الأمراء ومخاوفهم (١) . ولم يدبر السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حنقه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بدلا من طر نطاي ، ومنحه اقطاع الأمير طر نطاي نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا في الدولة ، فأخذ يتطلع بدوره إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذي انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلجوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلجوس في الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلجوس الوزير ، فأخذ الأخير يوشح قلب السلطان على بيدرا وأوممه أن أملاكه انصمت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه (٢) .

وقد أحس بيدرا بنية السلطان الأشرف خليل للقدر به ، واستكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه في سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيلة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة للإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتتم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

(١) بيبس النوادر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٦٧ .

(٢) المقرئى : السالك ج ١ ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

في ناحية تروجه - قرب أبي المطامير بمديرية البحيرة - وانقض عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصوري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصوري . . . حتى خر السلطان قتيلًا بين أيديهم سنة ١٢٩٣ (١). ويقال إن عثمان السلطان خليل ظل ملقى في العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها (٢).

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (السلطنة الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التسمية التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذ اجتمع الأمراء المتآمرون في مسرح الجريهة وقبل أن تجف دماء ضحاياهم ليتشاوروا في مصير السلطنة . وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانًا خلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه «الملك الرحيم» ، وقيل «الملك الأجدد» ، أو «الملك القاهر» ، أو «الملك الأوحده» (٣).

ولكن المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا بزعامة الأمير زين الدين كتبغا للثأر لأستاذهم ، وهاوردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم في الطرائه من قرى كوم حماده بالبحيرة (٤) . وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه . وبذلك يكون بيدرا قد أودع السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور خدرته (٥) .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٧٤ .

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه ، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة . ومن الواضح أن كلام من هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه ، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد ، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون - أخى خليل (١)

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك ، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة ، فضلاً عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء . ولا نكون مباغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة ، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات .

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن - لم يتجاوز التاسعة من عمره - وقت اعتلائه العرش . وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى - التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢) .

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسمى كل من هذين الأميرين لانتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير . وفعلاً

(١) المقرئى : السوك ج ١ ص ٧٩٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٩٩ - ٢٠٠

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الانصار والأتباع . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسعى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق في تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له ما نصه : إن الشجاعى قد انفر دبراً به في القبض على الامراء ولا بد من حضوره فإنه بلغنا عنه ما أنكرناه . ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوماً كاملاً . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خشيتم عندئذ على ولدها ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هي الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول : إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تخلع ابني من السلطنة فافعل ! ، ولكن كتبغا رد - على طريقة أمراء المماليك - متظاهراً بالزهد في السلطنة وبالرغبة في إقرار الأمور لا أكثر ، فقال : أعود بالله السميع العليم ! والله لو بقي من أولاد أستاذنا (المنصور قلاوون) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة ! (١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثامرين لإخماد الفتنة ، فأوحى إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نيابة حلب ، ولكن الشجاعى لم يعجبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان في القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه (٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى في شؤون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فأدى ظهوره إلى

(١) المرقزي : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - مالك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال في القاهرة . وكان لاجين ماكرأ ، فبادر بالانصال بالأمير كتبغا وزين له لإعلانه سلطانا بعد خلع الناصر محمد ولأن الأشرفية مادام الملك الناصر في الملك شوكتهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال في القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للتشاور في الموقف ، فقال بعضهم : « لقد فسدت الأحوال لتكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ، ومن الرأى أن تولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الأفعال » ، (٢) وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

### السلطنة المماليك كتبغا : ( ١٢٩٤ - ١٢٩٦ )

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل ، أما السلطان الناصر محمد فقد عزله كتبغا في بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كما عين الصاحب نثر الدين الخليل وزيراً (٣) .

على أن الظروف شاءت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتلاء كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجذب ، حتى انتشرت المجاعة ونفست

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن رياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨ .

الأمراض وصرار الناس يسقطون صرعى في الطرقات . ويروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التي نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت في القاهرة كل يوم بضمة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملق في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقاء بأمرضهم ،<sup>(١)</sup> ولم تقتصر الطامة على مصر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاة الاستسقاء<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت المجاعة التي صحبت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه وسوء طامعه ، فإن ثمة عاملاً آخر كان له أثره في ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولي الأصل أسره السلطان المنصور قلاوون في واقعة حمص الأولى وجعله في زمرة المايكة حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة<sup>(٣)</sup>. ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينسئه أصله وعهديرته ، فلم يسكد يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على أنفسهم من غازان محمود ايلخان مغول فارس الذي اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم العويرانية أو الأويرانية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والحجند بالحروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأقطعهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأرزاق السخية وأنزلمهم بالحسينية<sup>(٤)</sup>.

ولاشك في أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ - ٢٣ .

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم في الوقت الذي اشتد الغلاء في البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استيلاء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجنود والشعب أن أولئك الأيرانية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا في صورة حامى الوثنيين . ولا يخفى علينا أن المسلمين في مصر والشام لم ينسوا للتتار عدوانهم على الوطن الإسلامي منذ أيام هولوكو ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لا يزال ماثلاً حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ؛ وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندهما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادل (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإنعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبله فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يهدقوا الهدايا والصلوات على الأمراء ، (٣)

ولا يخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستيلاء ضد كتبغا لحسام الدين هو الذي حرص كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه في المؤامرات التي انتهت بعزل الناصر ، ولذا فإنه كان يعتقد أن حقه في الملك لا يقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالتمنيص والزهد في منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائباً للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بمرح موقفه بوصفه من المتآمرين على قتل الأشرف خليل . ولما كان مع مضي الأيام تهيأ لاجين مركزه وضعف نفوذ المماليك الأشرفية الذين كان لاجين يخشى سطوتهم ، فلم يعد هناك

(1) Wiet : L, Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المغرزي : السلوك ج ١ ص ٨١٧

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : التهج السديد ٥٩٢ - ٥٩٤ .



مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيقي ويكيد للسلطان كتبغا لانزاع السلطنة منه .

وفعلا أخذ لاجين يحرك عوامل البغض ضد كتبغا ، بل لأنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون - قرب طبرية - سنة ١٢٩٦ ، أحس بالموامرة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

### السلطان المنصور لاجين : ( ١٢٩٦ - ١٢٩٨ )

فر كتبغا ليحتمي بقلمة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذي استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبايعوه بالسلطنة ؛ فجمهم وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست موليا عليكم من ماليكي أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا بصيبيكم ما أصابكم من ماليك العادل ( كتبغا ) وأنتم خوشداشيني ( زملائى ) ومحل لإخوتي ، (١) . وبمثل هذه النعمة والعيارات المعسولة استطاع لاجين أن يكتسب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان معتصب جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشتروا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط ماليكه - وخاصة منكوتمر - عليهم (٢) .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤٨ .

قاصداً مصر حيث خف أمره مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ،  
ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور (١).

أما في بلاد الشام فقد خطب أولاً للمنصور لاجين في غزة والقدس  
وصفد والكرك و نابلس ؛ لأن كتبنا كان لا يزال مقيماً في قلعة دمشق .  
ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض  
الناس والأمراء في شمال الشام عن كتبنا الذي لم يسمعه سوى أن يتنازل عن  
السلطنة طائفاً مختاراً ؛ وأعلن أنه يرضى بالمكان الذي عينه السلطان  
الملك المنصور حسام الدين لاجين (٢) . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة  
في صرخد - من أعمال دمشق - فذهب إليها معزراً - ولعله رأى ذلك  
الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبنا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في  
مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي ظل مقيماً في القاهرة  
ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة . لذلك  
فكر لاجين في إبعاد الناصر محمد إلى الكرك بعد أن أمنه على حياته وتعهد  
له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشد (٣) .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطري كتبنا والناصر محمد ، أخذ  
ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً للسلطنة  
ولكن لم يلبث أن هزله وعين بذلك الأمير سيف الدين منكوتمر (٤) ولا يخفى علينا  
أن كبار الأمراء كانوا يخشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتمر

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ - ٨٢٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النجم السديد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشتروا - كما سبق أن رأينا - على لاجين ألا تدخل  
بملوك منكوتر في التحكم والتدبير ، فضل ،<sup>(١)</sup> لذلك استاء الأمراء بما  
فعله لاجين وأخذوا يكيدون له . وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين  
لاجين رآك البلاد - وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامي -  
وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجنود من أرض مصر . أما هامة الناس فقد  
غضبوا من لاجين لإهماله وتمنى كل أحد زواله وكثر الدعاء عليه ،<sup>(٢)</sup> .

وفي ذلك الوقت كان مالك الأشرف خليل يتعمنون الفرصة للثأر من  
لاجين الذي تأمر على قتل أستاذهم ، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة .  
ولم يلبث المتآمرون - بزعامة الأمير كرجي مقدم البرجية - أن نجحوا  
في قتل لاجين ومنكوتر جميعاً سنة ١٢٩٨ ، وبذلك تجددت مشكلة مله  
العرش مرة أخرى<sup>(٣)</sup> .

### سلطنة الناصر محمد الثانية : ( ١٢٩٨ - ١٣٠٨ )

اتجهت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً  
مرة أخرى ولكن ثمة ظاهرة لمسناها في تاريخ دولة المماليك منذ مولدها ، هي  
أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة . لذلك حدث  
عندما اجتمع الأمراء - عقب مقتل لاجين - لبحث الموقف واختيار سلطان  
أن نهض الأمير كرجي وقال : يا أمراء ! أنا الذي قتلت السلطان وأخذت  
نار أستاذي . والملك الناصر صغير ما يصلح . ولا يكون السلطان إلا هذا  
- وأشار للأمير طنجي - وأنا نائبه ،<sup>(٤)</sup> . ولم يلبث أن كثرت الطامعون واشتد

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الدهور ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) أبو الحسن : المهمل الصافي ج ٣ ورقة ٦٥ - ٦٨ (مخطوط) .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٦ .

الشقاق . وكما هي العادة دائماً في تاريخ المماليك - روى حسبنا للخلاف - اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء بأحقية ، ولكن حتى يجعل الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرضه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من السكر سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل في القاهرة إستقبالا حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالي مصر أجمل ترحيب ، ولا يخفى علينا أن عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوعاً من الاستقرار وحسم المنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلعة ، وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستبدوا بالأمور ، وضيقتا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلتا في أسط أموره الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب (١) .

وفي ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد . وزاد من سوء الأحوال في تلك الفترة إحتدام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم يزداد تدريجياً ، في حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين بعض ، في الوقت الذي اشتد عبث العربان في الداخل ، وتجدد خطر التتار على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار في ذلك الدور .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

أما المر بان ، فقد اقتنزا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد ، وبخاصة في الوجه القبلي ، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات ؛ بل إنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سمو أحدهما بيبرس والآخر سلار (١) . وكان أن أفتى العلماء والقضاة بقتالهم ، فخرج إليهم الأمراء ، « و ضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد » ، أي أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلاً عن الأسرى (٢) .

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضيق الأمراء عليه ، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار ولسكن هذين الأميرين عرفاً خيراً المؤامرة ، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعندئذ أرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول « ما سبب هذا الركوب على باب استبلي ؟ إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه ، خذوه وأبعثوني أي موضع أردتم » ، فرد الأمراء عليه قائلين : « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء » (٣) .

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمعوا وأخذوا يصيحون « يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون ابن قلاون » ، الأمر الذي أدى إلى عدة اشتباكات بين المماليك والعامية (٤) .

وأخيراً فقد صبر الناصر محمد بعد أن شكاً ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد مهرباً ، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ - ١٥٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ؛ ولكنه لم يكده يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلا لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلاار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨ (١) ، وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف .

### السلطانة المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء في الدولة أن يقرر بهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلموا رسالته لأهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة في أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعه ماليكته ، وإلا طرده من الكرك وحرماه من حقه في العرش . نفل عنك الصبي وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك نطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفكك الندم (٢) . ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأسراء يقول لهم ما نصه « دعوني أنا في هذه القلعة بمنزلة عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

وهكذا تجددت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلاار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وخاف أن يحل به ما حل بكتيغا ولاجين ، فأشار سلاار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال « والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير - الذي تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلاار نائباً للسلطنة « على عادته » (٣) .

(١) أبو الحسن: نجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) القرظي : السلوك ج ٢ ص ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كبير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح السكرك للناصر محمد، فلما منه أن ذلك الحل فيه ترضية كافية للناصر وأشياعه ولكن عدداً كبيراً من كبار الأمراء بالشام - وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماه وأسندمر نائب طرابلس - رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس. ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعاً في حلب وقرروا مكاتبة الناصر محمد في السكرك ليعرضوا عليه مساعدتهم، فإما أن تأخذ له الملك وإما أن نموت على خيرنا، ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريب والصبر، لأن هذا الأمر ما يقال بالمجلة<sup>(١)</sup>.

ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهداً فيها، ولكنه آثر الانتظار في السكرك إلى أن تتضح الأمور وعقدت يستطيع أن يسترد سلطانه بسهولة. هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريب قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي اطمأن بعد ذلك على مصير عرشه وقال: «الآن تم لي الملك»<sup>(٢)</sup>.

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في السكرك؛ إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح فتي يافعا؛ فأخذ ينشط في معاملاته مع الإناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه ما ليكه<sup>(٣)</sup>. ويبدو أن ذلك النشاط ألقى مضاجع المظفر بيبرس، ففكر في الحد من نشاط الناصر، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ - ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٥٢.

ما عنده من الخيل والماليك وما استولى عليه من أموال الكرك ، « وإلاجرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية »<sup>(١)</sup> ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ؛ فرأى « أن المغالطة أولى ، وحاول أن يستر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له « المملوك محمد بن قلاون يقبـل الأرض . . . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرف لى والدا غيره ، وكل ما أنا فيه فنه وعلى يديه »<sup>(٢)</sup> ؛ وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام - أعنى نواب حلب وطرابلس وحماء - يشكو لهم سوء وضعه وتمديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم ما نصه « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مهر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد ؛ فما تراجعوا عنى وأرسل المظفر يهدنى بالنفى إلى القسطنطينية . مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور ( قلاون ) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال »<sup>(٣)</sup> .

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماء فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوئوب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريب حتى يمين الوقت المناسب ، وهاهو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .



وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذي أخذ يعد العدة للزحف على مصر . ولم يكف أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد في الحضور إليهم حتى أظروا سرورهم ، وانفض معظم الأمراء في مصر ذاتها عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم - مثل نوغاي - البلاد قاصداً الناصر محمد لمؤازرته في استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد على حقيقة الحال في مصر وشجوهه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة الناس والجنود ؛ الأمر الذي شجبه على اتخاذ تلك الخطوة<sup>(١)</sup> .

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلاً من أن يتدارك أموره ويرضى بالأمر الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة العباسي المستكفي بالله أن يجدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان المنادون في القاهرة يصيحون : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لا يعينه قتل<sup>(٢)</sup> ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلح في تغيير مجرى الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه ، بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التي أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلاار نائب السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه وقال له : يا مولانا السلطان ؛ إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالسكر ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن الرأي أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله في مكان توجهه إليه أنت وعيالك فإعلمه يحبك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر إلي هذا دهمتكم المساكر وهجموا علينا وأنت هنا<sup>(٣)</sup> .

(١) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زبترهين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الخبطة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء<sup>(١)</sup> . ولم يسع السلطان المظفر بيبرس إزاء تلك الأخبار سوى أن يعلن تنازله عن العرش ، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصحه إن حبستني عددت ذلك خلوة وإن نفيقتي عددت ذلك سياحة وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة<sup>(٢)</sup> ، وطلب من الناصر أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماء . ريدو أن يبيرس الجاشنكير أحسن فهلا بأن بقاءه في القاهرة صار متعذراً ، فقرر الخروج إلى أظفح بعد أن استولى على مافي خزائن الدولة من أموال . وعندما سمع العامة خبر هروبه دتبعوه وهم يصيحون وراه بهتافات عدائية ورجوه بالحجارة<sup>(٣)</sup> .

### سلطنة الناصر محمد الثالثة : ( ١٣٠٩ - ١٣٤٠ )

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها في سلام واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والمرور ، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطنته الثالثة .

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية ، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شاباً يافعاً ، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لسكبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث في المرتين السابقتين . هذا إلى أن حكم الناصر محمد في تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة ( ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ) وهي مدة لم يتمتع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (مخطوطاً) .

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذي أعطى عصر الناصر محمد طابعاً خاصاً فريداً ، والذي جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس . وساعد على يريق تلك الهالة التي أحاطت به عصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أفقى درجات الاتساع والعظمة بعد أن نجحت في قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدت في صورة القوة العظمى في الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامي بوجه عام . وأخيراً فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملكاً عظيماً ، محظوظاً ، مطاعاً ، مهيباً ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... » (١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ؛ فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « أذكرك وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعتي في حق فلان ، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة ففتمتها ، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر فتمعتني . . . . يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به انا » (٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله بقتل ؛ في حين ألقي الأمير سلار في السجن إلى أن مات (٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد في ذلك الدور هو الناصر محمد الذي عهدوه في الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقرئ يزي : السامك ، ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدبير مؤامرة لخلع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شؤون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له (١).

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شؤون الدولة بما أمضى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج فكانت به سائر الملوك وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته (٢) ولا أدل على موجة الرخاء التي عمّت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانقوات وسبل وقصور ؛ وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقرئى السلطان الناصر محمد بأنه كان « محبا للعمارة » كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على العمارة سبعة آلاف درهم فضة ، أي ما يساوي ثلثمائة وخمسين ديناراً ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العصر (٣).

هذا كله بالإضافة إلى انضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير - واستجدت بدلها وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتعظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٦ .

الإعاش الاقتصادي ؛ مما سيشير إليه في مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفي جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمجموعة طيبة من أمراءه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائماً عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تنصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه في التاريخ أنه كان يقرب الأمير منه ويزيد من ألقابه ويضفى عليه الكثير من ألوان التشريف ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري الذي ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفي علاقته بالأمير تمشكز الحسامي المنصوري الذي ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في ألقابه الكثير وصاهره ، ثم أبعده عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر (١) .

### عصر أولاده الناصر محمد : ( ١٣٤٠ - ١٣٦١ )

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من شاكاة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاماً أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم ستين طويلاً ، مما مكن لأولاده وأحفاده في قلوب الناس . ثم إن الظروف التي أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوابعه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التي اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الأموال والأفوات .. كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقاً بالناصر محمد ويبيت قلاوون ويرون في بقائهم في الحكم ضمناً كافياً للاستقرار والرخاء .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة في الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ؛ من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين أنوك سنة ١٣٣١ فأقره الأمراء على ذلك ، وأذعنوا لذلك كلهم . وكان أن ركب أنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن خير السلطان الناصر محمد رأيه ، ورسم أن يلبس أنوك شعار الأمراء ؛ وربما كان السبب في ذلك صغر سنه إذ كان عندئذ في التاسعة من عمره (١) . وكيفما كان الأمر ، فإن أنوك لم يلبث أن توفي بعد بضعة سنوات في حياة أبيه سنة ١٣٤٠ ، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوعايم باختيار ابنه سيف الدين أب بكر سلطانا من بعده ، فتعهدوا له بذلك (١) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ - هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده في منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغارا أو أحداثا مما جعلهم العوبة في أيدي كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا إحدى وعشرين سنة ( ١٣٤٠ - ١٣٦١ ) وبذلك يكون

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) الماربع ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم  
الاستقرار الذي شهدته البلاد في ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين  
أبو بكر الذي تلقب بالمنصور ( ١٣٤٠ - ١٤٣١ ) . ولم يكده هذا السلطان  
بلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أنابك  
المسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً في العشرين من عمره ، ليست له  
خبرة بأخلاق كبار الأمراء والأعيان ، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده ،  
وقال لهم ما نصه : هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخفى أحداً منكم ،<sup>(١)</sup>  
وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذي قبض على السلطان ونفاه إلى قوص  
حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتقاله عرش السلطنة<sup>(٢)</sup> .

وبعد قتل السلطان أبي بكر ، استحضرت قوصون أخاه علاء الدين كجك  
وولاه السلطنة بلقب الأشرف ( سنة ١٣٤١ ) . وكان السلطان الأشرف  
كجك في الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منمتظر أممه أن يكون له رأى مسموع  
في إدارة شؤون البلاد ، فظل في السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام لم يكن له  
فيها أمر ولا نهى . وتدير أمور الدولة كلها إلى قوصون ،<sup>(٣)</sup>

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذي لقب بالناصر  
( ١٣٤٢ ) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطاناً مقبياً بالكرك . فلم يكده يحضر إلى  
مصر حتى رغب في العودة إلى الكرك مرة أخرى ، ففعلوا انتقل إليها وترك  
الدواوين في مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقبياً في  
الكرك في جوف الصحراء ، تاركاً مصر والشام الأمراء الذين دشق عليهم غيبة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ - ٦٧٠ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء .. وعندما طلب  
الأمراء من السلطان الخضوع إلى قاعدة ملكه بالقاهرة ، رد عليهم قائلاً :  
« إننى قاعد فى موضع أمتى ، وأى وقت أردت حضرت إليكم ا » (١) .

ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة - ثم  
قتلوه فيما بعد - وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذى لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥) .  
وقد وصف المقرئى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك  
بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وتمتد فإن العمار  
والمهنات ظلت تستأثر بمبالغ ضخمة من المال (٢) . وابتدت هناك أهمية خاصة  
لعهد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك فى قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد  
بعد أن ساءت سيرته فى السكر . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض  
وتوفى سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ - ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذى  
تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً وجوراً  
واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين  
ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعندئذ قتله أخوه حاجى الذى تولى السلطنة  
وتلقب بالمظفر (١٣٤٦-١٣٤٧) (٣) .

وكان المظفر زين الدين حاجى فى الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش  
السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع « الأوباش » الأمر  
الذى أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش (٤) .

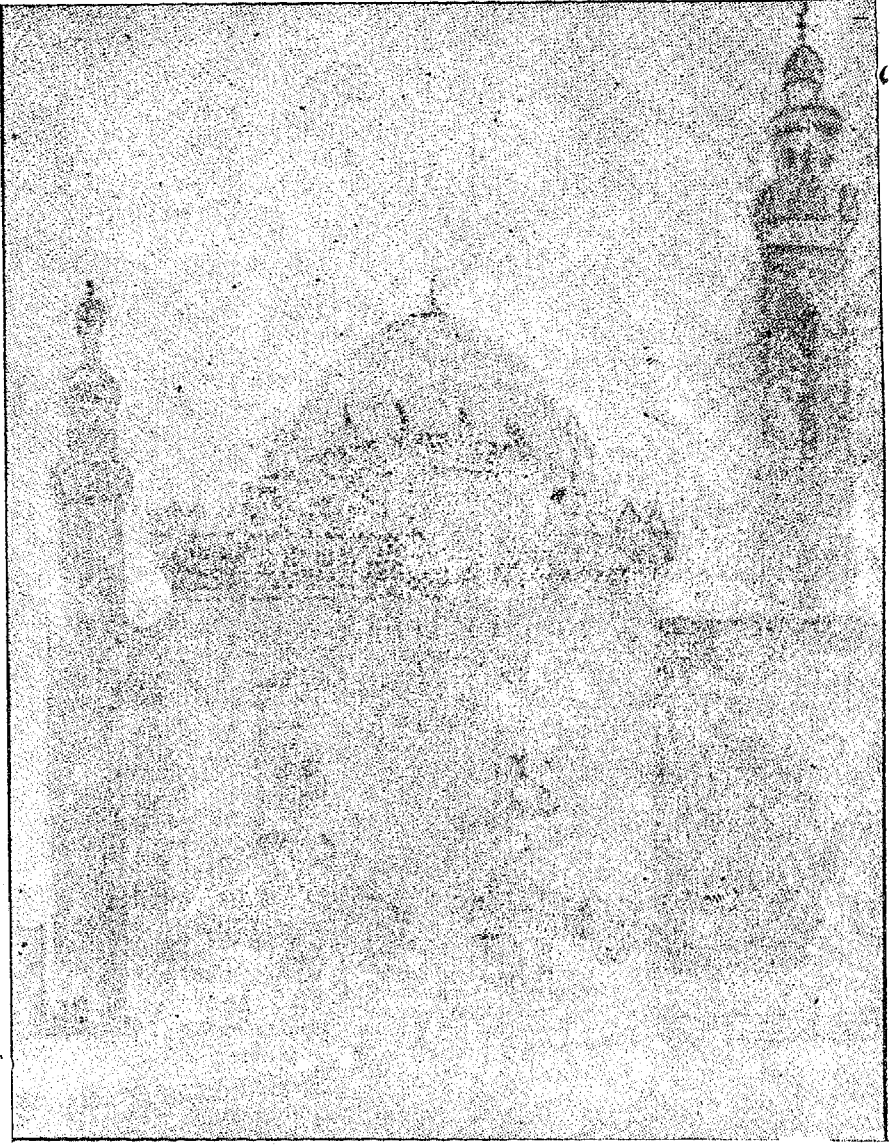
(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ - ١٧٣ .





جامع السلطان حسن بالقاهرة



ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي ولي السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره ، فظل العروبة في يد كبار الأمراء الذين رتبوا المهصرف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ، ولم يسمع بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك ، ويصرف الأمور بالعزل والولاية ، وتحمل إليه أموال مصر والشام ولا يتصرف منها في شيء (١) ، وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء ، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ - ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الصالح بأنه «لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الإسم فقط ، انقلبه (الأمراء) شيخون وطاير وصرفتمش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا غيرهم» (٢) . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة (٣) .

وقد قضى السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية أكثر من صحت سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٠) بأمر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ سن الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فكان «محباً للرعية ، وفيه لين جانب ، حدث سائر خصاله» . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثيراً من المباني الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء في شؤونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير بلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن مماليك بلبغا «قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض» (٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ١٠ ص ٣١٤ .

ويعتقل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون،  
وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

### الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر أبناء الناصر محمد، يتضح  
لنا أن البلاد غدت نهياً لمجموعة من أمراء المماليك ، يتلاعبون بالسلطين  
الأحداث حسب ما يهلو لهم . أما طامة الأهالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف  
المتفرج ، ليكون لمقتل سلطان ليقوموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد .  
وهكذا عاش طامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة  
بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة . وليس هناك  
ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالمسئبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار  
الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م ( ٧٤٩ هـ ) .

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربه - شهد في العصور الوسطى كثيراً من  
الأزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعدم الإنسان  
عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولا انتشار الجهل وضعف وسائل العناية  
الصحية من ناحية أخرى . على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين  
مثلما استأثر الوباء الأسود، نظراً لقسوته وخطورة نتائجه واتساع انتشاره في  
بلاد الشرق والغرب جميعاً (١) . ويصف المؤرخ المقرئ كيفية انتشار هذا  
الوباء فيقول ما نصه : ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم  
الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان

(١) من الوباء الأسود وأثره في أوروبا، انظر المؤلف:

البحر وطير السماء ووحش البر؛ ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود حتى دانت خيولهم وصاروا كلهم جيفا مرمية، ثم أخذ الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغرباً عن طريق القسطنطينية، حتى وصل إلى القام ومنها إلى مصر. أما أعراض ذلك الوباء، فكانت ظهور خراج صغير خلف أذن الإنسان وتحت إبطه، ولا يلبث بعد ذلك أن يصبغ المصاب دماً ثم يموت بعد عدة ساعات.

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشاراً فذاً كما فصار الناس يموتون كل يوم بالآلاف، وغدت الأرض لا يوجد من يزرعها ووزهد أرباب الأموال في أموالهم وبدلوا للفقراء، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة مرياقوس ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء، إذ أفقرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، وأفقرت الأسواق من البائعين والمشتريين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر... وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز... وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس. وفي ذلك قال بعض الشعراء (١):

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يهيئ أشغاله	وهذا يجهن أكفانه
وهذا يصالح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر محمد جاء لينزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء.

(١) المقريزي: السلوك ج ٢ ص ٧٧٠ - ٧٨٥.

عصر أمجاد الناصر محمد (١٣٦١ - ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير يلبغا يهزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطانا سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دامت السلطنة ، وهي الحقيقة التي تنضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين علي (١٣٧٦ - ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ - ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ - كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد ، وتلاعبهم بالسلاطين الصغار - إما بال عزل أو بالتميين - وفق أهوائهم .

٣ - اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيما وأحزابا يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر ، ما أغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضى .

٤ - ازداد نفوذ طائفة المماليك البرجية ، أو الجراكسة ازديادا مضطربا وهو الأمر الذي ستمرض له بالتفصيل فيما بعد . وتكفي الإشارة الآن إلى أن طائفة البرجية هي التي استطاعت أن تمسك بالجولة النهائية في الصراع الذي

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أسرة قلاوون .

- اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ؛ وكان الصلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاد فاشتهر صلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، حتى أُقيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد ( ١٣٦١ - ١٣٦٣ ) لأنه كان دلايفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجواري يدقون بالطارات عند الصباح والمساء ، كما أنه كان يفسق في حریم الناس ويخل بالصلوات .. (١) .

محمد بطرسى لوزنجان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود - كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ ، وإنما استمرت ذبول تلك الحروب أمدا طويلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامى من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في تلقي الضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامى في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في التآمر من المعتدين وتآديهم من ناحية ثالثة .

(١) أبو الحسن : الهجوم الزامرة ج ١١ ص ٧ .

وكان لطرد الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ،  
فنادى المتحمسون للحروب الصليبية - وعلى رأسهم البابوية - بأن دولة  
المماليك هي السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك  
أولا . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار  
التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين  
الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ  
مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع  
دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالي يفقدون  
الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (١) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب  
بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيراً من  
التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على  
مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة  
بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط قتمسيد ذلك المفرد من التجار الأوربيين  
الذين استمروا يفدون دولة المماليك بأموالهم ، ضاربين عرض الحائط  
بنداءات البابوية وأوامرها (٢) .

ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص  
يتخذها الغرب الأوربي مركز المراقبة الشواطئ الإسلامية في مصر والشام من  
جهة ، واضرب المسلمين وشن إغارات على مواضعهم من جهة أخرى . والمعروف  
أن جزيرة قبرص دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٩٩ - ١٢٠٨ .

(2) Heyd ; Hist du Commerce, II, p. 580 & I p. 26 .



عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط؛ وهو الدور الذي ازداد قوة وبرزوا عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط<sup>(١)</sup>.

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوربية لمنعها من الوصول من موانئ مهسر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حيثما وجدوهم: في آسيا الصغرى والشام ومهسر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أو آخر العصور الوسطى<sup>(٢)</sup>.

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنها ملوك قبرس على بلاد الإسلام في القرن الرابع عشر، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥. وقد مهد الملك بطرس لحملته برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوربي فضلا عن البابوية ، وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحرارية وعادية كبيرة وأخير اجتمعت تلك الجهود في جزيرة رودس تمهيدا لاختيار أصلح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم . وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن تتجه الحملة ضد

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٥ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦ .

الإسكندرية على أن يهاجما الصليبيون يوم الجمعة والمسلمون في المساجد (١) .

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لورجنان ملك قبرس في أكتوبر سنة ١٢٦٥ ؛ في وقت كانت دولة المماليك تعاني خلالا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر - هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون - ووصى جائر منفطرس عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكي (٢) . هذا في حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في أداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إزال قواتهم إلى الشاطئ ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم في شوارع المدينة بحرق المساجد وخنقون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال (٣) .

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحو من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ البشر ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرع من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصراني والنصرانية . . . (٤) . هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها في البحر لتخفف من كثرة الوسق (٥) .

(1) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ :

(٣) الزويرى السكندري : الإلام بالأعلام ج ١ ص ٢٢٦ - ٣٣٥ (مخطوط) ٩

ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) الزويرى : الإلام ج ١ ص ٣٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الحاصبي إلى الإسكندرية في جندي كثيف كالجراد المنتشر ، بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب . ورأى جيش القتل وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما حارب وأحرق (١) . وقد هاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلالاته وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه دخلها لها وخرج منها لصاً ، (٢) .

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أثار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإشارة قد منبت بالفعل (٣) . وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانئ مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط ، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تزود عن البلاد وتنازل للعباد .

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) النويري : الإلغام ج ١ ورقة ٥١٦ (مخطوط) .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٤ ورقة ٦٠ (مخطوط) .

## الفصل السادس

### دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجيز وشكوبتهم :

إذا أردنا أن نفحص صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبيات، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبيات شتى ، لكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية ولسلك أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولى نعمتهم . وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد المماليك بقدر ما يستطيع الصمود في وجه منافسات الأمرأه ومؤامراتهم وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مقابلة زملائه وأقرانه من الأمرأه ، بل من مقابلة السلطان نفسه وانزاع دست السلطنة منه ، كما حدث في كثير من الحالات .

لذلك لا عجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم، فنسمع عن الصاحبية والظاهرية والمنصورية والأشرفية . ثم تعدد الأسماء في كتب التاريخ بتكرار ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباي . وهكذا . وإذا كان السلطان شديد البأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتم أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمرأه القائمين، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الخيلة ، فعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد خارقة في حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولعل هذا هو السر في أن كل سلطان بعيد النظر، وكل

أمير حريص على تحقيق مهامه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء المماليك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا في المستقبل هدته وأمله في البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاون ، الذي سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلبى السلطنة ويهد أن ولها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفي النوبة . ويهتما الآن أن نهدير إلى أن السلطان المنصور قلاون أراد أن يكون طائفة جديدة من المماليك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ؛ وتختلف في أصولها عن الطوائف الممالكية الأخرى القائمة . وكان أن اختار قلاون أن ينشأ فرقته الجديدة من عنصر الجركس - الذين كانوا ينتشرون شمالي بحرقوين وشرقي البحر الأسود - حتى لا تربطهم روابط القربى والعصبية بغيرهم من طوائف المماليك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزمية والأتراك (١) .

ولاندري بالضبط الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاون إلى اختيار مماليك فرقته الجديدة من الجركس بالذات ؛ فهل يرجع ذلك إلى توافرهم في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جملة السلطان قلاون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذي دفع قلاون إلى اختيار مماليك الجدد من عنصر الجركس هو هذا أو ذلك من الأسباب ؛ فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نستهطها من اعتبارنا هي أن الرقيق الجركس كانوا عندئذ - بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب - أرخص سعراً من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ١ ورلة ٢٤٧ .

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً في حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون بدأ في تنفيذ مشروعه حوالي سنة ١٢٨١، فأخذ يشتري أعداداً كبيرة من الجركس ليكوفوا مثل الحصون المانعة لى ولأولادى وللمسلمين (٢)، وأسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن ثم اهتمت بهذه الطائفة في التاريخ تسمية بالماليك البرجية (٣). ولم يلبث أن أكثر قلاوون من شراء الجراكسة حتى بلغوا في أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورمي القناصير، كما حباهم بمطبخه ولم يرض عليهم بالمال الوفير والطعام الشهي والملبس الجميل، فضلاً عن أنه - هو وأبناؤه من بعده - اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى في البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلنها في صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن ينتم أولاد السلطان المنصور بتلك الطائفة التي أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم، وأساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينجح فقط في تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح أيضاً في تأسيس بيت مستمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد في تاريخ المماليك، ولو كان الملك انقرض في أذرية المنصور قلاوون لضمف

(1) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 589.

(٢) المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦ .

(٤) المقرئى : المواقظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٥) ابن لمياسة : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤ .

شأن المماليك البرجية ، وسمعنا في التاريخ أن الأمير الذي اعتلى دس السلطنة بعد المنصور قلاون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة ولكن الذي حدث هو أن المنصور قلاون توفي ليخلفه ابنه الأشرف خليل فآتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور - قوة المماليك البرجية - حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩ - ١٢٩٣) ما يقرب من ألفي مملوك جركسي . وهكذا أضحي المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحصن التدريب وشدة التماسك، مما جعلهم يشقون طريقهم في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

### ظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث :

والواقع إنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية - بعد أن تكاثرت أعدادهم - بعيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاون سمح لهم - لأول مرة - بمخادرة أبراجهم وطباقتهم بالقاعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة<sup>(١)</sup> وقد ترتبت على ذلك نتيجةتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ما عدا فيه المماليك البرجية من نمرة وما حظوا به عند السلطان قلاون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لاتهدأ لها نازرة في ذلك العصر . وأول ما نسمعه من المماليك البرجية في ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

(١) الماريزي : المواظ ج ٢ ص ٢١٣ .

الأشرف خليل، فناروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ تأثيرتهم إلا عندما انتقموا لمقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة؛ ثم بإعلان الناصر محمد بن علاون سلطاناً سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه (١).

ولم يكن في استطاعة الناصر محمد في سلطنته الأولى أن يصد في وجه كبار الأمراء، فعدت البلاد مسرحاً لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقي رغبة كل أمير في الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد. وفي ذلك النزاع ظهرت الطائفية الممالكية على أشدها، فاستعان كتبغا بالمماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالمماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحياناً في بعض المراجع اسم الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل (٢).

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأزلوها الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم؛ وبذلك حقق البرجية نصراً جديداً أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية في ذلك العصر (٣).

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذه وإنما يعمل من أجل نفسه، فانفضوا عنه، الأمر الذى أدى إلى رجحان كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى. ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطور البرجية بعد أن أخذ درساً على أيديهم، فعمل على تشييت شملهم وتفريق صفوفهم، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

(١) أبو المحاسن : التجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) الكتبى : عيول التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ - ١٠١ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ .

المفرى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .



في نواحي متباعدة من القاهرة ، ولم يترك في القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة<sup>(١)</sup> . ولعل هذه الإجراءات التي اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثرها في إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين في القاهرة ، واتخذت هذه الثورات صورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ أروا في إزاهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لعصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعبثاً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان الناصر محمد في سلطنته الأولى طفلاً صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا - كما سبق أن فصلنا - هو كل شيء في الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٤-١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفي عهد هذين السلطانين المقتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك في مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الآخرون على مقاومة الترك في شخص كتبغا ولاجين<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجي أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن البرجية كانوا لا يزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاوون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تنهياً بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندها عارض بعض أمراء البرجية - مثل

(١) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .

(٣) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

كرجى وطنجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جبهة البرجية وعلى رأسهم  
بيبرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ،  
وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى (١).

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية  
فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية  
وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص  
فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية  
أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام الأمر  
الذى جعل المؤرخ أبوالحسن يهيد يهبطونهم فى واقعة شقجوب - قرب دمشق -  
سنة ١٣٠٢ ، فيقول دوصرخ (سلار) فى بيبرس الجاشنكير وفى البرجية فاتوه  
دفعة واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً  
وسلموا أنفسهم للموت . . وكانت سلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء  
على المسلمين (٢) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من المماليك الجراكسة كانوا قد  
أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا  
فى النهاية سر مآصار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق المماليك كانت تتألف  
فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يتمدمم أستاذهم - سلطاناً كان أو أميراً -  
بالرعاية والعناية كما تتمهد الدجاجة أفرأخها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من  
تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم  
طبيعة دور الفسأة الذين يبرون به على أستاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يترعرعون  
ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أى يصبحوا أمراء ، وعندئذ تصبح

(١) الميرزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٦٠ - ١٩١ .

لهم قيادة ذاتية تنبثق من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكمة عندما أسسها السلطان المنصور قلاون ، تتألف من عماليك صغار لا حول لهم ولا قوة ، ولكن مع مضي السنين والأيام تما هؤلاء الصغار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا فسمع أن السلطان الناصر محمد عين في سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أيبك المنصوري - في الوزارة<sup>(١)</sup> . أما المقرئزي ، فيقول في حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أي في سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه : وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس إليهم في الأشغال ؛ وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة... وصار في قبائله الأمير سيف الدين سلار ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحدا من البرجية وقفت أصحاب سلار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدا...<sup>(٢)</sup> .

على أن طبيعة البشر كثيرا ما تحمل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاون وأن واجبههم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاون وليس عرش بيت قلاون هو الذي يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويفسكرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاون . وما دامت السلطة غدت عنيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية في تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالهم .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس في سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجرაკسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلار زعيم الترك ويبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك الأميرين سلار ويبرس الجاشنكير إلى العمل معاً مما جعل مؤامرة الناصر محمد تنهى بالفشل (١) . وعندما يتس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلار ويبرس الجاشنكير وتضييقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء في الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصرعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبيرهم يبرس الجاشنكير دس السلطنة في تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية يلبى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم : إن هؤلاء الجراكسة متى تمكنوا منا أهلكونا وراحت أرواحنا معهم ، أفقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا . (٢) . لذلك لم يوفق يبرس الجاشنكير في سلطنته نتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية ، ثم كراهية الناس ليبرس الجاشنكير لاسيما وأن سنة اعتلائه دس السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وخلاء الأسعار وفتشاور الناس بسلطنة المظفر يبرس ، (٣) . وهكذا لم تطل سلطنة يبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد عرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

(١) المرزى : السلوك ج ٢ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش في تلك المرة بعد أن بلغ من العمر ما يمكنه من الوقوف على قدميه في وجه كبار أمراء الترك والجرأ كسة جميعاً ، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله ، واتبعت سياسة صارمة تجاه الجرا كسة جعلته يحرص على تقليص أظافرهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجرا كسة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ . إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل بزعمائها من البرجية تمكيداً شديداً . ومن ذلك ما يرويه المقرئ في حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد دارت جمع ما كانت البرجية قد اشترته من أراضي الجزيرة وغيرها ، (١) . أما العيني فيحكى أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ ( ١٣٢١ م ) إلى تغريق من خشى خطرهم من البرجية في النيل (٢) .

### انتهى به نفوذ الجرا كسة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع في سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجرا كسة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحداثاً وأطفالاً ، الأمر الذي جعلهم أداة سهلة في أيدي كبار الأمراء ، يلهون بهم وفقما شاءوا ويهزلونهم بنفس السهولة التي كانوا يولونهم بها . وهكذا أتت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الحوادث ه وفي تلك المرة تمكثوا وازداد تمصصهم لجناحهم الجركسي ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والتقميريد في عهد الناصر محمد .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العيني : عقد الجان ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد فناروا سنة ١٣٤٥ بزعامة الأمير غرلو الجركسي شاد الدولوين ، في عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجي سنة ١٣٤٦ (١) . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة في الدولة ، الأمر الذي أثار حقد الترك ، فأوقفوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسي ليحلوا محله الأمير أرقطاي التركي في نيابة السلطنة (٢) . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجي أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة في تلك الفترة نتيجة لرجحان كفة الترك وسيطرتهم على شؤون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا في اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك في ذلك الدور الأمير يلبغا الخاسكي ، الذي زاد عدد مماليكه عن أربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده (٣) . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا في الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

(١) المقرئزي : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلي لدولة المماليك ويده الأسر والنهي ،  
في الوقت الذي ازداد عدد مماليكه وسيطر وأعلى عدد كبير من الوظائف العسكرية .  
ولم يلبث طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم ، مما أتاح  
فرصة للسلطان شعبان للتخلص من استبداد يلبغا الذي انتهى الأمر بقتله سنة  
١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا تفتتت المماليك اليلبغاوية في أنحاء الدولة  
والتمسك بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ،  
ولم يكونوا جميعاً أتراك ، وإنما كان منهم الجر كسي ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يديم  
قوته ويتوسع في شراء المماليك لم يراع الجانب المنهري ، فجاء في صفوف  
مماليكه الترك والجر كس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية  
عما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاضعي ، وازداد هذا الاستياء  
بصفة خاصة بين صفوف الجر كس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم  
مزودجاً لما حل بهم من اضطهاد بوجههم جراً كسة أولاً ويلبغاوية ثانياً .  
وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم  
بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء  
هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله  
من الجر كس .

### برقوق وتأسيس دولة المماليك الجراكسة :

تزعّم الأمير برقوق المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن  
ثم يرجع إليه الفضل في إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم  
في دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يهد لليلبغاوية الخسب ، بل مهد أيضاً

(١) أبو الحسن : ج ١١ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) العيني : عقد الجناح ج ٢٤ ورقة ٩٢٠٦ .

أبو الحسن : الهجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دسست السلطنة من الجراكسة. الأمر الذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسي الجانس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلغا الخاص به حوالي سنة ١٣٦٣ ، وادعته وجعله من جملة المماليك (١) . ثم يروي أبو المحاسن أن برقوق استمر في خدمة يلغا حتى ثار بعض المماليك اليلغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لا يدرى أبو المحاسن وهل كان برقوق ممن هو مع أستاذه يلغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلغا لما تعرض له جمهرة المماليك اليلغاوية من اضطهاد وحبس بالكرك سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣ ؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة (٢) . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب - أي أميراً صغيراً - ؛ فإنه أسهم بسهم وافر في المؤامرة التي انتهت بمقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطاناً سنة ١٣٧٦ (٣) .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلغاوية ونجاحهم في التخلص من السلطان الأشرف والمماليك سيؤدي إلى صدام بين الأمراء اليلغاوية وبعضهم وبعض ، لا سيما وأن السلطان المنصور على كان في السادسة من عمره ، مما أغرى كبار الأمراء اليلغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهنأرسم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أيوبك اليدري ، حتى يبدو بعيداً عن حلقة الصراع ؛ وفي الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء ببعضهم ببعض حتى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .



يصفوه له الجور وكان أخطر منافس للأمير أيوبك البدرى هو الأمير قرطاي الطازى ، فاصطدم الأمران وتمكن أيوبك من القبض على قرطاي ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧<sup>(١)</sup> . وظن أيوبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت مهيأة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى ، إليك وأتباعه ليخلق عصبية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى ، دفعة واحدة ، من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه<sup>(٢)</sup> .

غير أن مطامع الأمير أيوبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثارت مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أيوبك سنة ١٣٧٧ بزحامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق وعندما سمع أيوبك نبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لإخماد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أيوبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرروا أيوبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلقبوا الناصرى وبركة الجويانى<sup>(٣)</sup> . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام وصحبها السلطان المنصور على الصغير ، وعندئذ بدأت أولى حلقات المؤامرة فنار الجند على أيوبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أيوبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسى درجات الإمارة فى نظام المماليك<sup>(٤)</sup> .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلقبوا الناصرى وبركة الجويانى ؛ فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستمعين به فى تحقيق مآربه ثم

(١) الميرزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) الميرزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ - ٣١٢

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه في نهاية الأمر وعند ما تخوف بعض الأمراء الترك من نوايا برقوق  
رأشفقوا على مصير يديك فلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك  
البيت ، كما يل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أتا بكية  
مصير (١) . ومن يدري ، فربما كان في حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة  
طيبة للتخلص منه ، فضلاً عما في اختيار طشتمر ان ذلك المنصب الكبير في القاهرة  
من إرضاء للترك ، غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمح  
فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين  
الطرفين سنة ١٣٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبسه بالإسكندرية ونفى عدد  
كبير من أتباعه (٢) .

وهكذا خطا برقوق خطوة جديدة نحو الإمام فتولى منصب أتا بك العساكر  
في مصر وأصبح زهيله بركة رأس نوبة كبيراً أطابكا (٣) . أما يلبغا الناصري  
فقد قبض عليه حينما ثم أرسل إلى نيا بطة بلبس . ويصور أبو المحاسن الموقف  
في ذلك الدور فيقول ما نصه : والمعول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى  
طجعت الناس بهو طهم : برقوق وبركة نصيبا على الدنيا شبكة (٤) .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تقسد عليه خط سيره ، إذ ثار أحد  
الأمراء الجرا كسة . هو إينال اليوسفي . سنة ١٣٧٩ ضد برقوق وبركة  
جميعاً . وانتهى ذلك أن إينال كان يضم كرهاً شديداً لبركة ، وحاول بشتى  
الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

(١) البغاوة ، : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) الأطابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرفي .

الفاشة شندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

الابتعاد عن الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إينال وأخير أحرق إينال على بركة  
وبرقوق جميعاً فانهز فرصة غيابهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب  
ما فيه كما خدع صغار ممالك برقوق بأن مناهم بالأمان المعسولة ليعاونوه في  
خطته<sup>(١)</sup>. ولكن برقوق حادسراً وتمكن من إخماد الثورة ويقال إن ممالك  
برقوق ما كادوا يرونه حتى سرت مما يتم في نفوسهم: نشر والله طائعين، وتحولوا  
ضد إينال الذي ولي الأديار. ولكن برقوق استطاع القبض على إينال وبجونه<sup>(٢)</sup>.

وكان لا بد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول  
يشكر في التخلص من الثاني. وقد فسر برقوق في استنارة الرأي العام ضد  
بركة، فخره على انتزاع بعض أراضي الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر  
الذي أنار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وجماعة العلماء والمسلمين<sup>(٣)</sup>.  
وفي الوقت الذي ثار الرأي العام ضد بركة، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن  
طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم<sup>(٤)</sup>. وكان برقوق  
يعرف جيداً أن استبعاد بركة يعني ثورة الترك الذين يتعصبون لرعيهم، ولذلك  
استعد برقوق للهزيمة القادمة بتقوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا  
صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة  
ترك وهم أصحاب الأمير بركة، على قول المقرئ<sup>(٥)</sup>. ولم يكن هناك مناصاً  
من الصدام بين هاتين الفرقتين، فوقع الصدام سنة ١٨٢٠ وانتهى بالقبض  
على بركة وحبسه بالإسكندرية ومصادرة أمواله، حتى قتل بعد قليل<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن لباس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: المعبر، ج ٥ ص ٤٦٨.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٣ ورقة ٢٢٦ (مخطوط).

(٤) ابن حجر: أنباء الفجر ج ١ ص ١٠٩ - ١٢٦.

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٣ ص ٦١٠ - ٦١١.

(٦) ابن حجر: أنباء الفجر ج ١ ص ١٤٣.

ابن لباس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفي السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، ولكن برقوق رأى أن يترتب قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان في الحادية عشرة من عمره<sup>(١)</sup> . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتمجّل إعلان نفسه سلطاناً قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عز عليهم ما حل بزعمهم بركة . لذلك ظل برقوق على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدتها ، ولم يجسر على السلطنة<sup>(٢)</sup> . وفي الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم ، فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتبعوا بالأخذ تقتلوا ونفوا وبجناوا<sup>(٣)</sup> .

وطبيعي أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقروفاً بشرط اشتراك الأمير برقوق معه في تدبير أمور الدولة ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفي الدولة لحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية في الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التي غدت في يده ليتمكن لنفسه ويملاً الوظائف الكبرى باتباعه ومماليكه ، هذا إلى أنه أخذ يتحجب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذي أنعش الحالة الاقتصادية ، وجعل الناس يلمحون بشكره<sup>(٤)</sup> . أما في الخارج فقد حدث سنة ١٣٨١ أن أغار التركان على حلب

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ .

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٥٦ .

أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

ولكن برقوق استطاع صددهم وطردهم، الأمر الذي أظهره في صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها<sup>(١)</sup>.

وفي تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم لن يبقى لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق في اغتصاب السلطنة. وكان أن دب الترك مؤامرة لاختيال برقوق، وكانت المؤامرة بزعامة أيتمش الخاصكي وبطال الأشرفي. ولكن عين برقوق اليقظة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة وتفهم وجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركي وإبذاناً بقيام دولة المماليك الجراكسة<sup>(٢)</sup>.

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ في التخوف، الأمر الذي دفع بعض المقر بين إليه إلى أن يقدموا له النصيح « بأن يتملطن ويحتجب عن الناس ويستريح ويرجح من هذا الذي هو فيه من الاحتراز من قيامه وعوده »<sup>(٣)</sup>. ولكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشى وقوف كبار الأمراء في وجهه « تخاف عاقبة ذلك ». أو اعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية. وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات الكفائية بإجلاسهم على العرش. وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطوتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمير عبد الغني والأمير أيدير الشمسي. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين « طابت نفسه » واستجاب لمؤيديه، وإن ظل « يقدم رجلاً ويؤخر أخرى »<sup>(٤)</sup>.

(١) القريني : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد إثنان من أعوان برقوق وأخذوا السلطان الصالح أمير حجاج من قاعة الملك وحمله إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفي الحال استمضى الخليفة العباسي المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر (١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٣ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الأتراك ، وبدأت دولة المماليك الجراكمة التي استمرت في الحكم حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ ، وقبل أن تتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين في تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لخصائصها العامة في التاريخ .

### خصائص دولة المماليك الجراكمة :

امتازت دولة المماليك الثانية أو الجراكمة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جنركسي ، ما عدا إثنين هما خشقدم وعمربغا كانا من أصل يوناني

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار ، والذي ظهر بوضوح في بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثراً في دولة المماليك الجراكمة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استتاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلقه عادة ، ولكن لعدة أشهر فقط . ذلك أن اختيار ابن السلطان

(١) المبنى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحت لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل مؤقت حتى ينجلى الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوى يستأثر بالعرش لنفسه .

وكان عمر دولة المماليك الجرا كسة مائة وأربع وثلاثين عاماً ، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطاناً . ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات ؛ في حين حكم السبعة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجرا كسة فهم : برقوق وفرج وشيخ ورسباى وجمق وإبنال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكوتهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض (١) .

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجرا كسة بحبهم للأدب وحبهم للعلم - مثل برقوق وشيخ وجمق وقايتباى والنصير - كما بالغ بعضهم في العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومكتبات وسبل وغيرها . وربما كان الهدف من المبالغ في إنشاء هذه المؤسسات والإيقاع عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسهم .

ولاشك في أن البلاد قامت كثيراً في عصر دولة المماليك الجرا كسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم ، وما كان ينبجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع ، مما أوجد جوّاً من الرعب والفرع وعدم الاستقرار في البلاد . وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح ممالئهم ، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكمهم

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان وبماليكته فيتحكمون في البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يتمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بمهبتها ومكانتها في المحيط الدولي ، بل لقد تمكن المماليك في ذلك العصر من إزال ضرب قاصمة تيمورلنك في وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولأقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التي اتصف بها دولة المماليك في ذلك العصر .

### السلطان الظاهر برقوق : ( ١٢٨٢ - ١٢٩٩ )

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه واختار الأمير سودون الفخري - وهو من الترك - نائبا للسلطنة في مصر كما عفا عن يلبغا الناصري وأقره في نيابة حلب (١) .

° على أن برقوق لم يستمر طويلا في تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتب له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية بماليك السلطان شعبان . وقد أدت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣١ .



هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي انصف بها عهد برقوق ، منها ثورة الطنبيغا السلطاني نائب أبلستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركي قاله لأكون في دولة حاكمها جر كسي ، مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجراكسة في ذلك الدور (١) . ولما كان تلك الثورة باءت بالفشل وفرار الطنبيغا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمع فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكذب برقوق يستريح من ثورة الطنبيغا حتى فوجيء بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله يطمع في السلطنة ، وأن أمراء الترك في القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله الخليفة الواثق بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذي جعل الأشرافية واليلبغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفوف الترك — من أشرافية ويلبغاوية — في صورة ثورة كبرى اندلعت نازها سنة ١٣٨٨ وتزعّمها منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرافية — ، وبلبغا الناصري نائب حلب ، وهو زعيم اليلبغاوية (٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام عن طاعته وأن جيوش الثوار تنتقل من نصر إلى آخر في طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الحرمة بجيوش السلطان في دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفي تلك الأزمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يهضمو

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٩ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفجر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئبي : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (مخطوط) .

الدروب وأن يساعده في مقاتلة العدو الباغي، (١).

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفاجح في دهم مركز برقوق ، بل لقد أخذ الأمرء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش بليغا الناصري . وكان ذلك في الوقت الذي انتشر الطاعون في القاهرة ، مما جعل البلاد تفرق في الفوضى . وأخيراً لم يهد برقوق مخزجاً أمامه فأنفجر باكياً وسط جنوده ، وأمرع بالاختفاء في منزل خياط ، في الوقت الذي دخلت جنود بليغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة (٢) .

وكان منتظراً - حسب العادة عند المماليك - أن يعلن بليغا نفسه سلطاناً ، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوق ، ولكنه خشي معارضة المماليك الأشرفية الترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغاوية ، فرشح الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان ، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان في سلطنته الأولى يلقب بالناصر (٣) .

أما برقوق فقد ألقى القبض عليه ، وعندئذ خشي بليغا انتقام المماليك الجراكية إذا هو مسه بسوءه ، فاكتفى بنفيه إلى الكرك سنة ١٣٨٩ . ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم بليغا الناصري ، في الوقت الذي بدأ الهنقاق بين بليغا وحليفه منطاش (٤) . وفي الصراع الذي دار بين بليغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوق ، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩ ، والتفت حوله الجراكية من الشام ومصر فكون منهم جيشاً زحف به إلى دمشق (٥) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ - ٢٨٠

ابن دقاق : الجواهر الثمين ، ج ٢ ورقة ١٨٣ هـ

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤

(٣) أبو المحاسن : مورد الطائفة ص ٩٦

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨

(٥) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١ هـ

أما منطاش الذي آلت إليه السلطة في مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصري ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم ؛ فأخذ يتحايل على جمع المال بمختلف الطرق ليعيد جيشاً يحارب به برقوق في الشام (١) . وفي الموقعة التي دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجي معه ، إذ وقع السلطان والخليفة في قبضة برقوق ، مما صار له أهدأ الأثر في نفوس رجال منطاش فخلصهم الهزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجي لبرقوق عن السلطنة ، في حين احتفى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وحاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة (٢) . وكان أن استقبل برقوق في القاهرة أجمل استقبال ، ووجدت البيعة له في القلعة ، في حين انزوى المنصور حاجي حتى دس له السم بهض جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بجهود برقوق في تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المماليك الترك والتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصري ومنطاش . وفعلا قبض برقوق على يلبغا الناصري وقتله سنة ١٣٩١ ، في حين قتل منطاش في حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها في شوارعها ثم عاقت على باب زويلة (٣) . هذا في الوقت الذي استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعد آخر بعزلهم عما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على مماليك من الجراكسة (٤) .

(١) المقرئى : السوك ج ٣ ورقة ٥٧٣ (مخطوط) .

(٢) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن حجر : المحور السكينة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ - ٣٩ .

على أن المتاعب الداخلية التي صادفها برقوق في سلطنته الثانية لم تمكن كلها من جانب الترك وأسرانهم ، وإنما قار العربان في مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٣٩٤ . وأرسل زعيم العربان في مصر - وهو الشريف العنابي - إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان في إقليم السكرك يطالب منه معاواته في الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ؛ على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقاتلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة ، فألقى القبض على الشريف العنابي وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا في السجن ، كما أخضع عرب هوارة في الصعيد (١)

### تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجي كبير هدد دولة المماليك في ذلك الدور - هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق . .

وكان تيمورلنك ينتمي إلى بيت من أشرف التتار ، ولد في مدينة سمرقند وتأنق نجمه فيها واتخذها قاعدة لأعماله التوسعية التي مكنته من الاستيلاء على بلاد ماوراءالنهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها في العام التالي (٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبنهاد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التتري الجديد . ولكن

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ - ٣٧٧

المقريزي : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) .

(٢) ابن عربشاه : هجائب المقدور ص ٤٩ هـ

تيمورلنك كان أسرع في العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخرّبها وقتل كثيراً من أهلها (١).

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمراً قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوّل كثيراً من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ يعقد اتفاقيات مع التركمان وبني عثمان لصد ذلك الخطر الجديد (٢).

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عوامل جديدة أجهلت الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه في تأجيل ذلك الصدام بسبب انشغاله بتوطيد نفوذه في دولته الواسعة من ناحية ، فضلاً عن أنه فتح جبهة جديدة لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى (٣) وكان كل ما فعله برقوق هو أنه استغل فرصة غياب تيمورلنك في الهند، وكتب لأحمد بن أويس تقليداً بنبأ به السلطنة في بغداد، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، ثم أرسله سنة ١٣٩٤ إلى بغداد ، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد (٤).

وبمقتضى التقليد الذي كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير تابعاً لسلطنة المماليك في مصر؛ ونائباً عن السلطان برقوق في حكم بغداد ، فحضر المسكبة باسمه . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد اضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك ، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأمر بالعودة من الهند سنة ١٣٩٩ ، في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق .

(١) المرقزي: السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ وما بعدها (مخطوط) .

(٢) ابن حجر: لبناء النمر ج ١ ورقة ٣٦٧ - ٤٠٠ (مخطوط) .

(٣) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦ .

(٤) المرقزي: السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١ .

## مهمل أبناء برقوق :

وهندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يخلعوا بالسلطنة لأولاده من بعده - وم فرج وعبد العزيز و ابراهيم - على التوالي واختار برقوق مجاساً للوصاية على أبنائه برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتاك المسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفى سنة ١٣٩٩ (١) .

ظهر أن المماليك لم يؤمنوا - كما سبق أن رأينا - بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام فرج بن برقوق في منصب السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذى جعل السلطان فرج يزهد في العرش ، فهرب الصبي من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى في أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة (٢) .

وليست هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد ابن أويس من بغداد واحتتمى بهلب في حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعينتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام (٣) . ولم يستجيب المماليك للإنذار الذى وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتجمعت الجيوش من نيات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب سنة ١٤٠٥ لتعمل فيها قتلاً وأسراً ونهباً (٤) . وقد اهتزت مهمل لأبناء تلك

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٠٤

(٢) ابن حجر : لآباء القمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عريشاه : عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها .

الهنزية، وخرج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالماليك قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠. وبعد ذلك هاد فرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، في حين تمكن الأخير - عن طريق الحيلة - من دخول دمشق حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند.

ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه، فتم الصلح سنة ١٤٠١. وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢<sup>(١)</sup>. ولم يلبث أن توفي تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ في سمرقند، ثم تعرضت دولته الواسعة للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك خففت حدة خطر التنازع على دولة المماليك في مصر والشام.

أما ما كان من أحوال سلطنة المماليك في مصر، فقد رأينا كيف أن فرج ابن برفوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضع الأمر أخاه عبدالعزیز. ولكن الصراع بين أمراء المماليك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برفوق ضد الآخر؛ فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته بهكم وصايته على المنصور عبدالعزیز، سعوا لعودة فرج إلى العرش. وقد طاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ - ١٤١٢)، انصرفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية، فاستهل حكمه بقتل أخويه<sup>(٢)</sup>، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) ابن حجر : انباء النعمان ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها .

الموقف لم يفسر عن ظهور الرجل القوي بين صفوف الأمراء الذي يستطيع أن يضرب خصومه وينزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن في أنحاء الدولة - وبخاصة في الشام - على عصر فرج بن برقوق . ففي سنة ١٤٠٧ ثار جكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعدل ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلن الثورة على السلطان فرج في القاهرة ، بل لقد زحف بجيوشهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتله شنعاء ، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسي سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

### السلطان المؤيد شيخ الممردى : (١٤١٢ - ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراء شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ يطمئن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هودست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعي أن تكون المشكلة الأولى التي واجهت السلطان المؤيد شيخ هي التغلب على نفوذ نوروز الذي أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس عنيد (٢) .

وفي عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

(١) العيني : السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد . ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet, , L'Egypte, Arabo, pp. 542—548.



الشمالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه ابراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دغاادر . فأوغل إبراهيم حتى قونيه وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكماً مالياً لسلطان المماليك من بيت دغاادر . وقد استقبل إبراهيم استقبالاً حماسياً في القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ، وقيل إن أباه حقد عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدمس له السم (١) .

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر ، الذى لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططر . وقد قضى محمد هذا في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباى ، الذى انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

### السلطان الأشرف برسباى وفتح قبرسى :

حكم السلطان الأشرف برسباى ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباى الاحتكارية التى سنشور إليها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذى نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباى من القيام بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرس وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارسة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist. of Egypt . p . 336 .

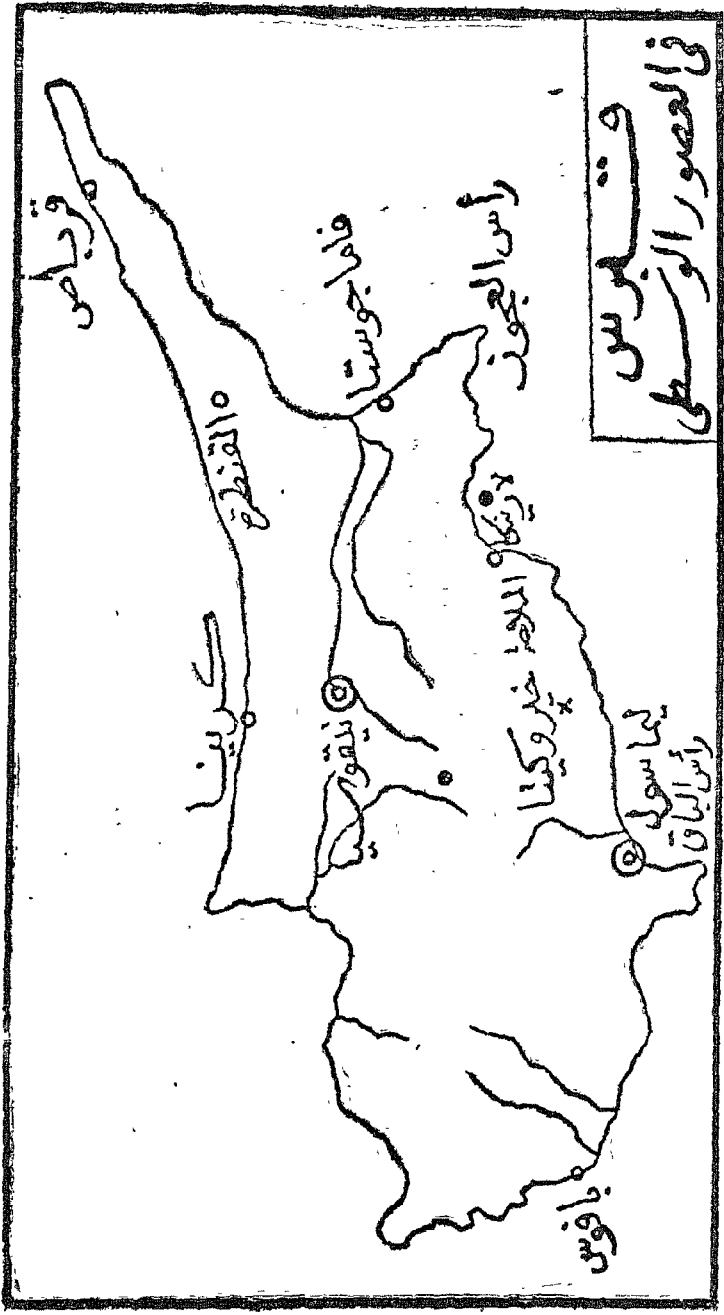
تجارة المسلمين ، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرس بحملة الصليبية الكبرى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ . وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين جزيرة قبرس وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠ ، إلا أن الأفعال العدوانية التي تعرضت لها شرق مصر والشام لم تنقطع (١) . وليس من الضروري أن يكون أهل جزيرة قبرس بالذات هم الذين قاموا بكل الإفارات التي تعرضت لها شرق مصر وسلطنة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، ولكن كان يكفي أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة الثغور الإسلامية في تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرس قاعدة لنشاطهم ، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم .

والواقع أن سلاطين المماليك في مصر حاولوا غزو قبرس أكثر من مرة لإحساسهم بخطرها ورغبتهم في دفع ذلك الخطر . وقد رأينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرس سنة ١٢٧٠ ، ولكن محاولته باءت بالفشل (٢) . كذلك حاول يلبغا الخاصكي أن ينتقم مما حل بالإسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان ، فقامت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرس ، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة (٣) . وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباي دست السلطنة سنة ١٤٤٢ ، فرأى في الجهاد ضد قبرس وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية . ودفع برسباي إلى المضي في ذلك التفكير أن إغارات القبارصة لم تنقطع عن شواطئ دولة المماليك ، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣ ، وأسروه وساقوه

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣ .

(٣) النويري : الإلغام بالأعلام ج ١ ص ٧٦ ، ج ٢ ص ١٠٣ (مضبوط) .



في العصور الوسطى  
جست البريس

قرطاج

القنطرة

كربينا

نيقوسيا

فاما جوستا

رأس العجوز

لايشكاو الملاط خير وكينا

لما سول

رأس الباق

بافوس



إلى قبرس<sup>(١)</sup> ، ولم تجدد محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدي على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصلح لا يعني سوى ضعف سلطان المماليك وتخوفه<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباي سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب نغر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسله من برسباي إلى السلطان مراد العثماني<sup>(٣)</sup> . وعند ذلك ثارت ثائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد الهدية لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباي ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هي في حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسؤولية قبرس عن ذلك النفر من القرصنة الذي كان يتحرم في البحر<sup>(٤)</sup> . وقد أغارت تلك الحملة على النواحي القريبة من ليماسول . ثم عادت إلى مصر في أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن هزم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية<sup>(٥)</sup> .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هي أنها أهبطت السلطان برسباي

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت من ٧١٩ - ٢٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٨ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٨ .

(٤) المرزبني : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .

(٥) Makhtaras ; Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus d.683.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية ، وعن مدى مسؤولية قبرس وملوكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس ، ودأب السلطان على زيارة دارصناعة السفن ببولاق كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن (١) . وما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه ، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مهجروناً بالمجاديف المرسله إلى مصر ؛ ثم تلت بمحارمتها وأشعلت النار فيها (٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية القواطن المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فأتجهت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاما جوستا على شاطئ قبرس ، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبحرت السفن إلى الملاحه فى حين سار شهر من جيش المماليك على الشاطئ . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بمضى السفن لمناوشة السفن الإسلامية ، من ناحية ، كما أرسل جيشاً صغيراً ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تسير فى البر بجذاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن معاة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفارسان القبارصة ، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر (٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة ، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإتزال بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر ، فأخذ المماليك يحرقون القرى

(١) أبوالمحسن : الهجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفورنيا) .

والحق : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد طاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون في الأهالي قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتألت أيديهم بالغنائم (١). وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٨٢٨هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يتأهبون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثير أمن أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالاً حافلاً ، وشقوا طر يقهم إلى القلعة وصحبتهم أكثر من ألف أسير ، فضلاً عن الغنائم التي حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباي لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر في غزو قبرس من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباي لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرس قبل أن تخضع الجزيرة نهائياً ، ولذلك بدأ غير قانع بتلك النتائج التي حققتها جيوشه في الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرس في العام التالي (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباي إلى الإصرار على إخضاع قبرس لسيادته ، منها استمرار تهريب الجنود إليه ضد جانوس بسبب عداوتهم للملك قبرس ، ومنها استنجد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرس وملوكها . هذا فضلاً عما وصل إلى مسامع السلطان برسباي من أن جانوس ملك قبرس استنجد بملوك غرب أوروبا ضد دولة المماليك (٤) .

(١) الميرزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : إنباء الفرج ج ٢ ورقة ١١١ س

وقد وجد السلطان برسباي في تلك العوامل مجتمعة حافزاً قوياً لإرسال حملة كبرى نالته لفتح قبرس، عهد بقيادة جيوشها الهيرية إلى الأمير تغرى بردى محمودى، وبقيادة قواتها البحرية إلى الأمير إينال الجوكى، وحددا اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر، (١). وفي أول يونيو سنة ١٤٢٦ أفلعت الحملة من الأسكندرية. وعندتها أكثر من مائة سفينة تحمل نحو آمن خمسة آلاف مقاتل. ولم تكمل الحملة تصل إلى منطقة ليماسول حتى بدأت العمل فوراً، فهاجم الغزاة مدينة ليماسول واستولوا عليها وعانوا فيها نهباً وهدماً واحراً (٢).

وفي تلك الحملة لم يكتف المسلمون بحصر نشاطهم في الأقاليم الساحلية للجزيرة قبرس، وإنما أوغلوا داخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته في سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول. وفي الموقعة الفاصلة التي دارت بين الطرفين في ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة، فظلت سيوف المماليك تعمل في صفوفهم، وأمنه الرماح تطعن في أعضائهم فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً (٣). وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل يحيطه ولكن المماليك تبوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى. وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى محمودى - أن يتبع تلك الضربة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس؛ فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية، وتقدم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان (٤).

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشقوا القاهرة في موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس بغلا أعرجاً. ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورودس ص ٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) .

(٣) المينى : عقد الجمار ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ .



دخل على السلطان برسباي قبل الأرض وأخذ يستمطع السلطان ، حتى وافق برسباي أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائتي ألف دينار دفع منها جانوس النصف عاجلاً على أن يرسل الباقي بعد عودته إلى بلاده (١) . كذلك اشترط السلطان برسباي أن تغل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائباً عنه في حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بالمفر إلى جزيرته التي وصلها في مارس سنة ١٤٢٧ (٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباي قد حقق نصراً كبيراً للدولة المماليك ، بما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن تتخذ الحدود والاستقرار اللذين سادا عهد برسباي بأنهما دليل على سعادة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب ، الأمر الذي جعل برسباي يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨ (٣) .

### السلطان الظاهر جقمق وشهزاد رومس :

لم يستطع التتيز يوسف بن برسباي (١٤٣٧ - ١٤٣٨) أن يجلس على عرشه من أطباع الروم عليه وهو الأدهر جقمق ذلك أن المرزوق يوسف كان في الرابعة عشرة من عمره ، فسجل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر - كما هي عادة المماليك - وتولى هو السلطنة بأقب الظاهر . وكان جقمق معتدلاً في حكمه ، إذا قيس بسلفه برسباي ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه لحرم المعاصي وشرب الخمر (٤) .

(١) ابن حجر : انباء القمر ج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit, p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit, p. 340 .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٢ في ١ ص ٢٤٥ ( طبعة كالمفرونية ) .

( ١٢ - العصر المماليكي )

وكما اشتهر عهد السلطان برسباي في التاريخ بغزو جزيرة قبرس، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق بغزو جزيرة رودس . والواقع إن جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين في شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عليها فرسان الاسبتارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة للشاعلم وأعمالهم (١) . ولم يكن الاسبتارية أقل تحمساً لحرب المسلمين من آل لوزجنان في قبرس ، الأمر الذي جعل المماليك يفكرون جدياً في غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك في أن الاسبتارية في رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك في فتح قبرس ، فأسروا بتقديم الهدايا للسلطان برسباي في القاهرة ، وهرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، ولما لم يفس السلطان برسباي موقف رودس والاسبتارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بغزو تلك الجزيرة ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثاني العثماني ضمح بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية برودس إلى الحلف المسيحي الكبير الذي أوشك أن يتكون في أوروبا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين ، فقام السلطان العثماني بتحريرض جقمق سلطان المماليك في مصر على غزو رودس ليشتغل الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف (٢) . هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦ ، مما يدعو مجالاً للشك في أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمنييا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراسها ، مما أثار السلطان

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٣ ص ١٢٣٣ - ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق في أن يحدو حذو برسباي ليحقق لنفسه مجداً يغطي به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية ، وبصرف أنظار المهاليك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية ، أدركنا مجموعة الأسباب التي حركت جقمق لغزو جزيرة رودس .

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس في سنوات ١٤٤٤ .  
١٤٤٣ ، ١٤٤٤ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، لم تستطع أن تقوم بعمل يستحق الانتباه ، بل على العكس تصدى لها أسطول الاستبارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التي أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال الملائى ضد رودس فقد كانت أكبر توفيقاً . فدمرت بعض الحصون الساحلية في رودس ثم قفلت راجعة إلى مصر بعد أن اضطرتها عواصف الشتاء إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهي كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفرها عدة وعناداً ، فانجحت صوب مدينة رودس خاصة الاستبارية وحاصرتها نحواً من أربعين يوماً ، ولكن على الرغم من هذا أبداه المهاليك من شجاعة نادرة ، فإنهم عجزوا عن الاستمرار في القتال بسبب شدة مقاومة الاستبارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين في الحرب ببلاد الشام . هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقاها الاستبارية من العالم المسيحي الغربي ، وبخاصة برجنديا وقطالونيا . وهكذا رأى قائدا الحملة - وهما الأميران إينال الملائى وتمامباي - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤) . ولم يلبث أن تم الصلح بين

(1) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) السيوطي : غروات قبرس وروودس ص ١٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا) .

الإمبتارية في ردوس والسلطان جقمق في مصر بعد أن تعهد الاستمبارية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية (١).

هذا من نشاط السلطان جقمق في الميدان الخارجي . أما في الميدان الداخلي فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين في بداية حكمه قام بالأولى الأمير قرقاس الشهباني الناصري وقام بالثانية إينال الحكيم نائب دمشق . وقد نجح جقمق في القضاء على هاتين الثورتين في سهولة (٢) . كذلك حدث في عهد جقمق أن ثار التمرد السود في منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، واسكن السلطان جقمق قضى تلك الفتنة وباع من في القاهرة من التمرد السود ، في حين أرسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك (٣) .

### دولة المماليك في أواخر أيامها :

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو في الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فخلفه الجلبش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مشوشة غير سليمة (٤) .

وقد ولي السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣-١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك في ذلك الدور هي كثرة

(١) محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس من ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ - ٥٨ (طبعة كالمينورنيا)

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة ، ص ٣٥ .

(٤) Wiet : op . cit . , p . 587 .

ثورات المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يحاربهم كل سلطان جديد .  
والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر  
أن يشتروا مماليكهم صغاراً أطفالا ويتمهدون تربيتهم ونشأتهم لشاة خاصة ،  
فيشرب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذي اشتراه وقام على تربيته وحباه  
بمطافه . أما في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك - أى في القرن  
الخامس عشر - فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً في سن البلوغ ،  
مما جعل أولئك الجلبان لا يتشربون روح النظام والولاء لأستاذهم في طفولتهم ،  
فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه ، وتمددت ثوراتهم حتى صار  
السلاطين أنفسهم ألعبوة في أيديهم . ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه في ذلك  
الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبقى  
في منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويقام غيره . ومن وراء جميع هذه  
الحركات الثورية والفن والقتل كان الجلبان في ذلك الدور الأخير من  
تاريخ دولة المماليك الجراكسة (١) .

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان  
في ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات في عهد السلطان إينال البالغ  
طوله ثمان سنوات (٢) .

ولم يستطع أحمد بن إينال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه  
سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء . ولم يعكر صفوه  
هذا الهدوء سوى المحاولة التي قام بها جام بك نائب الشام لانتزاع العرش .  
ولكن خشقدم استطاع في سهولة أن يتخلص من مؤامرة جام بك وأعوانه ،  
حتى قتله (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن إياس : صفحات لم تنته من بدائم الزهور ص ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٦ .

وبعد خشققدم تولى السلطنة يلباي المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمر بغا الرومي في العام نفسه . ولم يستلج تمر بغا إرضاء المماليك الحشقدمية ووزعيمهم خير بك فعزلته بعد شهرين . وذن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمر بغا إنما كان يبغي الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلا صعد خير بك إلى دست السلطنة أثناء الليل ولقب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً باستاذ الظاهر خشققدم . ولكن الأتابك قايتباي أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذي أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » لأنه لم يظل في دست السلطنة سوى ليلة واحدة (١) .

ويعتبر السلطان قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً ، وهي مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك ، عبد السلطان الناصر محمد . وفي تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباي أنه أمير السلاطين الجراكسة في ميدان الحرب ، وأوسمهم خبرة بشؤون العالم ، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن إياس بأنه كان « وافر العقل شديد الرأي ، عارفاً بأحوال الممالك ، يضع الأشياء في محلها . . . موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية . . » (٢) حقيقة إنه تعسف - مثل غيره من السلاطين - في جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشأته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال في المنشآت العامة أوفى حرابه الواسعة . ويعتبر مسجداً قايتباي بالقاهرة والوكالات التي شيدها من أجل المباني العربية في ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التي أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك الكتابات العديدة

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٣٢٥ (نصر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلمة وغيرها (١).

وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والأسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر ؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحصينات وغيرها من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية (٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباي ؛ أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير . ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمّة لسلطين المماليك الجراكمة . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركان ، وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة السجائين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م (٣).

أما عن أحوال مصر في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد امتازت بكثرة الضرائب وجمع الأموال للحرية ، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فظاعاً سنة ١٤٩٢ ؛ حتى أنه كان يموت في القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك ، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباي وأبنته . ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون المواشي ، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار (٤) . وليت المماليك قدروا

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344 .

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ (نصر محمد مصطفي) .

(٣) Wiet: op. cit., pp. 590-592 .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ (نصر محمد مصطفي) .

عندئذ خطورة تلك المحنة التي كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥  
وأخيراً سادت محنة السلطان قايتباي بعد أن جاوز الثمانين من عمره ،  
فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفي في اليوم التالي مباشرة سنة ١٤٩٦<sup>(١)</sup>

وقد تعاقب في منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه محمد (١٤٩٦ - ١٤٩٧) ثم قانصوه خمسمائة الذي لم يثبت في العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباي مرة أخرى (١٤٩٧ - ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ - ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باي الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا ممدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وهدم الاستقرار التي سادت البلاد في ذلك السور الأخير من حياة دولة المماليك<sup>(٢)</sup> . ولا أدل على تلك الفوضى التي عمّت جهاز الحكم في الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في ذلك السور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون في تولي منصب السلطنة الذي غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١ تمنع النوري - رغم أنه أقوى الأمراء - عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكي ، ويقال إن النوري قبل أخيراً أن يلبى منصب السلطنة بعد أن سجد وسجد وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي ، ؛ ولكنه اشتد على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم : أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني ؛ بل إذا أردتم خلعي وافقتكم<sup>(٣)</sup> .

(١) Lane-poole : op. cit. , p. 349 .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤ (نشر محمد مصطفى) .



### السلطان الأشرف قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦)

أنهت السلطان قانصوه الغوري أنه رجل قوى صلب ورغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ؛ ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستعصمة التي كانت تعانىها خزانه الدولة المقلية .

وقد اتبع السلطان الغوري لإنعاش الخزانه العامة سياسة تصفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر ، عندما دفعة واحدة ، ولم يكتب بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم البحر كية ، كما تلاعب في العملة لتستفيد الخزانه من الفارق ، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً (١) . وكانت النتيجة أن حقق الغوري أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذي ازدادت حالته سوءاً ، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغوري من تلك الأموال - التي جرد في جمعها - على ما يليكها الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ؛ كما شيد مسجداً ومدرسة في الحي الذي سمي بعد ذلك باسمه ، وهو حي الغورية . كذلك عنى السلطان الغوري بطريق الحج ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتعمير الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

(١) ابن باس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ ( نهر محمد مصطفى ) .

الغوري أنه عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت الممالك وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرّب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث فلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغوري ، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان . أما في الميدان الخارجي ، فكان الخطر الكبير الذي هدد مصالح البلاد في ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغوري آتيا من ناحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو دي جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما نبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادي كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والعرب الأوربي ، وأذن بانتقال زمام التجارة من أيدي المماليك إلى أيدي البرتغاليين (٢) . وإزاء هذا الخطر الجسيم ، استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغوري ، الذي رأى في الخطر الجديد تهديداً مباشراً للمورد الأساسي الذي اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغوري أولاً إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بسوء للمسلمين في الشرق والغرب ويبدو أن القوى الأوروبية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف مما جعل الغوري يشيد أسطولا جديداً في البحر الأحمر . وفي الصراع الذي نشب بين المماليك والبرتغاليين في المحيط العربي — غربي الهند — انتصر المماليك في أول الأمر سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبس أن ثار البرتغاليون لأنفسهم في العام التالي في

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ (لعمري محمد مصطفي)

(٢) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣ وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعا متواصلا (١) .

على أنه إذا كان الخطر الخارجي من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ؛ فإن ثمة خطر خارجي آخر تفاقم في أواخر عهد الغوري ، وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعني بهذا الخطر الجديد ، خطر بني عثمان .

### سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت في أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها بمفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التي شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون . ففي أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد خرجوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا ، وعندئذ صار أمامهم أن يحتاروا بين أمرين ، إما الاستمرار في التوسع في أوروبا على حساب الأوربيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية في ذلك الاتجاه طابع الجهاد الديني ؛ وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم في وسط أوروبا أو صلبهم إلى مدينة فيينا ذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثماني الاتجاه الأخير لاسباب وأن الخلاف المذهبي والسياسي كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية وأنصفويين الشيعة في فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثماني أن حقق انتصارا كبيرا على الفهامة اسماعيل الصفوي في موقعة جالدران سنة ١٥١٤

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نصر محمد مصطفي)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وذيابكر، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك، جعل العثمانيين قاب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق.

وقد امتد سلطان الغوري والأمرء لأخبار انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بهد ذلك إلى جهة بلاد السلطان،<sup>(١)</sup> ولم يخفف من مخاوف السلطان الغوري ما تردد من أخبار بهد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين. لذلك عزم الغوري على الخروج إلى حلب، حتى نرى ما يكون من أمر الصفوي وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غيره لا بد أن يزحف على بلادنا...<sup>(٢)</sup>

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة بلغادر، وهي الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك، الأمر الذي جعل السلطان الغوري يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذي ازداد ملامسة لحدود دولته<sup>(٣)</sup>. وكان أن اتخذ السلطان الغوري عدة خطوات إيجابية، فتحالف مع اسماعيل الصفوي من ناحية<sup>(٤)</sup>، كما أوى الأمير قاسم العثماني - ابن أخى السلطان سليم - الذي فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم)<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧، وكذلك ص ٢٧٨، ٣٩٦، ٤٠٠ (نشر محمد مصطفى).

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢.

(٣) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى).

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٥، وبذكر ابن لياس أن الغوري أرسل للصفوي عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثماني وكان لرسالة هذه الأفيال في الحفية في خبر سر بينه وبين الصفوي.

(٥) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى).

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقفاً بين لحظة وأخرى بين دولتي المماليك والعثمانيين . وسرعان ما جاءت الأخبار إلى السلطان الغوري بعظم الحشود والاستعدادات التي يجريها السلطان سليم العثماني قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغوري الإشاعات التي أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها مهاجمة الصفويين ، وإنما أوجس الغوري خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتخل المماليك عن عبتهم ولم يقدرُوا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فنار الجلبان في القاهرة لتأخر روانهم ، الأمر الذي أغضب السلطان الغوري فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء : أنا ما بقيت أعمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيري . . . وقد استعمل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فنادوا في العبت ونهبوا الدكاكين في القاهرة ، واستمروا ديشوشون على الناس ويخطفون العائم ... وحصل منهم الضرر الشامل ،<sup>(١)</sup> وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري ، فأب المماليك قائلاً : د لاشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا .<sup>(٢)</sup> وفي الوقت الذي أخذ الغوري يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بني عثمان ، إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب تطمئن السلطان الغوري وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشام اسماعيل الصفوي . وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خاير بك هذا ، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

(١) ابن اياص : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٨٤ ( نشر محمد مصطفى ) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٧ .

في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال الشام ، ولكن بسبب خاير بك أكدوبته ، فإنه أخذ يروى في رسالته إلى السلطان الغوري تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين (١) ، كما انهل بالأمير سيباى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيباى إلى الغوري يخبره أن الأحوال الاقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتمل البلاد مجيء السلطان ومعه جيشه الغفير ، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، وإن كان العدو متحرك فنحن له كفاية (٢) .

ولكن السلطان الغوري لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى في استعداداته فحشد الجند والأمراء في الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام . وفي تلك المرحلة وصلت السلطان الغوري رسالة ثانية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثماني لمفاوضته في الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغوري ، كلها ألفاظ معسولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وصرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغوري في رسالته : ... أنت والدي وأسالك الدهاء ... وجميع ماترونه ويريد السلطان فعلناه (٣) ... ومرة أخرى لم ينخدع الغوري بتلك الحيلة ، فلم يهض على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباي .

وعند غزوة سمع السلطان الغوري لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق التهمة ، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في يوليو سنة ١٥١٦ (٤) .

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٧٣ ( نشر محمد مصطفي )

(٢) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦ ( نشر محمد مصطفي ) .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥ ( نشر محمد مصطفي )

(٤) ابن زنبيل : آخره المالك ص ١٥ .

وهناك في حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالي وأخرجوا الناس من بيوتهم وسبوا حريمهم وأولادهم وكان ذلك سببا (فيما بعد) لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكمة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم ، (١) وكان أن وصل معسكر الغورى في حلب رسولان من قبل السلطان سليم الممثلة يطلبان المفاوضة في الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة والطمأنينة حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان في التهمويه على الغورى فقالا له : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني ، ويرى ابن إياس أنه د من جملة مخادعة ابن عثمان بنى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة منظر سكر وحلوى في علب كبار ، وكل ذلك حيل منه ؛ (٢) ومع أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبتة هو الآخر في الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحص بنية العثمانيين بتلبيح أن الغورى استدعى أمراءه جميعاً - ومن جملةهم خير بك - وحلفهم على القرآن في حضرة الخليفة العباسى بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم (٣) .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكف تصل الإمدادات بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملة الرسول الذى أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه في الصلح وقال له د قل لأستاذك بلاقينا على مرج دابق ، وهكذا درسول الغورى إليه وهو في حال نحس ، ليخبره بما حدث ، وبأن العثمانيين تحرروا فعلا واستولوا على ملطية وكرمر وجمنا

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٠ ( نشر محمد مصطفى ) .

(٣) ابن زنبيل : ص ٢٤

وغير هامن القلاع<sup>(١)</sup> وفي ذلك الموقف أدرك الأمير سيباى نائب الشام أن خاير بك غرر به عندما استعجبه على الكتابة للسلطان الغورى فى مصر بطمأنه من ناحية سليم ، فجهم سيباى على خاير بك وأمسك به صاحباً د يامولانا السلطان إن أردت أن تنصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا القادر الخائن فى الحال ،<sup>(٢)</sup> ، ولما كان خاير بك لم يكن وحده فى الحياة إذ كان له شريك هو الأمير جابر دى الغزالي نائب حماه ، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بسدم السماح لتلك التهم حتى لا يؤدى ذلك إلى بعثرة الجهود ورفرفة الصفوف وبذلك ترك خاير بك عراً طليقاً ليتم الدور الذى بدأه<sup>(٣)</sup> .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متجهماً شمالاً لملاقاة العثمانيين . وعند دابق - إحدى قرى بلدة عزان - أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته النهائية استعداداً للمركة المقبلة ولم تلبث أن لاحت مقدمة الجيش العثمانى ثم دارت المركة بين الطرفين فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وفى تلك المركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة أفاضت فى وصفها كتب التاريخ ، فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عدهم وأعلامهم ، حتى لقد فكر السلطان سليم نفسه فى الهروب أو طلب الأمان ، على أن يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه<sup>(٤)</sup> وفى تلك الساعة الحرجة ظهر خاير بك ليتم دوره الأهم فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيخ إن السلطان الغورى أمر مماليكه الأجلاب بالآية قدموا ، الأمر الذى جعل بقية طوائف المماليك يستاءرون من السلطان ويظنون أنه إنما يخشى أن يجعلهم وحدهم

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن زئبل : آخرة المماليك ص ٢٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٨ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ ( نهر محمد مصطفى ) .



وقود تلك الحرب ويحفظ بماليكه سلاماً معافين<sup>(١)</sup> ؛ وحيناً آخر يشيع  
خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً في المعركة وبمراجع هو وجنوده  
موازين الأدهار ، ليحذو حذوهم بقية الجيش المالكي<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة أخيانته ، بعد أن وجد معظم جيشه  
ولى الفرار وهيناً حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات ، فأخذ يصيح  
« يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة يا أغوات ! تشجاعة ا  
صبر ساعة ! »<sup>(٣)</sup> ، وكان أن تقدم الأمير ثمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ  
العلم السلطاني وطواه خفية أن يقع في يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان  
الغورى وقال له « يا مولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج  
بنفسك واهرب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل فسوة الموقف  
فأصيب بفالج وطلب بعض المساء ليشرب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً  
على الأرض<sup>(٤)</sup> .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهي الموقعة الفاصلة بين الماليك  
والعثمانيين والتي حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية ذلك أن ملول  
الجيش المالكي أمرهت إلى حلب ومنها إلى دمشق فصر دوم في أحسن حال ،  
فوصلوا القاهرة في أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

(١) ابن زبيل ، آخرة الماليك س ٢٨ .

(٢) ويفهم من كلام المؤرخ ابن لياس ( ج ٥ ص ٧٦ ) أن خاير بك لم يكن وحده في  
جريمة الخيانة ، ولما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيانه كانوا موالين عليه ... وكانوا  
مع ابن عثمان في الباطن وكانوا به بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة . ويشهد  
هذا على مدى انحلال الماليك في أواخر أيامهم .

(٣) ابن زبيل آخرة الماليك س ٣٠ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ ( نصر محمد مصطفى ) .  
( ويرى ابن لياس أنه لم يشر على أثر لجثة السلطان الغورى فيما بعد في فكاد  
الأرض ) انتهت وابتمته في الحال ، في حين روى ابن زبيل ( ص ٣١ ) أن بعض أمراء  
الماليك قطنوا رأس الغورى ورموا بها في حب حتى لا يعرف سلام جثته ( فيمبث بها .  
١٣ ) - العصر المالكي (

الهزيمة بعد أن رأوا بأعينهم فلول المماليك وقد عادوا في حالة سيئة من الكسرة والهزيمة ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، فقام العزاء والهراخ ... ورجت القاهرة في ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقييل ... ، ولم تسكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأمر مع الأمراء في مصر باختيار طومان باي - نائب السلطنة - سلطاناً خلفاً للغوري فتمنع طومان باي في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء ما عندنا سلطان إلا أنت طوهاً أو كرهاً (١) . ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، مما جعل كبار الأمراء يزهدون فيه . هذا إلى أن طومان باي - وهو أحد أمراء المماليك - كان يعرف ما اعتري أخلاف المماليك في ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يقدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله (٢) .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر ، فاشتد الطلح وأخذ كثيرون يفسكرون في الهروب إلى الصعيد ، في الوقت الذي كان الناس دجرحهم طرى بسبب موت السلطان ( الغوري ) وكسرة المسكر ( مرج دابق ) .

وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جمود المماليك الموقف ، فاشتروا على طومان باي للخروج والحرب مصاريف باهظة ، في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فملا غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب ، وهكذا أخذ طومانباي يستحث العوام من الذعر والصبيان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

والشطار ، حيناً ؛ ويتوسل إلى المماليك أحياناً ويقول لهم : اخرجوا وقاتلوا  
عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ؛ فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار ،  
وأنا واحد منكم ؛ إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ؛  
وما عندي نفقة أنفقها عليكم<sup>(١)</sup> . ١١١ .

ولم يتحرك المماليك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا في ديسمبر  
سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالي - وهو الأمير الخائن  
شريك خاير بك . وقد رأى جان بردى الغزالي أن يسببك دوره في الخيانة ،  
فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غزة عرج عنها وأوجه شمالاً حيث تظاهر  
باشتبك مع العثمانيين في معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهمم فيها<sup>(٢)</sup> .

وفي أوائل سنة ١٥١٧ تسلّم طومان باي رسالة من السلطان سليم العثماني  
بعيره فيها بأصله المماليكي ، ويقول له : « إنك مملوك تباع وتشتري ولا تصح  
لك ولاية ملك » . ويطلب منه أن يكون نائباً عنه في مصر ، ويهدده إذا رفض  
ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك « أشق بطون الخوامل  
وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك<sup>(٣)</sup> » . وفي الوقت الذي أرسل السلطان  
سليم رساله وسفراءه لمطالبة طومانباي بالدخول في طاعته ، دأب خاير بك  
الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال السكتب إلى أمراء مصر  
« يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب في محاسنه وهدله في الرعية<sup>(٤)</sup> » .

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ - ١٢١ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٤٥ - ٤٦ .

محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك ص ٢٢٦ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

ويروي ابن زنبيل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن في نيته أن يغزو مصر  
وأنه بعد أن استولى على حلب والشام فسكّر في العودة إلى بلاده لولا خاير بك الذي حرّضه على -

وقد أحس السلطان طومان باى بخرج موقفه وعظم الخطر الذى يهدده ويهدد مصر ، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثمانى د بكى وحصل له غاية الرعب ، ومع ذلك فقد صمم طومان باى على الخروج لدفع العثمانيين ، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تناذلوا ورفضوا الخروج ، بل تطاولوا على السلطان طومان باى وقالوا له : إن رحمت لعنة الله عليك ؛ غيرك يحيى يعمل سلطاناً (١) ، وعندئذ لم يسع طومان باى سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية فى أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك ، فلاحق بهم طومانباى وأظهر د همة عالية ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم ، واستمر طومانباى يقاوم فى شجاعة نادرة ؛ حتى أتى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر ، فاضطر إلى الفرار (٢) . والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جان بردى كان متصلًا بشريكه الخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء خطة المماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنّب العثمانيين تحصينات الريدانية ؛ بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين (٣) .

ومن الواضح أن هزيمة المماليك فى الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

---

١ - فر و مصر ، وقال له : « نركب لى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جلة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بمائة ألفاً »

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤ ،

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦ (نصر محمد مصطفى) .

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة في اليوم التالي لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلقى مقاومة؛ وفي ذلك اليوم بالذات دعى في خطبة الجمعة في مساجد القاهرة للسلطان ، الملك المظفر سليم شاه ، وكان طبيعياً أن يمدد العثمانيون السيف في كل من صادفوه من الممالك في شوارع مصر ؛ كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة ، وناقصت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قاش وسلاح وخيول وبقال وجوار وهبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... (١) . أما طومانباي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم في معركة الصليبية ، ولكنه هزم وفر إلى البهنا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ؛ (٢) فأرسل يعرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويحمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويحمل له خراج البلاد ؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا تبق في الجزيرة ؛ (٣)

وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباي إلى الجزيرة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ؛ ثم التقى الفريقان في معركة عنيفة عند وردان في أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولكنها انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم يأس طومانباي من المقاومة واستمر في ذلك الدور ينزل أفدح الحصائر بالعثمانيين ، الأمر الذي أفاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذي حرضه على فتح مصر ، وقال له : أنت أفررتني وطمعتني في أخذ

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ - ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، ولا الهيا  
برأسك ١١ ، (١) .

أما طومان باي فقد تعرض في ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب تفرق رجاله  
وانقضاءهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأهراب الذين دأبوا على مهاجمته مما  
أوقفه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة ،  
لجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي  
العظيم ١١ اعدوا يا أغوات أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد مالت ، وما بقي لنا  
في هذه الديار نصيب ١١ ، ولم يجد طومان باي مخرجاً سوى أن يهتدى  
في مدينة سخا بالشيخ حسن بن مرعي - أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين  
طومان باي صداقة قديمة - ولكنه الشيخ خائنه ، وأرسل إلى سليم وسلمه  
إليه (٢) . وما كاد السلطان سليم يتمحقق من خبر القبض على طومان باي حتى  
فرح فرحاً شديداً وقال : الآن ملكنا ملك مصر ١ ، (٣) . وكان أن أحضر  
طومان باي مقيداً بالجديد في حضرة السلطان سليم الذي أخذ يوبخه ويقرعه  
على مقاومته وأعماله ، ولكنه طومان باي لم يفقد رباطة جأشه ووقف أمام  
سليم ليدافع في شجاعة عن سلوكه ويعلن في صراحة أنه لم يفعل إلا ما عليه عليه  
واجبه وشرفه ، وما يؤثر عن طومان باي في ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم  
العثماني : الآنفس التي تربعت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد  
يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس في مسرك من يقايسني  
في حومة الميدان ١١ ، ويذكر ابن رياس أن السلطان سليم أعجب فعلاً بشجاعة  
غريمه فأشار إلى طومان باي وقال : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، وأوشك

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٢٢ - ١٣١ .

(٣) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٣٢ .

أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية ،  
لولا تهريب الخائنين خاير بك وجانبردى للسلطان سليم ، مما جعله يأمر  
بإعدام طومانباي (١) .

وقد تلقى آخر سلاطين المماليك القرار بإعدامه في أسر وثبات ، فحمل  
إلى باب زويلة في اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول  
الطريق ، حتى أرخى له المشاعلي جبل المنقعة ، وعندئذ طلب طومانباي  
من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ  
الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع ، ثم التفت إلى المشاعلي وقال له : حمل  
شغلك ، فوضع الحبل في رقبتك ، وما هي إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين  
المماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة المماليك لتظل مصر  
والهام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية (٢) .

---

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥ .

ابن زبل : آخرة المماليك ص ١٣٦ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٦ .

## الفصل السابع

### بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

اضداد نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بني أيوب لم يرضوا مما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بني أيوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيبك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الصالحية (١) .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزمامة هولاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأمرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر : حتى تم الصلح بين الطرفين في أبريل سنة ١٢٥٣ ، وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين (٢) .

(١) القرظي : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٤

أبو القدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) القرظي : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .



وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بنى أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسي إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعز أيك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المنيف عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المنيف عمر سنتي ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمات التي ألمت بالوطن العربي في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون نخادلا واضحا ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاء كويطلب منة مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطار التتار على مملكاته في بلاد الشام ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاء كوي في امتلاك حاب ودمشق ، وزحف التتار جنوبا في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأي حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .

المريزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يترصون لها . فإذا فشل الحاكم أو فعلت الحكومة في تحقيق ذلك الفرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلا داعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشحتها الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يمد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاء ، بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكن تسقط في أيدي التتار حتى أسرح الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدّم فروض الطاعة لهؤلاء ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حماه وشأنها (١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر وترك دمشق خالية (٢) . ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فعاذنه هولاء كروعه بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعاً لهم ووثق معهم في ذلك وهو ان إلى أن قتل (٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاء كوالده على الصببية وبانياس . ولم يجعل الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم نصار معهم وأعلن الفسق

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢

أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٣

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلكه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطلق الأحداث يحتم أن تدول دولة بني أيوب ليرثهم في ملكهم إما التتار وإما المماليك ، حسبما تقرره المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، وإذا بالمماليك يظهرون على المسرح لينزلوا بالتتار ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المماليك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فعل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح المماليك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين المماليك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه فورة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش المماليك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن تفرد المماليك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناج السلطان المظفر قطز الأمير سنجر الحلبي في دمشق ، وإذا كان المظفر قطز قد أقر بعض ملوك بني أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠

2) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587 .

صاحب حماه - فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر (١) . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المنيفي عمر صاحب الكرك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من أوابه من أسلم الشوبك من الملك المنيفي . كما قبض على الملك المنيفي نفسه سنة ١٢٥٣ واحتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه قائما للكرك (٢) .

وإذا كان المماليك قد ظهروا في صورة وردنة الأيوبيين في حكم مصر والشام ؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العريض لحسب ، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكف بمضى على قيام دولة المماليك نحو ما من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي (٣) . ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨

(١) القرظي السلوك ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) الرجم السابق ص ٤٤٧

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٧ ورقة ١١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٣٧ ، ١٤٨ .

ثم على العقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية  
- كبرى المدن الصليبية في شمال الشام - في مايو سنة ١٢٦٨ (١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين  
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ،  
وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العربي ببلاد الشام سوى عكا وصيدا  
وصور وعذلبت ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا  
سنة ١٢٩١ ، ولم تنكسر تلتها تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية  
بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد (٢) .

وبتطهير بلاد الشام عن التتار والصليبيين جميعاً ، استقرت الأمور نسبياً  
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها  
يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن  
أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة  
المماليك من ناحية أخرى .

### التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛  
تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النيابات فهي نيابة دمشق ونيابة  
حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك ، ويبدو أن  
هذا التقسيم في حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام  
الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التي نراها في بلاد الشام على عصر  
سلاطين المماليك ، إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في

(١) صهيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤

(٢) أبو العدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ

المصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب<sup>(١)</sup> على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ، وذلك مثل نيابة الكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وئمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام انصفت - بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة أما حماه - فكان سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعهد السلطان قطر عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها<sup>(٢)</sup> ، وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة الكرك فبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩<sup>(٣)</sup> .

Demombynes : La Syrie a l'epoque des Mamelouks, (١)

p. 106.

(٢) المرزبي : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المرزبي : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ٢٢٩

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانئ أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم «النيابات الصغار»<sup>(١)</sup>. ولكي تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . ، وهي كبرى نيابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندي اسم « نيابة الشام » ، أو «مملكة الشام» ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة »<sup>(٢)</sup> . وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ودهوس أبراجها التي كان التتار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضي الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بتزخيم الحائط الشمالي وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأبلق الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من العمار<sup>(٣)</sup>.

وكان يتولى أمر مدينة دمشق والى ينظر في شؤون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، في حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذي يعرف بانتم البر - والى آخر<sup>(٤)</sup>. وكان يقع نيابة دمشق بقعدة نيابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخند وحمولون وبعديك وحمص ومصيف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩٠

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاکر السكيتي : فوات الوفيات ج ١ ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر<sup>(١)</sup>، وأما ولايات نيابة دمشق فعديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غربى الفرات في مواجهة البيرة ، ونيابات السكخنة وكركر وبيسفي وسميساط وعينتاب ودريساك والرأودان وبيراس والتصير والشفر وبيكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية وديركي ودرنده والأبلستين وإياس وطرسوس وأذنة وغيرها<sup>(٢)</sup> .

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها برحلب وكفرطاب وعزاز وتل باشير ومنبج وتيزين والهاب وبزاعا وأنطاكية<sup>(٣)</sup> .

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطانس ونيابة صهبون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن سبع نيابات صغرى أخرى أسماها القلقشندي نيابات قلاع

(1) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعين ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .



الدعوة ، أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوازيق ونيابة القدهوس ونيابة الكهف ، ونيابة المنبقة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هى : أنظرطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبة وأنفة (١) .

رابعا : نيابة حماه ، ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نياباتها صفرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هى : ولاية برحماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة (٢) .

خامسا : نيابة صغد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحواً من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد بيبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صفرى - مثل نيابة حماه - وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصغد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبينين وهونين وولاية حثلين وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين (٣) .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صفرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان (٤) .

(١) القلقشندي : صبح الأعمى ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعمى ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض صريح لنيابات الشام في عصر المماليك أما عن أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلا منها كانت صورة مصغرة لسلطنة المماليك الكبرى في مصر . حتى لقد أطلق الفقهى على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاعفة للمملكة المستقلة » .

والفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في حقيقة أمره « سلطانا مختصرا » ، مع تهميته لسلطان مصر ، فكان لكل نائب حاشيته وماليك وأتباعه ، وأطلق عليه أحيانا اسم « ملك الأسماء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأسماء على خدمته كخدمة السلطان (١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشرايف خانان ، والفراش خانان ، والزرد خانان ، والطلب خانان ، وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جاندان... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، هذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبق له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولى منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر للنظار » (٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، متساو الحال تماما في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلا عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) الفقهى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب الفلم، والتعميم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام . فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش وقد اختلفت ديوان الإنشاء بجميع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . وأقرب صاحب ديوان الإنشاء ؛ كاتب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات الشامية كان يقوم أيضا بمهمة التعميم على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب هذه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش . فكان يعرف على جيش النيابة وتوزيع الاقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك . ومن الثابت أن أراضي الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣ ، وهذا ما يسمى بالروك الفاصري ببلاد الشام ، نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن عدد الجهاد ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي :-

أجناد الحلقة بدمشق ومالك الكافل والأسراء	١٥٠٠٠
أجناد الحلقة بحلب ومالك الكافل والأسراء	٨٠٠٠
أجناد الحلقة بطرابلس ومالك الكافل والأسراء	٥٠٠٠
أجناد الحلقة بصنف ومالك الكافل والأسراء	٢٠٠٠
أجناد الحلقة بحماه ومالك الكافل والأسراء	١٠٠٠

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت لتغيير والتبديل في عصر المماليك ، وكذلك عدد الاقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ - ١٠٦ .  
ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنبابة السكرك .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك فإننا نجد أن نوكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه «قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويكتب عنه التواقيع الكريمة، ويكتب عنه المراسم بتعيين إقطاعات الجند، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيضمها الخط السلطاني الشريف» (١).

ومن الواضح أن تلك المسكنة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه، كما حدث في بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام طامة وفي دمشق خاصة، فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل في شئونهم لاشعارهم بوجوده. وهذا إلى أن السلطان لم يكتب بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب، وإنما كان السلطان أيضا يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الأقليم عينا له على النائب، ويقاومه إذا حدثت نفسه بالخروج على السلطان (٢). ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة (٣).

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة؛ وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقا التصرف في كثير من النواحي. من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤.

(2) Demombynes: op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥.

العمرى: التعريف ص ١٤٨.

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية؛ فكان  
النواب يعيرون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها، في حين  
كان التعيين في الوظائف من إمرة طبلخانا فما فوقها من حق السلطان. أما  
وظائف أرباب آتقلم فكان النواب لا يميّنون إلا صغار الموظفين مثل كتاب  
الدراج، في حين كان السلطان يميّن كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر  
ونظر الجيش ونظر المال وغيرها. كذلك في الوظائف اليدوية كان من حق  
السلطان وحده أن يميّن كبار الموظفين مثل قضاة القضاة، في حين ترك للنواب  
تعيين صغار الموظفين، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر  
والشام وتشرف إشرافاً تاماً على سير الأمور في مختلف أرجاء الدو  
المماليكية الواسعة.

### المجتمع الخاص في عصر المماليك:

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث  
أنهم مغلوبون على أمرهم، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم  
وبالوظائف وحرمتهم من المشاركة، كما كانت قيمة في أمر من أمور بلادهم.  
وهكذا كان المماليك في بلادهم الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات  
النفوذ والسلطان، في حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر  
الواقع، ورضوا بما فعله المماليك بهم.

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليين إلى حضر وبدو، فالحضر هم أهالي  
المدن والقرى الشامية، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦-٧.

وزراعة . وكان كل ما يهدمون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يجرهم حقوتهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي نهض به الخضر من أهل الشام تطلب نوعا من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم يجهنون إلى مسألة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التي اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ،

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أغواؤها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا - بحكم موقع منازلهم - إلى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التي تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما أسماه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي داب على مناصرة التتار حينما والمماليك أحيانا حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذرها بآل فضل وطردهم ليحل محالهم إخوتهم من آل علي ، ؛ ولكن الناصر محمد طاد نفعا عن آل فضل وردهم إلى بلادهم واقطاعاتهم<sup>(٢)</sup> .

وبلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحيانا إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطا بعمور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران

(١) تقي الدين : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل علي في المريج والغوطة حول دمشق؛ وغيرهم كثيرين (١)، وقد حاول  
سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الإقطاعي،  
فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأنظموهم الإقطاعيات، وفرضوا  
عليهم التزامات مهيمنة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية  
وتقديم الرجال وقت الحرب. ولما كان عشائر البدو أنفتت الخضوع لذلك  
النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدتها كثيراً من حريتها فأخذت ما في  
النظام من مميزات، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات.

وبالإضافة إلى العصبية النصرانية التي وجدت ببلاد الشام على عصر  
سلاطين المماليك - مثل الأكراد والتركمان والأرمن - فإنه وجدت  
ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير  
في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام. ونستطيع أن نلخص أهم هذه العوائق  
أو العصبية فيما يلي:

أولاً: الكسروانيون: وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكاوا من  
النصرانية والعلويين والمتأولة (٢). ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن  
الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك، وبخاصة أثناء الصراع بين  
هؤلاء الأخيرين والصلبيين بالشام. من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان  
المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩، إذ خف الكسروانيون لنعجة  
بوهيموند السابع أمير طرابلس. وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون، فزحف  
المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم (٣).

(١) القلقشندي: صيغ الأعيان ج ٤ ص ٢٠٨ - ٢١٠.

(٢) Lammens ; La Syrie, 2, p. 18.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام ج ٢ ص ١٢٦.

وعند ما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كمروان وحاولوا استنارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا ، ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالمسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم (١) وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كمروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع ، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح وغادوا الأمان . وكان أن فرض عليهم أقوش (أفش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تعهدوا بالطاعة (٢) .

ونمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التنوخيين علونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتنوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التنوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٥) ، فهاجم الكسروانيين وخرّب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأسر ستائة رجل ، وغنمت المساكن منهم ما لا عظاماً ... (٣) . وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥ .



الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ،  
الذي تذكر عنه المراجع مبالغته في التكميل بالكسروانيين وقتلهم<sup>(١)</sup> ، ويبدو  
أن حملات الأمير أفوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم  
والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيروي المقرئ أن السلطان الناصر محمد أقطع  
« جبال كسروان بعد فتحها ، لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها فزرعها  
لهم الجبلية ورفعت أيدي الرافضة عنها »<sup>(٢)</sup>.

ثانياً : التنوخيون ، وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا في جهات  
متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً وللسلميين  
أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين  
وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحريين  
الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب تقلبهم ، فاعتقل  
بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحيهم حتى ينتهي من حروبه ،  
حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحيهم . ومع  
ذلك فقد ظل بيبرس يتشكك في ولاء البحريين ، حتى أرسل ضدهم حملة  
قوية اجتاحت بلادهم وعاقتهم في عنف<sup>(٣)</sup> . وبعد بيبرس لجأ السلطان  
قلاون إلى اضطهاد البحريين عاقبة عنسادم فعادوا إلى الولاء لدولة  
المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة لإقطاعاتهم وهدت إليهم بحراسة  
بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف  
خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢ - ٢٣

أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تتار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) .  
وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون وصر كرم قرب بيروت  
وكانوا مواليين لدولة المماليك ؛ واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي  
جعلهم يظفرون برضا سلاطين المماليك (٢) .

ثالثاً : بنو مهن أو المهنون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين  
ندبهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبلوا في ذلك  
بلاء حسناً ؛ كوشوا عليه بمنهجهم (قليم الشوف ، وقد حالقوا أقرباهم التنوخيين  
في الغرب والشهابيين في وادي التيم (٣) .

رابعاً : الشهابيون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٣  
واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على  
بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون  
بني مهن وأصهروا إليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجهات  
الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين  
الدروز حول الزعامة على لبنان (٤) . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب  
شدو ذم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادساً : النهيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي  
من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم (٥) .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .

(٢) الهداياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynès : op. cit., p. 227.

سما بماً. الإسماعيلية؛ وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع  
هديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحواش والمنيفة  
والرصافة. وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على  
عصر الحروب الصليبية<sup>(١)</sup>؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات  
الإسلامية والصليبية سواء. ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شدوهم  
المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقفهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية  
أخرى. لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي  
أهتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية، وذلك لإفساداً لتواقيس  
الإسماعيلية وتمجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية<sup>(٢)</sup>. ثم إن السلطان الظاهر  
بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها يضعف  
في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين، وبخاصة الاستتارية في حصن  
الأكراد. لذلك انتهر السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاستتارية سنة  
١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية  
الباطنية. ويروي المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر  
بيبرس سنة ١٢٦٧ ومهمهم جملة من الذهب وقالوا: «هذا المال الذي كنا نحمله  
قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين<sup>(٣)</sup>».

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي  
كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشهراني  
مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه  
إنقاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال. وفي ذلك الوقت كانت  
العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سميح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) الدين: عند الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩.

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛  
وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين القمغاني . وكان أن توجه  
صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام -  
حيث أخذ يباشر مهام منصبه<sup>(١)</sup> .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية  
ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية  
أن تكون مصياف وبلادها للسلطان ؛ وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن  
السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون  
الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا  
( ١٢٧٠ - ١٢٧٢ ) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان  
بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات في مصر ليمشوا فيها<sup>(٢)</sup> .

### تورات الشام في عصر المماليك :

لم تكن الشام في عصر المماليك جزء إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت  
أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتعذر  
على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والنبات في وجه الأخطار الأسيوية  
الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصلبيين ،  
وأحيانا من جانب الأرمين والتركانيين ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك  
منذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط  
بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) - سعيد هاشور ؛ الظاهر بيبرس ؛ ص ٨٢ .

(٢) - المرزى ؛ السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كيانهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك الأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلسه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطاق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين بقمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب السلطنة للمماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب ، سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار (١) .

(١) المقري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث في ذلك الدور - وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار - أن انقسم للمماليك في مصر على أنفسهم ، فنجأ السلطان إيبك إلى قتل أنطاي وعم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيرس وفلاون وسفقر وبيسرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية في الشام ثلاث سنوات ( ١٢٥٤ - ١٢٥٧ ) يسيرون المتعاقب لسلطنة المماليك في مصر ؛ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جديدة على الشام ومصر ؛ وعندئذ دخل البحرية في طاعة السلطان قنق ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد (١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين لحسب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ناز في وجهه بيرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة (٢) . ولكن الظاهر بيرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن عرض أمراء الشام فأنفضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ناز الأمير شمس الدين أقوش البرلي ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أحمد حوكتته (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور التأميري لدوائه كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب يشكون خطراً على سلطان دولة المماليك. من ذلك أن الملك المنيف عمر الأيوبي صاحب الكرك استعان بمجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على القوالب وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك. ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المنيف عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بوثمة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١) ،

ولما اعتلى المنصور قلاوون دامت السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ، بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي . وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاوون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس - وهو أبقان هولوكو - وحرصه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢) . ولم تنته المتاعب التي واجها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاختيال السلطان (٣) . ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم دعامها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليأمنوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤) .

(١) ابن شاكر السكيتي : عيون التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ١٧٠ أ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب .

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان فلاون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن فلاون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور فلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتبنا الذي اغتصب السلطنة سنة ١٣٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو العادلي . ولم يكفد السلطان كتبنا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبنا إلى دمشق (١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبجق نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن فلاون إلى الهكرك ليأمن خطره (٢) . غير أن السلطان لاجين أوفر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قفجق بالشام ( قفجق ) ثم رحل قفجق إلى بلاد التار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروجه إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الهكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . فظهر أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بيمين الولاء

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥

المرزبي : السلوك ج ١ ص ٨١٩ - ٨٢٢ .

(٢) الذويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلاون في مصر ص ٤٠ .



ليبرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولايتهم له .

وزاد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن يبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام بذكورهم بأنهم مالك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء (١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك المماليك الأشرفية لاتباعهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن المماليك الأشرفية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فانفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أفرش الأفرم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجايتو ليملحوا التتار في فارس (٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكز الحسامي الناصري نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاء جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه ولم يلبث أن ازداد نفوذ تنكز في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) - مصر المماليك

أبو الحسن أن تذكر طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور (١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تذكر فحقد عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير الطنبغا الصالحى (٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الرمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبي في أوضاع الدولة الداخلية، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والفتن في مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤)، أن أخرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكامل نائب دمشق الذي اضطر إلى الهرب إلى غزة فاستولى عليها أرس نائب حلب على دمشق، حتى فتح السلطان في القضاء على الفتنة (٣).

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمي نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام، فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة (٤).

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه (٥).

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) أبو الحسن: التجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧.

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧.

(٤) ابن ذباب: بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاق).

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤.

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحاً للكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطة ، ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، لسمع كيف ثار الأمير طهشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق للبلغاوية لبعثاده إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧ ، وفي النزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطهشتمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طهشتمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجهل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة ، إذ سار أطنينا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار<sup>(١)</sup> . ويفهم من المراجع أن الأمير يلغا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فحرص على الاحتفاظ بصداقة سولي بن دلفادر التركاني - وهو أحد أعداء دولة البرجية - مما جعل برقوق يعزل يلغا نائب حلب سنة ١٣٨٥<sup>(٢)</sup> . غير أن برقوق لم يكفد يفرغ من أمر يلغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦<sup>(٣)</sup> . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلغا الناصري إلى نيابة حلب ليتخذة أداة في محاربة منطاش . على أن يلغا الناصري لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته<sup>(٤)</sup> .

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجب : لنباه الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المرزبي : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ :

(٤) الميني : عقد الجمان ج ٣٤ ق ٧ ورقة ٢٢٨ .

ولم يلبث الأمير بلبغا الناصري أن أعلن ثورته علنا على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرا بلس وقتلوا من فيها من أمراء مواليين لبرقوق (١) . وهكذا لم تكن تذهب سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيجاء عدا دمشق وبهلبك والسركك - قد دخلت في طاعة بلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة بلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن بلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها (٢) .

وهكذا عدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما بلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما دحرف إلى غزوة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ، فنفى إلى السركك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين بلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من السركك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشيبغا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فوحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد هرشه (١) . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لهزاع سرير بين بلبنغا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادية (٢) .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تم نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب صندو طرابلس وسماه وحلب (٣) . وقد استطاع السلطان لإخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدثت بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤) . والمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناعات وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بمحضارة الشام ضرراً بليغاً .

واستمرت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب السكة باسمه ولم يكذب قتل جكم بعد

(١) أبو المعاسن في النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ص ١ ص ٣١٩ - ٣٢٤ (بولاق)

(٤) ابن عربشاه : عجائب القصور في أخبار بيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفنا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حملت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائبا لنيابة دمشق في عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هم اللاحين وشيخ — أن يصلوا إلى السلطنة ، وتمكن اثنان من الهرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفر السلاطين ، وبجئ خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا في دمشق فقط وهي لأحدى نيابات الشام ١

### أثر نيابات الشام في أهوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين في مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تدمير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولأدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال ، « الآن تم لي الملك ا ، (٣) »

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet' les mosques du caire p.56.

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه  
دست السلطنة ، على أن يرسل خبير سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب  
الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع  
بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين  
لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعهم قيام  
خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة  
١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتصبا منهم القفو  
متلفظا إليهم بأنواع الخضوع (١) . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا  
إلى مصر ليمملوا على خلعهم ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث  
حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن  
بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار وسألهم أن يكون الشام بكاله  
لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه (٢) .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام  
فهو كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، الذي استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير  
أيبك الحموي نائب دمشق وعين بدلة مملوك أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم  
يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت  
بذلك عادة السلاطين في مصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام  
عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس النواهار : زبدة السكرية ، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط) .

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكانوا الناصر محمد في السكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه (١) وكان أن خرج الناصر محمد من السكرك إلى دمشق - كما سبق أن ذكرنا - ونظر حيث عساكر دمشق إلى طاعته وملكه ، وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢) .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ ولقد تسلطن بعده أخوه أحمد (٣)

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساعدة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يفرج بها الدارس لتاريخ عصر سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك - في مصر والشام - كانوا غالبا ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ، وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان المروية في الشرق الأدنى في ذلك العصر .

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٦ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البهجة ج ٤ ص ٥٦ - ٥٨ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .



## الفصل الثامن

### العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، في حين نظرت إليها القوى الأخرى - خارج المحيطين العربي والإسلامي - نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ؛ فحمس الشام ومصر من خطر التتار ، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام بل لاحقهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن نجاح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها .

وهكذا خدمت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبله الأصدقاء والأعداء جميعا ؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء ييغون ملاحقتها ومسامحتها ، أو مهددتها أنقاء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فيضة وأخرى ، ييغون عقداً اتفاقية تجارية أو الغاء مكس أو تخفيف ضريبة ؛ وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نباغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر الماليك خذا بمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر ، ولا أقل من تنبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة الماليك في مصر والشام من ناحية وأم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى (١) .

### الماليك ومغول القفجاق :

عندما قدم جنكيز خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيز خان ، فأقام هناك دولة هرفك باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتهم ، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة الماليك من ناحية ؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة الماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين الماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكذب يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه ، يفريه بمقتال هولاءكو ويرغبه في ذلك (٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة الماليك سوى علاقات حرية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقيس ورووس وغيرها ، وقد سبق الكلام على كل من دولة الماليك وتلك الدول من علاقات ينسب إليها الطابع الحرى .

(٢) القرظي : السلوك ١٣ ص ٤٦٥ .

الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولاكو  
ففرروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم  
هولاكو (١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة  
للسلطان بيبرس جاء فيها : فليعلم السلطان أني حاربت ( هولاكو ) الذي مني  
لحي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تمصبا لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر  
بالله ورسوله ... (٢) ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة  
جمع فيها من الترفيب والامتناع والإغراء على هولاكو وإظهار الميل  
إليه ... (٣) ، ولم يكتب بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالعداء لبركة خان  
بعد العداء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل  
سحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جهلها فيل وزرافة ، ويقال إن  
رسل بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة في بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم  
إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصاً ،  
وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس (٤) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩

القرينى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ - ١٩٨ .

(٢) السبكي : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل . مفرج السكروب ج ٢ ص ٤٢٢ ( مخطوط ) .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك  
القفجاق ( انظر مثلا جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦ ) ، وأخذوا  
هذا الرأي عن : Lane - Poole : op-Cit. p266

ولسكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئا ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى  
ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصلة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع  
فيه ابن بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى  
زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوندالكبرى في حريم بيبرس وأم  
ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولسكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنتا بخاطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلوات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبوأت السفارات والكتب بين بيبرس ومنسكوتغر - خليفة بركة خان - بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزيهيمهم أبا (١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداده لمشاركته في محاربة غازان ابنخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أولجايتو رضى بالصلح (٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدهم الصلوات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أربك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أربك خان ليطلب الزواج من « بعض الجميلات الجنسكية » أي أميرة من بيت جنكيز خان ، وذلك توثيقاً لصلوات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أربك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتظروا في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط (٣) ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتاً عن ذلك المشروع حتى عاد

= القفجاق ، ولا يمدد الأمر مجرد تهابه في الاسم أوجد ذلك الخطأ ( المبريزي : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ - ٦٤٤ ) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المبريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٩٧ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٢٠ ورقة ١٣٧ .

المبريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أرسل خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال : قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعيقت له ابنة من البيت الجنكز خاني ، وفي سنة ١٣٢٥ وصلت الأميرة التتيرية واسمها دلغينية - ويقال طولونية - إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام (١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى مما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجاني بك ابن أزبك ، وأن جاني بك كان يخطب في رسائل المماليك بمبارات التثنية والتقدير والمبالغة في الاحترام (٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانبة مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاحها مع مغول القفجاق .

### الطوائف والديون الإسلامية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشؤونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بهجرة الحرم النبوي وإرسال

(١) المقريزي : الملوك ٢٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعيان ج ٧ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

السكرية إلى الحجاز (١)؛ وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ المالك السياسي على الحجاز. ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين (٢).

والواقع إن الخلائق بين أشراف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين المالك لتحقيق أغراضهم. ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦م أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شبيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جواز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جواز. وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل، فسكتب إلى جواز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس، وفامتثل جواز.

ثم حدث سنة ١٢٦٨م أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي حمى وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس. وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانته عليهما جميعاً، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة، بشرط ألا يجمعا من أحد مكوساً وألا يمنع أحد من زيارة البيت والأيتام والفقراء. وأهم من هذا كله، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخاطب باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز. وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام (٣).

(١) القرينى: السلوك ج ١ ص ٤٤٥.

(٢) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286-292.

(٣) القرينى: السلوك ج ١ ص ٥٦٠، ٥٧٩.

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن تفد بيبرس عنده سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانتهت تلك الفرصة ليهين أحد أمرائه - وهو الأمير شمس الدين مروان - نائياً عنه في مكة ليكون الحل والمقد على يديه<sup>(١)</sup> . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميرى المدينة حمزة ومالك رفضاً لمقابلة السلطان بيبرس « وفرأمنه » بما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم<sup>(٢)</sup> .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذى انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور<sup>(٣)</sup> .

أما في مكة فقد عانت الشكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الفيث محلهم في الحكم<sup>(٤)</sup> . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطانه المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أوجاتيو إيلخان

(١) العيني ، عقد الجواز ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ٩

التوحيدي . نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ - ٥٢ (مخطوط) .

(٢) المغربي . السلوك ج ١ ص ٥٨٠ - ٥٨٢

(٣) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨ .

(٤) أبو اللدا . المختصر ج ٤ ص ٧٣ .

المقول في فارس اطاب النجدة منه<sup>(١)</sup> . وهكذا ظلت مكة مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لإداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يفتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ، ونوزيع تقمقح والعلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام بالأراضي المقدسة<sup>(٢)</sup> .

أما بلاد اليمن فقد ارتبطت حكمها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تهمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ ، ١٢٦٦ (٥٦٦٦) ، ٥٦٦٩ ، ٥٦٧٤) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك الهدايا بأحسن منها<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام الخلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نواها من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفرانية . ولعل هذا هو السر في حرص ملوك بني رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

(١) الزويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المغربى : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٩٤١ .



في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لمالك اليمن ، فلي السلطان رخصتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا يتأله من ماضية مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . . (١) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (٢) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع أسلافه من ملوك اليمن في التردد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستنصر بالله يندرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر بما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (٣) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم

(١) يهيري الدواقر : زبدة النكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ ( مخطوط ) ؛

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المصيروري : الملوك ج ٢ ص ٢٤ - ٢٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أتاحت لسلطان المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون اليمن وادعاء هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طاب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب (١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلطان المماليك في مهنر ويحرصون على إرضائهم بما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بساطنة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي (١٣٢٥ — ١٣٥١) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومخالفة سلطنة المماليك في مهنر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من جهة أخرى (٢) . وطفا الغرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مهنر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع مما مكن الملك المجاهد صاحب اليمن من الاستيلاء على ما مهم من هدايا . ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١ يطالب مهواته ضد المغول (٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسمي لكسب تأييد لسلطان الناصر

(١) المرزبي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(٢) Lane — Poole : Med. India under Mohaumedan Rule , pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين مرزور : دولة بنى قلاون س ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجاب الخليفة المستكن بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تملق في الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تعويضا من الخليفة العباسي ، وأرسله الخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٦ (١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

### سلطنة المماليك والدول العربية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال أفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبنى حفص في تونس ( ١٢٢٨ - ١٥٧٣ ) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفريضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضعفوه في نفوسهم . ولم يلبس أن ظهر ذلك الشيء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحمصي الملقب بالمنتصر ( ١٢٤٩ - ١٢٧٦ ) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمام  
الرؤسدين»<sup>(١)</sup> . وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بعد الموحدين —  
إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

ولغير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإقدام على تلك  
الخطوة كان شريف مكة أبو نعي بن الحسن، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة  
الحفصيين على مكة<sup>(٢)</sup>، ولم تكن سفارة أبي نعي هي الوحيدة التي وصلت  
إلى تونس، وإنما أعقبتها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بني مرين  
والأخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصي لقب الخلافة مدة طويلة حتى  
قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ،  
عما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة الماليك في مصر وملوك الحفصيين  
في تونس . والواقع إن سلطنة الماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من  
شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمري من أن ملك تونس يحاطب  
بأمير المؤمنين في بلاده<sup>(٣)</sup> . كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب  
الحفصيين لقريش ، وقال إنهم لبسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم  
وشأن خلافتهم<sup>(٤)</sup> . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين  
وخلافتهم أن قال مانعه وفيها (٥٦٥٢) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء  
إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة وللقب بالمستنصر...<sup>(٥)</sup> .

(١) Van Berchem : Titres Califaux, p. 292.

(٢) القهوجي : المرسل في أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٧٨ .

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح العربي ص ١٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو المحاسن : التيجان الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيت الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوم فقط بلقب "أمير المسلمين" ، وهو لقب دون الأول في الرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة<sup>(١)</sup> . وليس في القلقشندي سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب "أمير المؤمنين" ، وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة خطأ النساخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا دفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكاية في الخلافة العباسية .

هل أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدده العالم الإسلامي عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان الظاهر بيبرس ، فأخذ يستعد بمهمة لدفع هادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من هاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر<sup>(٢)</sup> . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عرابان بركة المبادرة

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصي . هذا إلى أن يبصر أمر بهفر الأبار في الصحراء  
الغربية ليعتمد عليها جنوده في حاربهم لفجدة تونس (١).

على أن السلطان يبصر لم يكذب في استعداده حتى جاءت الأخبار يموت  
لويس التاسع في تونس ونشل حملته ، الأمر الذي جعل يبصر بوقف استعداداته  
الحربية لمساعدة تونس ويرسل البهاثر إلى سائر بلدان المسلمين إبتهاجا بالخلاص  
من ذلك الخطر (٢) . ومع ذلك فإن السلطان يبصر لم يفتنه أن يتخذ تلك الحملة  
الصليبية وسيلة للتفنيح على المستنصر الحفصي والخط من شأنه ويروي المقرزي  
أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان  
الظاهر يبصر ، ولكن يبصر استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس  
تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان  
يبصر من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمرء دون أن يحتفظ  
لنفسه بنصيب منها ، كارد على ملك الحفصيين مستقبعا بظاهرة بالمتكررات  
واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة  
الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروي المقرزي أن السلطان يبصر قال  
للمستنصر الحفصي : «ملاك لا يصلح أن يبل أمور المسلمين» (٣) .

• • •

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين في تونس ؛ أما عن  
علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامي - مثل بنو زيان في تلمسان وبنو مرين في  
فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك وبنو  
مرين في فاس ، في الوقت الذي ساءت العلاقات بين بنو زيان وبنو مرين .

(١) المقرزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٠

(٢) سعيد عاشور . الظاهر ببصر ص ١١٤

(٣) المقرزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠١

و الواقع إن الزينيين تطلخوا في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، وليكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى إلى نفوذ بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفوذ ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جليلة ، وبعد أن أقيمت السفارة من بني مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم (١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان - وهو عندئذ أبو حمزة موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعقب عليه ويؤذبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحمقيراً لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجاً ، كما رفض قبول الهدية (٢) . وعلى الرغم من أن أبا تاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ مصعباً عن حمزة نوابه ويوضح له أن سبب استيلاء أسلافه هو د ميلكم إلى خيرتا ، (يقصد بني مرين) (٣) ، فإن دعوته لم تجد ترحيباً من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن هل المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيداً ومهنئاً (٤) .

(١) النويري ، نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٥ (مخطوط)

(٢) ابن خلدون المعراج ٧ ص ٣٢٧

(٣) اللقيني صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٣٩٥ - ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين الممالك في مصر إلى بني مويين نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بإسبانيا<sup>(١)</sup> .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين الممالك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين الممالك على إرسال البعثات إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة الممالك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهدده من جهة المشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاء كما تم تيمورلنك . وأنهم كانوا يسارعون إلى تنهئة الممالك عقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم<sup>(٢)</sup> .

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين الممالك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأسماء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلمسون فيها العلم والرفق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أترأ عميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد أداء الحج

(١) العمري : التعريف من ١٦ - ٣٣

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٧٧

القلشندي : صبح الأعشى ج ٨ من ٧٩ - ٨٤ ، ج ١٠٣ ، ٧ من ٤٠٧ - ٤١١



كان فرصة طيبة لإصلاح نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر ، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لاتعااض التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة<sup>(١)</sup> ، كما ذكر في موضع آخر : إن تهار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعده الشقة وغلو أسعار بضائعهم<sup>(٢)</sup> . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك صارت مهلاً يسكن العلماء ومحط رحال الفضلاء ، كما وصفها السيوطي<sup>(٣)</sup> . لذلك قصدها في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر<sup>(٤)</sup> . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لاندأ بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجاباً بها ووصفه لما شاهده بين ريوها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) السيوطي . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة - ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ٤ ص ٢٢٧ .

### العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك بعد العقدة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام (١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى ينهوا ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولاشك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصربون بهم ويتعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالي والتكروري هو متساوولي الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس (٢) . وتجربنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكروري وفد بهـ ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكروري على رأسهم متساموسي (٣) . وقد أحاط

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلاشندى أن متسامي معناها السلطان وولي معناها ولي .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن صمة استمرت نظر  
المعاصرين ، وأقدم هذا إاجلية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون من بيتها حمل جليل من  
الذهب المعدق الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى  
أفراد حاشيته بالفلح والسيوف وغيرها ، كما أمدّه بالخيول والجمال والمؤونة  
ليتمكن من مواصلة سفره إلى الحجارة (١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة  
العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى  
انتهر فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الجحاز لأداء فريضة  
الحج ، ورأى أن يدعم ملكه وبكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة  
العباسي تقليداً بفريضة حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند  
وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطاناً وخليفة بأرض التكرور ،  
وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله (٢) » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر  
القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكاتم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم  
من سلطنة المماليك (٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في  
نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن  
الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان  
الإثشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » ، في حين أن الفريق الثانى كانوا  
يخاطبون بلقب « المقام العالى (٤) » .

(١) العمري : مسالك الأبحار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ .

(٢) محمد كتمت التليكني : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأخبار الناس ص ١٧ .

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) اللقائدي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الممالك في مصر وملوك السودان العربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى هناية دولة الممالك يتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان العربي بأخبار دولة الممالك من ناحية أخرى وما تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية هناية تامة بأحوال التسكروور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم<sup>(١)</sup> .

ولاشك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى انتهى فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لاهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية<sup>(٢)</sup> . كذلك يقال إن جامعة تنبكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسمعه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين<sup>(٣)</sup> .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التسكروور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما<sup>(٤)</sup> . وقد نبغ من التكاورة في مصر صبح بن عبد الله التسكرووري الملقب بالكوا تاتي الذي اشتهل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠<sup>(٥)</sup> .

(1) Demombynes : *Masalik Alabsar*, Intr ; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السقاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابنتي تجار التكاورة بمصر مدرسة المالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق (١)؛  
وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور،  
حتى أن المهيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يعيشوا لتلك المدرسة بالمال  
والنبرهات (٢). ولا يخفى علينا أن كثيراً من التكاورة في مصر كانوا على درجة  
شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الماليك،  
إذ يروى المقرئ أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس عمل للتكاورة  
خوان حضره كثير من أهل الخبر، (٣).

وأخيراً، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات  
بين دولة الماليك ودول السودان الغربي. وسنتكلم عن النعاط التجارية بين  
الجمانيين في مكان آخر من هذا الكتاب، ولذلك نكتفي بالإشارة هنا أن  
الأمر لم يقتصر في عصر الماليك على هيء التجارة التكاورة إلى مصر يحملون  
حاصلات السودان، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على  
بلاد الكانم والتكرور، الأمر الذي قوى الصلات بين دولة الماليك ودول  
السودان الغربي.

#### العلاقة بين سلطة الماليك والحبشة :

أما هن العلاقة بين سلطنة الماليك والحبشة فكانت من نوع آخر.  
ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيسة الكنييسة المرفسية بالإسكندرية؛  
ثم لأنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

---

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم المهيرين ابن رشيق هو الذي أشرف على بنائها قبل منتصف  
القرن السابع الهجري، وهو أيضاً أول من درس بها،  
(٢) المقرئ المواظ والاهتبار ج ٩ ص ٩٩٥ ؛  
(٣) المقرئ : التلوك ج ١ ص ١٩٤٩

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مهسر ومملوك النوبة المسيحية في مهسر الممالك ، أو بين سلطنة الممالك من ناحية والقوى الصليبية القوية في الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطاراتها من مهسر ، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين لإحداهما الحاكم مهسر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالبا تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه (١) . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مهسر ويستأذنه في رسامة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديني قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الممالك ، وحقن قدرا كبيرا من الاتصالات بين الدولتين . وبفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولما كان هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس وقد أحس ملك الحبشة بنصب سلطان مهسر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غبريال الثالث ليعتد إلى الحبشة د مطرانا رجلا جيدا طالما لا يجب ذهاب لافضة ، ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن لا يجب ذهاب لافضة ، بما يفهم منه أن بعض المطارنة

---

1) Coubeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, t. I, p. 179.







المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالفاً على المال؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشورسائله لسلطان مصر بمباراة الملق والرفي ، ومن ذلك قوله ،... وهذه الخاق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويملك الله عدوه ... (١) .

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، مادفع الحبشة إلى استحضار مطرانا سورياً من بلاد الشام (٢) .

غير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان ، فكتب ملك الحبشة يهباً صهيون ( صهيون ) إلى السلطان المنصور فلان يعتذر له ويسأله د إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين . كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له د وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضنام وما جبينام ، ولأجل ههبتنا في بطركية مصر ما خلينام عندنا أساقفة وطردينام (٣) .

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان فلان بعد ذلك ، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال في إحدى رسائله د ... اسمع يا سلطان مصر - نصرك الله - : إعطى البطريرك الدستوريهت لي أسقفا ، فنحن وم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم ... (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور فلان لرجاء ملك الحبشة فسمح بتعيين المطران المطلوب وسفروه إلى الحبشة .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط) .

(٢) Coulbeaux : op. cit., T. I., pp. 288—290.

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر : شريف الأيام والنصور ص ١٧٠ - ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(١٧ - العصر المملوكي)

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يرثبون أحياناً في العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ؛ ولهذا أصروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . وبدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسبياً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقفه على كتابته ... (١) . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن يتوفى ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة (٢) ، ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين المماليك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذي طفق بروح التعصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة المماليك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه مظهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبط به مرور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس ، والمعروف أن الأحباش كانت لهم جمالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقر لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبئات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣١٠ .

(٢) العمري : التصريف بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة بجبا صيون ( ١٢٨٤ - ١٢٩٣ ) لدى السلطان المنصور قلاوون ؛ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمة ، وسأل لإنقاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم بالأيمنعوا من دخول الهياكل ، (١) . كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم : سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمة ، وثيابي وهو زفاري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان . فمرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعواتكم . . . (٢) .

ويدور أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمررون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلب نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفاري أنه شاهد قافلة تضم نحواً من ثلثائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضي المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس (٣) .

والمتوازن في المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شمس دير الأحباش برطايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب لسلاطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بعطيتهم ولا يمنعهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تاريخ الأيام والعصور ، ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٣) Alvarez i Portugeuee Embassy, pp. 243-244 .

بالقدس (١).

والواقع إن وجود جمالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول. ولم تنب عن البابوية وأصحاب المشارع الصليبية في غرب أوروبا بفكرة الاستغادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر (٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين. وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرس من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فسخر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في فزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرس وأسرُوا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل (٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجميع مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (٤).

(١) ابن لياس: بدائم الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد طشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩.

(٣) المقرئى: الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤.

أبو الهاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٢٧ - ٦٤٠ (طبعة كاليفورنيا).

(٤) سعيد طشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

### العلاقة بين سلطنة المماليك ودول التركان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متخوفة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفيها أمثله الظروف الخاصة والعامه التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أتابك السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركان الذين عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركان أقاموا لأنفسهم دولا أودويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بني دلفادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، وليكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استقلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتمت تهديد الدول التركانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت الفلاقل والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضمف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار الخارجية التي هددها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بطغر التركان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بهملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شيخ ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى قونية ، وخرّب إبراهيم بلاد التركمان ثم هاد محملا بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير ، فقام عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خربت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك ويبدو أن قرايلوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحرير من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسباي يبادر بإرسال حملة خربت الزها - التابعة للشاه البيضاء - وأمره حاكمها هايل بن عثمان قرايلوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل امرأة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباي ما يعنيه قرايلوك من تلك الهدية ، إذ برز الخروف إلى السلطان والمرأة إلى أن السلطان وأمرأه كالنساء ، فحين تشهر الخلعة إلى أن برسباي تابع لقرايلوك . ولم يستطع السلطان برسباي أن يخفي غضبه فأمر بذيخ الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأجد المهرلين فرفض بها في حضرة السلطان وحطم المرأة ، ثم صرف رسل قرايلوك بعد أن أهانهم وقص أذنان خيولهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التي شنها برسباي ضد قرايلوك سنة ١٤٣٣ انتهت بصلح سريع تعهد فيه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ، إلا

(1) Wiet 1 op cit., pp. 546-547

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ .

أن قر ايلوك كان يبتك دائما بوعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهى فرصة استحكام الخلاف بين دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قر ايلوك وقلعه ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب زويلة وأمر بإقامة الزينات فى القاهرة إبتهاجا بالخلص من ألد خصومه (١) .

وفى سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى انصف همده بهدوء العلاقات مع التركمان فصار أمراء دغاغر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ فى النزاع بين أبناء عثمان قر ايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأدمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده (٢) . كذلك يروى السخاوى أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها (٣) . وفى العام التالى - أى سنة ١٤٥٢ - أرسل أوزون حسن - أمير الشاه البيضاء - مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن أنزع تلك المدينة من أخية جهانكوير المعادى لسلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح (٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التى سببتها دول التركان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم فى شئون الإمارات التركانية من ناحية وفى العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(1) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلفنادر، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال دفا أكثرت السلطان بذلك ، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال السليبي من أمير قرمان - وهو معمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك ، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة (١) .

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفنادر بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له في العاصمة أبلستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك ، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباي وانكسر كسر شديدا ، (٢) . ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار ، إذ مثبث بنفس المصير من الفضل والهنزية .

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والبحث بتحدوها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لحيوية دولة المماليك ، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير يغسبك اللوادار . وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسمه ليوفر

(١) ابن أبياس : صفحات لم تنفر من ٧٣ ، ٤٧ ( نشر محمد مصطفي ) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ ( نشر محمد مصطفي ) .



له إمكانيات النصر، مدفوض إليه السلطان أمور البلاد الهامة والحللية وغير ذلك من البلاد، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة... (١).

وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١.

ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقبدا في الأغلال، وذلك بعد أن هين بوداق أميراً على إمارة دلغادر بدلا من أخيه سوار.

ومع ذلك، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلغادر، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠ ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير النمانيين وتمريضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش النمائية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم جانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها.

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢ (٢). على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققتها المماليك على حسن الطويل، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع بسهولة، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عنادا. وقد حدث في الحروب التي شنها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسرى يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠. ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى).

(٢) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠، ٨٦ (نشر محمد مصطفى).

ذلك الخبر واضطربت أحواله وما جت القاهرة عن آخرها وكان يومها هولاء (١).  
وقد بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أركن ولكن  
دولة الغناء البيضاء بادرت بالاعتذار مما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين  
سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول التركان  
ودولة المماليك جميعا .

### المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون  
صفاء ، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها  
التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية . وهو أمر قابل  
بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في  
المشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين  
تهرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة  
الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨  
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من  
تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية (٢) . وإذا كان السلطان  
برقوق قد أكرم وقادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعداده للتضامن معه  
لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين  
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال دإني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن أبياس : بدافع الزهور ج ٣ ص ١٧٤ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) الخطيب : نزعة النفوس والأبدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ، (١) .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أثار بايزيد الأول العثماني على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بمهابة دولة المماليك . هذا وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد افتراءً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) . ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجهله حينئذ قوياً يساعد في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول إنه وضع تحت تصرفه مائة ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ؛ فضلاً عن أنه طالب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيباً حافظاً في صنعة الطب ، ليداريه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض في حذر ، فمكّر السلطان العثماني واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صفيح ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي لمعالجته (٣) .

وثمة مظاهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً فريهاً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل التاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

الخطيب : نزعة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذا حاول العدوان (١) وعن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير (٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين. وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة (٣). ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوأيا بنى عثمان؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بورد المماليك، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب مخالفة للسلطان فرج لإقامة جهة متحدة في وجه تيمورلنك؛ ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا مخالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يدكرونه بعدوانه على ملطية. وهكذا أتاحت الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على الأفراد فوحف على دولة المماليك وأزل الهزيمة بهيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢.

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك. وكان أن تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(٢) ابن آقاي شهاب، ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٢٣

ابن حجر : لبناء العمر ج ١ ص ٤١٤.

(٣) العيني : عقد الجن ج ٢٥ ورقة ٧٨.

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ انتهت السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين<sup>(١)</sup> . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأمر ملكها جانوس لوزجان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحياً أوروبياً هدية للسلطان برسباي<sup>(٢)</sup> .

وعند ما ارتقى جقمق دسك سلطنة المماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت لواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتبوءت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي هندقار سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فريذت الأسواق والحارات وأوقدت الدموع في الشوارع والمدافن ودقت البشائر السلطانية بالقلمة عدة أيام<sup>(٣)</sup> .

غير أنه لم يكف يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والميطرة على البلقان ، حتى هادوا يوجيون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مارالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها — وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلغادر — كانت مشمولة بالحماية المماليكية ؛ فأذرتطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة المماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والمماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتي المماليك والعثمانيين عند ما رحب السلطان قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يديرها للتخلص من منافسيه (١) .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد بمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ ، وساعده مجنود عثمانية في الإغارة على إيالة ملطية التابعة للمماليك في آسيا الصغرى ولم تنجح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي المماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود القامدون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش المماليك قد أحرزت عدة انتصارات في الجبهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريرك الرغبة في الانتقام عنده .

وعند ما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد — الذي ولى

(١) محمد مصطفى زيادة ١ نهاية السلاطين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلمه بنياً  
سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الحياة الذي سبق الإشارة إليه  
هند الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لتوامراته  
وخياتته إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قايتباي إلى القسطنطينية .  
وفي الوقت الذي اضطربت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس  
هشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تنفير  
السلطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد  
استعداداً جدياً للمعركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على  
العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان  
سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦  
ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

### المماليك والرونة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة  
على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً  
في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القنجاك ليضربوا بهم مغول  
فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر  
الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ، وإنما كان هناك  
الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك لينسل خطراً حقيقياً  
لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول  
فارس ، فلم تكده سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت  
تسمى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام  
منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطدت

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من المماليكين ليرعى شئون الطائفة المملكانية في دولته، وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢. الرشيد الكحال - وهو أحد رجال المذهب المملكاني - صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية، واطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في تجديده (١) وكان أن أسهم بيبرس في ترميم مسجد القسطنطينية فأرسل إليه «الحصن العبداني والقناديل المذهبة والسطور المرفوعة، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والمصك وماء الورد» (٢).

ومع أن الإمبراطور أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور حاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق. وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين ليشهدم على أن الإمبراطور البيزنطي «خالف الأيمان». على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليصار ضيقه (٣).

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) المبني : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) المقرئبي : السلوك ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .



الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزري  
وبطرك الأقباط حنا المصابع ، وحملت تلك السفارة رسالة تنفيذ الإمبراطور  
باعتلاء السلطان قلاوون دست السلطنة ورغبته في الإبقاء على مودة الإمبراطور  
وصداقته . وكان أن أجاب الإمبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاوون  
مؤكداً حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه يمينا  
يتمسك بها فأرسل إليه قلاوون من حلفه على ذلك اليمين (١) .

ولم تغيز سياسة الدولة البيزنطية تجاه مملطنة المماليك في مصر عندما اعتلى  
عرش الدولة الإمبراطور أندرونيق الثاني سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الإمبراطور  
الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاوون اشتمل حملاً من الحرير الأظلس وأربعة  
أحمال من البسط ، فسر قلاوون بتلك الهدية سروراً كبيراً وغمر الرسل بالعطايا (٢) .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على  
عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان طبيعياً أن يكون للدولة البيزنطية  
نصيب كبير من النشاط الخارجي الضخم الذي ميز دولة المماليك في ذلك العصر .  
ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني أرسل سفارة إلى الناصر محمد  
سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتأسله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها ،  
وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد في عهد السلطان بيبرس (٣) .  
على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب في سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور  
رجائه بعد ذلك بعدة سنوات ، وعندئذ أهد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى  
المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب  
السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطي في التسامح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدوادار في زبد الفسكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥ ب .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ورقة ٢٨٠ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته (١). ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة (٢).

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بن حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لازدياد نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركان (٣). ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البنادقة - واسمه مارينو سانودو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام (٤).

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٢٦٩ لإزالة الأثر السيء الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٢٦٥ (٥).

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٢٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩١ .

(٤) صفيه فاضل : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .

(٥) المقرئ : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحريةية. ويقال إن الامبراطور  
حنّا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه  
الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالقنصل بالبنادقة ،  
فأجاب السلطان الامبراطور البيزنطي إلى طلبه<sup>(١)</sup> . على أن الملاحظ هو أن  
الامبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ  
أواخر القرن الرابع عشر، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن  
تملك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الأباطرة  
البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن  
المسلمين جميعاً - داخل دولة المماليك وخارجها - كانوا ينظرون إلى توسع  
العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون  
الفتوحات العثمانية جزءاً من حركة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور  
الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على  
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً  
« ودقت البشائر بالقلعة ، وزينت القاهرة إبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ،  
وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني ديهنشيه بهذا الفتح العظيم »<sup>(٢)</sup> .

### سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها علاقات عديدة - تجارية أو عدائية -  
مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط . ولم يكن  
ينتظر أن من سلطنة المماليك - وهي إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن حجر : ألباب الفرجة ورقة ٢٢٣ ،

(٢) ابنه لياس : صفحات لم تنشر من بدايع الزهور ص ١٥ ( نشر محمد مصطفى ) .

على أم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

\*\*\*

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولأدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تهذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بفروج لويستاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩<sup>(١)</sup> . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقليتين . من ذلك ما تقدم إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقليتين والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية<sup>(٢)</sup> . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عين جالوت من التتار . وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس<sup>(٣)</sup> . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(٢) Lane-Poole : op cit. p. 268 & Enc. of Islam,

(٣) محمد جمال الدين ضرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما نقره وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقرئى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر يبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : بأن محذومه أمره أن يكون أمرُ الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه ،<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملك صقلية<sup>(٢)</sup> .

• • •

أما الجمهوريات الإيطالية للتجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرضى مصالحها . ولم يكن منظرهم من الجمهوريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبأ إغارة بطرس لوزجان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التي أغارت على الاسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه<sup>(٣)</sup> .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الاسلامية ، من ذلك ما يرويه التوبرى السكندرى من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق برأى بعد واقعة الاسكندرية للتجارة كما دأبهم .

(١) المقرئى : السلوك ١٣ ص ٥١٢  
(2) Lane-Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد اللطيف عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فمنهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم «أرجعوا أولا إلى سلطان مصر وامتدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحيثما يهيئون يبلدى وتبتاعون منه» (١). وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزجان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجزوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ؛ وأخذت سفن الفرنجة تفد إلى الإسكندرية بكثرة واطمأنت الناس وما فات فات (٢).

والمعروف أن التنافس التجاري بين البندقية وجزوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتسكروا معظم النشاط التجاري في البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدى السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والصفى الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنوية وأسر بعضهم (٣).

(١) النويرى : الإلمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط).

(٢) سعيد عاشورة قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ & .

النويرى : الإلمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : لبناء القصر ج ١ ورقة ٧٢٤

المريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوبية أسرعو إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخذ السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوبية أغاروا على تلك السفن وأمروا من فيها، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته (١) ومرة أخرى عاد الجنوبية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأوسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨ (٢).

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحياناً. وقد حدث سنة ١٤٠١ - على عهد السلطان فرج بن برقوق - أن أغار بعض القراصنة من الجنوبية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع (٣) وبعد ذلك بهامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوبية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك (٤). وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطباعها إلى جزيرة قبرص واستولت على ميناء قاما جوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٢٣.

(٢) ابن حجر: لمبناه النورج ١ ص ٢٦٥-٢٧٤.

(٣) ابن قاضي ههبة: ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(4) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme.  
Siecle. pp. 89-90.

قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برسباي سنة ١٤٢٦م (١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو الذي دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر - غير طريق دولة المماليك - يوصل إلى الهند. وقد نجح الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كنارياتما يعتبر مقدسة للجمود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (٢).

\* \* \*

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتنا ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة وأشبيلية . ويبدو أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نهجيات من دولة المماليك للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين المماليك من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونة نودد إلى السلطان بيبرس وبأدله الهدايا. وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة ( ١٢٩١ - ١٣٢٧ ) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس، وكذلك بطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين (٣).

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages' . p. 156.

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60-82.



كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين الصاطان المنصور قلاوون من ناحية  
وألونس العامر صاحب قشتالة (١). أما أشبيلية فيروي النويري أن صاحبها  
ألونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس  
بإرسال سفارة تحمل هدايا جميلة وقدوة بلك سفارة بيبرس بالخفاوة والإكرام  
في أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حملتها إلى  
الاسكندرية (٢).

وحدير بالذكر أن القوى الخربية التي طالما ناصبت ساطنة المماليك العداء  
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في التخفيف  
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على  
الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا  
حننا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى  
القاهرة سنة ١٢٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون معاملة المسيحيين  
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ،  
وأنه مهما حصل معهم ( مع المسيحيين ) بمصر والشام عاملوا من عندهم من  
المسلمين مثله (٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت  
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠ ، ومع السفارة  
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

(١) بيبرس الوادار : زبدة البكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

(٣) الماريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

ولكن السلطان الناصر غضباً لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر  
بردهم إلى بلادهم (١).

\*\*\*

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى  
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق  
والغرب جميعاً.

---

(١) التويرى . نهاية الأرب ج ٣٦ ورقة ١٠٤ .

## الفصل التاسع

### النشاط الاقتصادي

الزراعة :

اهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر لإقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قراريط والأمراء بعشرة، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضي الزراعية قيست ومسحت أكثر من مرة في عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتمديله، وهي العملية المعروفة باسم الروك<sup>(١)</sup>. واشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٥.

أما عن الروك الحسامي فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلها مغنما لأعوانهم ومستخدمهم لذلك ندب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيديك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري وجماعة من الكتتاب على رأسهم تاج الدين عبدالرحمن الطويل مستوفى الدولة، وروك

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضي مصر ، وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضي المصرية وتعديله  
وزعت الوثائق الخاصة بحدوده الإقطاعات على الأمراء والأجناس سنة ١٢٩٨  
(٦٩٧ هـ) (١) .

على أن توزيع الأراضي المصرية لم يثبت أن تعرض للتغيير والتبديل ،  
الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلجأ في سلطنته الثالثة إلى  
فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهي العملية المعروفة بأمر الروك  
الناصرى سنة ١٣١٥ (٧١٥ هـ) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض  
أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ،  
في حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التي  
استغرقت خمسة وسبعين يوماً (٢) .

• • •

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها وما يتبع  
ذلك من قيمة محصولها . وأم هذه الأقسام هي :- (٣) .

١ - الباق ؛ وهو خير الأراضي وأعلاها قيمة وأوقاها سعرا ؛ لأنها  
تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما  
وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ - الهائب ؛ وسعرها دون الباق لضعف الأرض وتصلح لزراعة  
القرط والمقاتي ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ - البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها  
للسنة الماضية .

(١) المقريزي ، الملوك ج ١ ص ٨٤٢ - ٨٤٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

٤ - الوسح ، وهو عبارة عن الأرض التي استحکم ونحها ولم يتمكن المزارعون من إزالتها ، بل حرثوها وزرعوها . لجاء زرعها مختلطاً بالحلفاء ونحوها .

٥ - الخرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للدواب .

٦ - الشراق ؛ وهو الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ - المستبحر ؛ وهو الأرض الوطئة التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصراً له .

٨ - السباخ ؛ وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها في زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

\*\*\*

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر إزداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمرافق الرواة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندي الجسور في ذلك العصر إلى نوعين : الجسور السلطانية ، وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبل والبحري . والجسور البلدية ، وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ، (١) .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجسور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة ممدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لمهارة الجسور ، ويهبر عن الأمر منهم بأهم

(١) القلقشندي صبيح الأهمى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

وكاشف الجسور ، كما كان د الجسور خولة ومهندسون ليكل عمل ، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها (١) . فإذا عاد الأمراء المعينون لكشف جسور الوجهين القبلي والبحري من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذي همضوا به (٢) . وعرف عن بعض سلاطين المماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً للتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور . من ذلك ما يرويه المقرئ من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بشريق بعض الجهات قرب شين حتى سار بنفسه سنة ١٣٢٦ ( ٧٣٧ هـ ) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحي ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شين القصر إلى بنا العسل ، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليحملوا على إنجازها ، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة بتلك الناحية (٣) .

\* \* \*

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذي كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه ، كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة . واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر - لا سيما في مناطق ملوى وقنط ونجع حمادى - ، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية (٤) . هذا كله فضلاً عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٢٤ .

(٣) المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) المقرئ : الخطوط ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

التي زرعت في الحدائق والبساتين (١).

وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلي كان عيناً من قمح وشبهه وسمس وفول وعدس وتحوها، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة تتراوح بين أردبين وثلاثة. أما الوجه البحري فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل (٢). ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمدة عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية - إذ تنقص السنوات القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة - فإن النظام الخراجي كان يقتضى تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها، وهذا هو السر في تلك الإشارات التي نجدتها في المراجع المعاصرة فيقول المقرئ مئلا في حوادث سنة ٨٦٩٧ وحوادث سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة (٣).

\* \* \*

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية على السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثرها من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها ليربئتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها. ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها يورثاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي؛

(١) القلشندي : صبح الأمشى ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١

السيوطي : حمن الحضرة ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) القلشندي . صبح الأمشى ج ٣ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ . وكذلك حاشية ١ في نفس الصفحة

القلشندي : صبح الأمشى ج ١٣ ص ٥٠٤

ثم أودع بها أنى رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر<sup>(١)</sup>. هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتبع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة والين<sup>(٢)</sup>.

على أن هذه العناية بالزراعة ومرافقها في عصر المماليك لا تعنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش في ذلك العصر قنا مربوطاً إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد ومحصولات الأراضى الزراعية كانت فى الواقع نهياً مورداً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، فى حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاهرون. ويذكر الشربى أن الفلاح فى آخر ما كوله كان لا يتناول إلا الشعير والخبز القريش والبصل<sup>(٣)</sup>. ولا عجب، فإن الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب الصيوف الذين تزايدت فى الذات و رغباتهم، تقربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين ونشردهم فى البلاد .. ،<sup>(٤)</sup>.

#### الصناعة :

أما الصناعة فقد ازدهرت فى عصر المماليك نتيجة لكثرة الثروة والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيجنى فى

(١) محمد جمال الدين السرور : دولة بني الايوبي فى مصر ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) المصرى : هن المعروف فى شرح قصيدة أبى شادوف ص ١٥٩ .

(٤) المقرئى : لغظة الأمامة ص ٣٦ ، ٤٦ .



النهاية تمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأمامية، فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يرضى بمال يبذله في شراء التحف والحصول على النفائس. وكان هذا الوضع الذي أثر في ارتفاع الصناعة والصناع على عصر المماليك، عندما فاضت الخزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأواً بعيداً في الدقة والإتقان (١).

وقد رأينا في صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة المماليك كانت دولة حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة، وأهتمت جداتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أعلى الدرجات ويحقق أمخضم الآمال بفضل مهارته في القتال واستعمال القوس والنباح والحربة.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخر بالأسلحة المتنوعة وبالصناعات التي كانوا يصنعونها فإذا حدثت فتنة أو تشبهت حرب هرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ ترفع دسوس الحديد وأجور الحدادين وصناعات آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه (٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حرص سلاطين المماليك

(١) سعيد عبد الفتاح طهوف: مقرر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٠

(٢) المقرئى: السلوك: ج ١ ص ٥١٢

(١٩) - العصر المملوكي

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطئ مدولتهم الواسعة ويصد غارات المعتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عنى السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه ويرتب ما يجب ترتيبه ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن<sup>(١)</sup>، ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاوون الذى عنى - أثناء حكمه القصير - بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير صاحب شمس الدين بن السلموس، حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستعرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود<sup>(٢)</sup> .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحرارىق والطرائد. أما الشوانى فكانت أعظمها شأنًا وهى مركب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها المساكر المسلحة بالأقواس والسهام والحراب، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحرارىق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجند والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاء عن الذخيرة والبارود والنفط . أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تقسع لنحو أربعين فرساً وأحياناً لثمانين فرساً<sup>(٣)</sup> . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال الليف . أما الأخشاب

(١) المرزبى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧

السلوك : ج ١ ص ٤٤٧ هـ

(٢) المرزبى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢١٥ هـ

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوروبا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج في صناعة السفن<sup>(١)</sup>.

هذا عن الصناعات الحربية ، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش الفستيان نسبة إلى الفسطاط والقماش الدبيق نسبة إلى دبيق<sup>(٢)</sup> . هذا فضلاً عن اشتهار نيس - قرب القروا - بصناعة قماش رقيق سمي القصب صنعت منه عمامة الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها<sup>(٣)</sup> .

وسواء كانت الأقمشة التي صنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الحامة ومتانة النسيج ، كما تشهد على ذلك قطع المسيح المتبقية من ذلك العصر<sup>(٤)</sup> . وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية ، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخملع التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتنفش عليها أسماء السلاطين وألقابهم ، كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والحبال المكسرة بالفطن والحرير

(١) آدم مينز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٢

المريزي : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) الفيلسوفى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٤ .

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بنى فلان ص ٢٥٥ .

(٤) زكى محمد حسن : أطلال الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٢٠٠ .

ولم تكن العناية بصناعة الممادن في عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفة خاصة في صناعة الثريات والأواني المنزلية والآباريق والصحون والطسوت وغيرها، كذلك استخدام النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء. وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديمة المنظر<sup>(١)</sup>، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون.

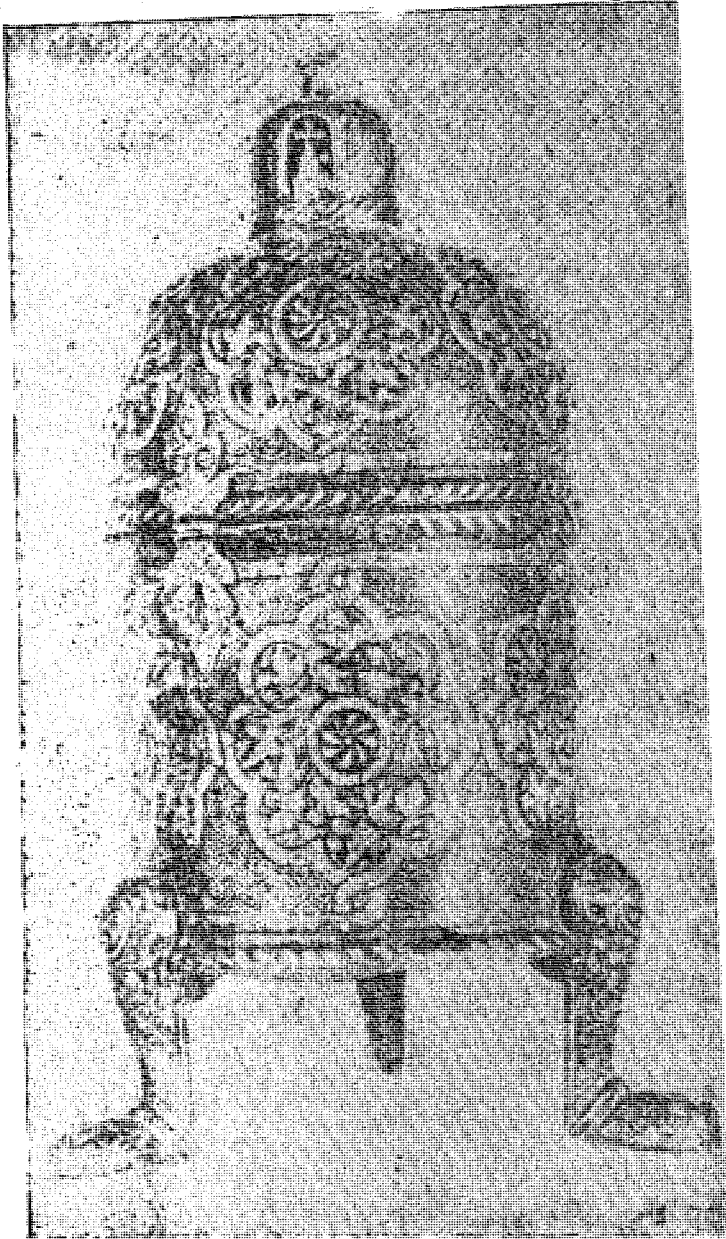
وانتشرت في عصر المماليك صناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. ويشهد المقرئ على أن المعاصرين كانت لهم في النحاس المكفيت رغبة عظيمة... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفيت<sup>(٢)</sup>. كذلك عن المصريين في عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة، فأكثروا من صنع الأواني والحلي الذهبية والفضية، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات. أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته في ذلك العصر، ولذا استوردت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوروبا. ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون في ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع، فضلاً عن الصباية والأقفال والمفاتيح<sup>(٣)</sup>.

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي؛ وكان أهم مراكزها القسطنطينية والقاهرة والإسكندرية والشهد بذلك أعداد المشكوك فيها

(١) زكي محمد حسن؛ فنون الإسلام من أواخر :

(٢) المقرئ؛ المواضع ج ٢ س ١٠٥ (بولاق) :

(٣) تصيد عاشور؛ مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٥٠٥ :



ميجتره من عصر المالك مصنوعة من النحاس المكفت بالذهب والفضة  
ولها غطاء على شكل قبة



الزجاجية المحفوظة بدور الأتار والتي تمتاز بجمال أشكالها وانسجام زخرفتها وإتقان صنعها . وبالإضافة إلى ذلك صنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في العبايك ، وكذلك بعض أنواع البلور الصخري المحبب . أما الخزف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعاته في العالم الإسلامي ، ومنها القصر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى وقد جرت العادة على أن تزين الأوان الخزفية المصنوعة خصيصاً للسلطين والأمراء برؤسهم أو شعارهم (١) .

وبلغت المصنوعات الخشبية درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك والبع المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق منها الحشوات والخرط والتطعيم . فالحشوات استخدمت لتجنب تشقق الخشب من جهة والرغبة في زخرفته بأشكال هندسية من جهة أخرى . والخشب المخروط كانت تصنع منه العبايك والحواجر والمثريبات . أما تطعيم الخشب فكان يتم عادة بالمعاج أو الأبنوس ، لاسيما في الكرسي والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف (٢) .

أما المصنوعات الجلدية - وبخاصة المروج - فكان لها شأن كبير في عصر المماليك ، إذ كانت المروج تصنع على أنواع وألوان مختلفة وأثمنها ما كان يصنع من الجلد البلغاري ، وأحياناً كانت تحلى بالذهب والفضة (٣) .

ويضيّق بنا المقام عن تتبع كافة الصناعات الصغيرة التي ازدهرت في عصر المماليك ، ولكن يكفي أن نختتم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر . ويذكر المقرئ أن كان في سمرقند سنة ٥٥٥ هـ مصر القصب ، كما كان في ملوى

(١) زى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) زى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٩٨ (بولاق) .

عدة معاصر<sup>(١)</sup>. ومن الواضح أن هذه المعاصر التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد في عصر المماليك، أنتجت كميات ضخمة من السكر، يدل عليها ما تشير إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر في عمل الحلوى في ذلك العصر، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ في شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف فنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون فنطار أكل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية<sup>(٢)</sup>.

هذا عن الصناعة، أما الصناعات وأصحاب الحرف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشاكل أفراد النقابة ويرجعون إليه في كل ما يهمهم. ولما كان دخول أي فرد غريب في حرفة من الحرف يؤدي إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يبرنون أحدا على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمحون لأي شخص في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة.

### التجارة الخارجية:

شاعت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بأزدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. ذلك أنه لم

(١) القرزى: المواظ ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) القرزى: المواظ ج ٢ ص ٢٣١.

(٣) سعيد طاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ - ٣٧.



يكاد يمتضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلاً عن بلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لدولته في الشرق الأوسط ؛ وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن في ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة<sup>(١)</sup> . وكان ذلك في الوقت الذي قل إقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين في ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة في معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المرعية عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن إليها وينزعوا قلاعها ودفنتها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون نفثيهاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ؛ وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول الهامة والشعر والكهين وحنة السراويل ونحت الأباط . كذلك وجدت عجز نفث النساء وتضرب بيدها في أعجازهن<sup>(٢)</sup> . فإذا ما أتم التاجر إنزال بضاعته ودفع ما عليها من

(1) Marco Polo : Travels ( vol , ) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب ونسويقتها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المنادى في طرقات عدن ويعلن في الأسواق أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دأثن يسمح له بالرحيل<sup>(١)</sup>. وهذا يجدر أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطي عدن شمالا في البحر الأحمر ؛ وإنما كانت رحلتها تنتهي عند عدن ثم تقفل راجعة من حيث أتت ، في حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل في شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانئ مصر والحجاز .

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر انتماع طريق البحر الأحمر - مصر ؛ الأمر الذي أتاح لسلطان المماليك في مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيانه دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التي تهددتها ؛ فإن السلطان المنصور قلاوون ( ١٢٧٩ - ١٢٩٠ ) عمل على تنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاوون أخذ يتوعد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بمحكماها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسأله وبماهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان بيبرس قد امتن ملوك اليمن وأهائهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاوون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن<sup>(٢)</sup> . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه أبي تميم شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجاري بين الشرق والغرب

(١) المرجع السابق ص ٦٧-٦٨

(٢) الماريزي : السلوك ١ ص ٥٨١ ، ٥٨٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرف التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر - وبخاصة عيذاب - إلى موانئ البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيتها إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطللة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاوون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضر برا بيد من حديد على العابثين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ؛ حتى أن قوافل الحجاج نفسها لم تسلم من هبهم<sup>(١)</sup> . ويروي المقرئى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جيبينة وعرب رفاعة ، أمر السلطان قلاوون الشريف علم الدين صاحب سواكنة بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق<sup>(٢)</sup> .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاوون أرسل إلى نوابه بالثغور بأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجوبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية<sup>(٣)</sup> . وقد أورد القلقشندي بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر ثغر الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر الثغر بحسن معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فلزمهم هدايا البحور ودواب الثغور، ومن أسنتهم يطلع

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن القرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجننه الصدور؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنة مراكبهم كالطيور...» (١). ولا شك في أن أمثال هذه الوصية إنما كان يوجهها سلاطين الممالك إلى عمالهم بمختلف النغور المصرية التي يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا.

كذلك كتب السلطان قلاوون منشورا إلى التجار الذين يقدون على مصر ومن الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم... يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويفرهم على القدوم إليها بمناجرهم ومن يؤثر الورد إلى مالكننا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلة لمن تغرب عن الوطن... فن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن، والهند، والصين والسند، وغيرهم، فلما أخذ الأهبة في الارتحال إليها والقدوم عليها، ليجد العمال في المقال أكبر، ويرى إحسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر...» (٢).

وفي الوقت الذي دأب سلاطين الممالك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوربيين الذين يقدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق. ولا أدل على اتساع أفق سلاطين الممالك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين — ومن خلفهم الغرب الأوربي.

(١) الفلغندي: صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١.

(٢) الفلغندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤١.

ولقد ترتب على تشجيع سلاطين الممالك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثرت عددهم ، فذكر البلوى المغربي في رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٢٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس<sup>(١)</sup>. بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب في الإسكندرية وحدها في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد بحوالي ثلاثة آلاف تاجر أوربي<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدن التجارية والثغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط<sup>(٣)</sup> . وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب فنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم وإذا ما حدث من طائفة أحدهم ما يشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك ،<sup>(٤)</sup> كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٢٩٥ أمير فردي حكي الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والسكرتلان والقيارسة وأهل نابلي وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم<sup>(٥)</sup> . ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبي إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢/١ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ؛ وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع بمواطنيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذي اعتاده في بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبي من ماوى وكنيسة ومخبز وحمام<sup>(٦)</sup> .

(١) رحلة البلوى المغربي ورقة ٤٤ ا (مخطوطة) .

(٢) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Ehypte ; p. 17 .

(٣) Schefer : Le Voyage d'Outremer , p. 122 .

(٤) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

(٥) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p. 122 .

(٦) Kammerer : op. cit. , p. 20 .

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمر اللازمة لهم في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم<sup>(١)</sup>. ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمر بكميات ضخمة، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٣٤٢ من إحضار الخمر إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ أربعين ألف دينار<sup>(٢)</sup> .

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك فكانت مدينة أسوان بالنسبة لتجارة النوبة، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهندوچين، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فقسر بها السفن في النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من الشام ، وأصبحت التجارة تأتي من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوربا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتي إليهما السفن الأوربية محملة بالفراء والجوخ والأخشاب والحديد والتبذ وبغيرها من المنتجات الأوربية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخزف والأقمشة وغيرها من منتجات الشرق<sup>(٣)</sup> . وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربي وإفريقية الوسطى وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور<sup>(٤)</sup>. وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك بضاعة

(١) Reinaud : Traité de Commerce, p. 40 .

(٢) المقرئى السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سميد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

(٤) من المرجح أن يكون تسمية ساحل مصر باسم بولاق التكرور نسبة إلى تجار

التكرور الذين كانت ترمه بضائهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل، وكلها أصناف اشتهت تهافت الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المترفعة . ثم إنه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها فحسب ، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل (١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية في عصر المماليك اتخذوا مدينة فوص مركزاً لنشاطهم الواسع ، فعدت تلك المدينة الهامة في صعيد مصر سوقاً تجارياً واسماً لمنتجات إفريقيا الوسطى واليمن والهند والحبشة . وهناك في فوص كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ؛ وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية (٢) . ولا شك في أن تجار الكارمية في مصر جنوا ثروة طائلة من وراء تجارتهم حتى قال المقرئى مانصه : وكان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة ، ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقترضون المال منهم أحياناً لإذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك (٣) .

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والانصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان .

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور السكولى التاجر السكارى المتوفى

سنة ٧١٣ هـ

(المقرئى . السلوك ج ١٣٢ - ١٣٣

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التي عقدها سلاطين المماليك في مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلا عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبا - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة المماليك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم في كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محصولات وفيرة ، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون في سيلان كثير من الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة المماليك في سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان وأجرل لهم العطايا وأرسل معهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

وإذا كانت عيذاب وقوص قد زعمتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط والإسكندرية قامتتا في عصر المماليك بدور بارز في استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لابتياح حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب ، ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط في أوائل عصر المماليك خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما يطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة (٢) . لذلك اختار

(١) بيروس الأوادار : زبدة المسكرة ج ٩ ص ٢٤٢ و ٢٤٣

المريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٠٠ هـ



كثير من السفن الأوروبية في عصر المماليك أن تستعوض بالإسكندرية عن دمياط، وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانئ دولة المماليك على البحر المتوسط، ولها تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض... (١).

وكان من الطبيعي أن تراقب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة، وفرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر، وضربت عليه مكموساً اختلفت باختلاف الظروف والأحوال، ثم تحتم البضاعة بحتم خاصر للدلالة على استيفاء المكس. وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش في بيعها. وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم مباشرى الحتم، كانوا أشبه بموظفي الجمارك في عصرنا الحالي (٢). ويبدو أن هذه الضرائب التي فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحياناً في الإسكندرية للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا الثمن. وقد دفع ذلك التجار الأوربيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة، فيروي المقرئى كيف قدمت رسل البنادقة (١٣٤٤/٥٧٤٥ م) بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم، وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على من يختارونه. وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين ليكثر الفرج من بلادهم جلب البضائع؛ فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إبدائهم (٣).

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة.

(٣) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١.

(٢٠ - العصر المماليكى)

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لمرقلته من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التي آلمها سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرد الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت في إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسي لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين المتاجرة مع دولة المماليك<sup>(١)</sup> . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراد والمدن والجمهوريات والدول التي تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أيضا معينة حرمت تصديرها إلى تلك الدولة بعضها له أهميته في الحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والنبذ والزيت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه نظام المماليك<sup>(٢)</sup> .

ولكن الجهود التي بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحمل للتجار الأوربيين على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستمساة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وبات بالفشل . ذلك أن القوى التجارية في غرب أوربا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة لحرمانها من التجارة مع مصر ، وتحاولت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جاييم الثاني ملك أرغونه أن جدد اتفاقته التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذي استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت مملكة أرغونة بالذات على عدم سحب قنصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

(١) سعيد ماسور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 & Heyd : Hist, du Commerce, II, p. 26.

فقد أرسلت سفيراً إلى مصر سنة ١٣٠٢ - على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - ليبلغ المسئولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر ، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعداده الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات ، كما وافق على أن يكون فرانكسكو دي كنفالي فمثلاً للبندقية في الإسكندرية يرعى مصالحها ومسالخ رعاياها الاقتصادية<sup>(١)</sup> .

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ لمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول ، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد ، ولم يمد يدهم يكتفي لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملكهم العريض . لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية ، وللحصول على المال الوفير من أيس طريق في نظرهم ، من ناحية أخرى .

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع أسعارها فاحشاً ، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص ، فضلاً عن المستهلك الأوربي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي ( ١٤٢٤ - ١٤٣٨ ) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي وسك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين<sup>(٢)</sup> .

(1) Diehl : Venise, p . 72 .

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p . 573 .

وأخيراً دفع الضيق القوي التجارية في غرب أوروبا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي (١) . وما زال الغرب الأوربي يحد لاكتشاف طريق بحري جديد إلى الهند ، حتى توصل فاسكو دي جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، لجاء ذلك إيدانا بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية ، وإعلانا لصياح أهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسي للتجارة بين الشرق والغرب في تلك الفترة من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجاري في أواخر عصر المماليك إلى إضغاثهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموها من المورد الأساسي الذي ظالموا أمدهم بالمال والقوة

#### التجارة الداخلية :

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك ، فاشتهرت المدن المصرية - وعلى رأسها القاهرة - بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميز ، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوق منها اختص بنوع معين من البضائع ، فسوق الشباعين اختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس ، وسوق الفرايين ببيع الفراء . . . وهكذا (٢) .

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة . أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن الفرد

(1) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3 . p . 31 .

(٢) المرزبي : المواقظ ج ٢ ص ١٠٣ ( بولاق ) .

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع (١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان ... فضلا عن اكتظاظها بجمهور المشتريين (٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفتاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة في عرضها ، ويتأقون في تنسيقها واحتفافها بالرياحين والأزهار (٣) .

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالملفات الخاصة بالتجار الأتراك والينيين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث بالفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفسق والوزر والجوز وغيرها - وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يضح أمواله وبضائمه في مأمن من كل سوء ، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من هبث العاشين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها (٤) .

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما همدوا إلى المحتسبين بالطواف ابلا ونهاراً للتفتيش على

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٨٦ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بني علاون ص ٣٢٦ .

الباهة وضبط من يحاول التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعى في المحتسب دائماً أن يكون ذارياً وصرامة وخشونة في الدين ،<sup>(١)</sup> . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأطمعة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرق للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدّة<sup>(٢)</sup> .

### المالية العامة :

تشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر ، والأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتتقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب هي :-

أولاً : ضريبة الأرض أو الحراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضان من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض في كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذي أصبح عليه الوضع في عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالي ٢٪ أو ١ ٢٪ ، وثانيهما

(١) ابن الأخرى : معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٨ .

(٢) السبكي : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من وراثى أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة للرعى<sup>(١)</sup>.  
ثالثاً : الجوزى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه الجزية فى عصر المماليك حتى أصبحت تقراوح بين خمسة وعشرين درهماً و عشرة دراهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر فى مصر والقاهرة يولىه المملطان ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، فى حين يخصص الباقى للإئفاق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى بأن تكون جزية أهل الذمة فى كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : الثغور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية . والمعروف أن المقرر فى الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء التجار ، ولكن ذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفف هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان الوضع فى دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من بضائع « وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً »<sup>(٢)</sup> .

خامساً : المواريث الحشرية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . وهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هى الذهب والنقضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذه

(١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية من ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالديار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية. هذا فضلاً عن دور أخرى أقل أهمية في تروجه وفوه وبلاد الصعيد<sup>(١)</sup>، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً.

سابعاً : المتجر، والمقصود به أن الحاكم - سواء كان خليفة أو سلطان - كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب؛ وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرباحهم.. وكان بعض الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب في استثمار أموالهم، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للمتاجرة فيها. وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للقلب بما يعرضهم للخسارة، فظلاً عن احتمال تلفها نتيجة للخبز، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حتى عصر المماليك<sup>(٢)</sup>. وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبروه منافسة غير مشروعة لأن الرعايا إما تكافئون في اليسار متقاربون، ومراحمه بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على خرضه في شيء من حاجاته،<sup>(٣)</sup>.

ثامناً : المعادن المستخرجة من أراضي مصر وأهمها الزمرد والشب والنطرون، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوروبيين عليها، وباعوها

(١) الملازمي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤

(٢) سعيد طشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.



بأضمااف أثمانها ، وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ،  
ومتى وجد مع أحد شيء من صفته استهلك (صودر) ، (١) .

\* \* \*

أما الموارد المالية غير العمومية فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد  
سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها . ولم تكن جميع المكوس في عصر  
المماليك من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة ، حتى أحدث  
السلطان قطز مكوساً كثيرة لاجل جمع المال وقتال التتار ، (٢) . كذلك يلاحظ  
في أمر هذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر  
المماليك ، فربما يتطرف أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها ؛ ثم يقبضه  
سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس  
أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة  
على الغلات والاتجار فيها ، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرفاء الأسواق  
ومقرر الحوائص والبغال ؛ ومقرر السمجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من  
يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طرح الفراريج دفلاً يمكن أحداً من الناس  
في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فما فوقة إلا من الضامن ، (٣) ، ومقرر  
الأفصاب والمعاصر وهو ما يجني من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر ،  
ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ  
من الرجل عن زكاة ماله ولو هدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) الفلندني : صبح الأعمى ج ٣ ص ٤٥٦

(٢) القرظي : المواظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٥ (بولاق)

(٣) القرظي : المواظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحصون فإذا حضر مبشر بفتح حمن تجمع هضرية من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير ، (١) ، ومقرر وفاء النيل إذ يجمع من الناس هذه المناسبة أموال تحمل بها شوى وحلوى وفاكة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخمر وبيوت البغاء وغيرها .

\* \* \*

أما عن الأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق في تلك العصور بين مالة الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التي جمعوها في شراء المماليك وتربيتهم والإنفاق عليهم في سخاء ، حتى أن الطباق السلطانية كانت تعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أشقر المأكولات ويلبسون أئمن الملابس . ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفي أن يقف الباحث على وصف لقلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين وبيوتها المرخرفة بالزجاج القبرسي الملون وما احتوت عليه من اصطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة ، وساحات للأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغرلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التي استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر (٢) . ولعل ما أفاضت في وصفه المراجع المعاصرة عن أفراح السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفي لتوضيح بعض الأوجه التي كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ما قيل من أن جهاز الأمير

(١) المنريزي : المواظ ج ١ ص ١٠٦ ( بولاق ) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ - ٦٣ .

أنوك بن السلطان الناصر محمد بلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البقال وبلغ الذهب في المصاغ والملابس ثمانين قطارا ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاز (١) .

ولم يرضن سلاطين المماليك على نساتهم وجواريمهم بالمال والمتاع . بحيث أننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهم وتحميل بيوتهم لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، ؛ على قول أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وحسبنا أن إحدى الحوادث توفيت فلما حصرت تركتها بلغت أيضا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلفت ثروة طائلة أفاضت المراجع في وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التي جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها في حياة العرف ؛ فإن هناك جانباً منها كان ينفق في دفع أرزاق موظفي الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلا عما تطلبته البلاد من منشآت ومرافق وإصلاحات كالجسور والقلاع والمعاهد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد - وبخاصة ضد التتار والصليبيين - فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثير أمن الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلا عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شوانى وطرادات وحراريق وأخربة وغيرها .

#### السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التي يتعامل بها الناس في مصر والشام هي الدراهم الكاملية التي أمر السلطان الكامل الأيوبي بضرها سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) ، وكانت نوعين ؛ الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٢١ .

عن نحاس ، والثاني دراهم الفلوس النحاسية وهي مصنوعة من النحاس ، وكثير استعمالها بعد الأزمة الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنة ٨٦٣٠ (١٢٢٣ م) والتي سببها انحطاط سعر الدرام الفضية . وكان الوضع في أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدرام والفلوس النحاسية (٢) .

وكان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صاحبت سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك الأوائل - مثل شجر الدر والمعز أيك والمنصور على بن أيك والمظفر قطز - قد سکوا نقوداً بأسمائهم ؛ إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شؤون الدولة ، وعندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدرام الظاهرية ، نقش رنكة عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة في عصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هي الدنانير الذهبية والدرام الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ؛ فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تعرض العملة الذهبية في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمناويل ، ولكنه قال عن الدنانير التي سككت في مصر في عصر المماليك ، إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكانهم جعلوا نقصها في نظير كلمة ضربها (٢) .

(١) عبد الرحمن فهمي عمدة : النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٢٦

(٢) القلقشندي : سبج الأهمى ج ٣ ص ٤٤١ .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير الممالئكية ذلك الخلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ، إذا بالبندقية تلجأ في القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الإفريقية أو الدوكات تمتاز بعلامتها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين . وقد وصف القلقشندي هذه العملة الأوربية فقال إنها «معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصري ... وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صور تاز بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالإفريقية جمع افرتي وأصله افرتسي ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفريجة ، وذلك أن الملك اسمه عندم دوك ... » (١) .

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقية وعم استعماله في مصر والشام وغيرهما من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذي أزعج سلاطين الممالئك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برفوق حمل دنانير جديدة «على زنة الدنانير الإفريقية المتقدمة الذكر» ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة منقولة تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها وعم استعمالها ، ولكننا مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفريقية (٢) . وهكذا ظل «صرف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال» ، على قول القلقشندي ؛ الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سكها سلاطين الممالئك لا تقوى على منافسة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

للدوكلات البندقية ، فأنحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندق (١) .  
أما الدراهم النضوية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس (٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هي الأخرى أن تعرضت للنساد منذ أواخر القرن الثامن الهجري - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) - عند ما انتشرت الدراهم الخوية التي ضربها المماليك بحماه ، وقد تدمر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها حتى بلغت الثلثين ، كما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس النحاسية (٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات في تلك العصور ، وكانت - على قول المقرئ - لا يشتري بها شيء من الأمور الجارية ، وإنما هي لنفقات البيوت وللأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها (٤) . ويروي القلقشندي أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون عفى بضرب فلوس جديدة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) اشتهرت بالفلوس الجدد جمع جديد ، وجعل ذلك كل فلس منها مثقال ، وجاءت في نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا (٥) . غير أن الملاحظ في عصر المماليك أن الفلوس النحاسية هي الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعا في الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلفوا في تقدير قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحيانا بأثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف ؛ وفي جميع الأحوال يرغم التجار والأهالي على التعامل بها

(١) عبد الرحمن فهدى محمد : النفود الربية ص ٩٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٣) المقرئ : شذور القود في أخبار القود ص ١٥ .

(٤) المقرئ : لغات الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ .

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفق القيمة التي تحددها الحكومة بما يشيع حالة من القلق في الأسواق (١)

\* \* \*

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة في عصر المهاليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئى وهو أدركت أنا والناس من أهل نجر الإسكندرية وهم يعملون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراه منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة ، وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق .. (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع في التجارة الخارجية وبخاصة في القرن الخامس عشر ، فكان الحمل الإسكندري من الفلفل ين خمسمائة رطل فرورى ويشترى في الإسكندرية نقدا أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكي ؛ كما أنه يقايض أيضا بما كولات كبيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبنديك ، ملكة نابلي وفراكة أخرى ، ويمطى كذلك قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل ، (٣) .

(١) المقرئى : لغاية الأمة ص ٤٧ وما بعدها ٩

السلوك ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) المقرئى . لغاية الأمة بكشف الغمة ص ٦٩ .

(٣) توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية

( مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢ )

## الفصل العاشر

### الأحوال الداخلية

#### بناء المجتمع :

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كثيراً بين الحكام والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام إرابة الدم أو الأصل والجنس ، مما جعل المماليك لا يشعرون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شئون الحكم فبإلحاح محدود الذي تخوله صلاحيتهم . وتفسير الفوارق التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركي والمجركسي والمغولي والصيني والاسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مزاوله تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يكن سلاطين المماليك وأمراؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكونوا



لهم سندا ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها ، وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينحط سعره . ولعل هذا هو السر في أن مملوكا مثل فلان عرف بالألفى لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته (١) .

على أنه جرت العادة غالبا أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أى سيده الذى اشتراه بالمال ، فيبهرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليلية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحيانا إلى تاجره الذى جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهورا مثل يلبغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان نثر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيرا من المماليك والجوارى إلى السلاطين (٢) .

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرسوا على تربيهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عددا من المماليك أرسلهم أولا لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كل منهم في طبقة جنسه بحيث لا يقيم في طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلعة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك في الطباق مجموعة من الطواشية الحصيان ، فضلا عن الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والحفظ وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساتذة من سلاطين وأمرام

(١) بيهرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ص ١٤١ .

أبو الحسن : المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط) .

(٢١ - مصر المماليكى)

لم يضمنوا على ماليكم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة  
مغشبة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وصر فوا لهم المكسوات  
الفاخرة (١) .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية  
حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباقي وانتقل في أدوار الخدمة  
السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يفاد المملوك  
الطباقي تغطي له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان  
ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم الطباخانات ،  
وعندئذ يصبح الأمير و سلطاناً مختصراً ، على قول الفقيه شندى (٢) .

على أنه يلاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن ساائر السكان في مصر  
والشام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جناسهم  
اللائق بجليلين التجار . وقد بدأت حكومة المماليك دائماً على تحذير الناس من انتقال  
مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى «كاتب أو هامي» ، أى إلى أحد من غير  
طبقة المماليك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأذى والعقوبة (٣) . ولا شك  
في أن هذه العزلة التي عاش فيها المماليك أو جددت فجوة واسعة بين الحكام  
والحكوميين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في  
مصر والشام ظلوا طول عصر المماليك لا يعنىهم شيء من أمر الأحداث الكبرى  
الداخلية والخارجية التي أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من  
مواكب حافلة أو من منازعات صاحبة بين طوائف المماليك ، وما ترتب على

(١) سعيد عبد الفتاح طاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٩١  
وما بعدها .

(٢) الفقيه شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٥ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

فذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل في حقله والتاجر في متجره والفقيه في مدرسته أو جامعه . . يتفنون جميعا مشيئة سادة البلاد من المماليك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صافرون . حقيقة إن المماليك عملوا حسبا لبعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقا من التقدير والعطف، ولكن ذلك لم يمنهم من التنكر لهم أحيانا. ثم إن هذه الفئة التي حظيت بقسط من عطف الحكام المماليك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، في حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين العامة لاتلق من المماليك سوى الهوان والمغارم (١) .

وإلى جانب طبقة المماليك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والآداب والكتب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر المماليك بمميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحيانا . ويبدو أن المماليك أحسوا دائما بأنهم فرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى دهامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالمماليك احترموا للعلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد . ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون ، (٢) . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمسكاتهم في عصر المماليك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال : إنى لا أخاف أحد إلا شمس الدين الحريري قاضي فضاة الحنفية (٣) .

(١) سبيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥٨ .

(٢) القرظي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٢ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه السكينة الكبرى التي وصل إليها العلماء في عصر الماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرض الماليك أن تشاركهم فئة من السكان في ركوب الخيل، فاشترطوا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انصابت جموع الماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها<sup>(١)</sup>.

أما التجار فكانوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين الماليك، لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يدهم بالمال في ساعات الحرج والشدة . وتدلل جميع الفوائد على أن التجار تمتعوا في عصر الماليك بثروات طائلة، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر حلقة النشاط التجاري بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين الماليك ، فأكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر، فضلاً عن إنقاذهم بالرسوم الباهظة<sup>(٢)</sup>. لذلك لم يطمئن التجار في عصر الماليك على أموالهم وتجاريتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم<sup>(٣)</sup>.

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر الماليك بجمهور كبير من العمال والصناع والباة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين، وهي الفئات التي جمعتها المراجعة المعاصرة تحت اسم «العوام». وقد عاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى الماليك وغيرهم من الطبقات المنعمة، حتى لاحظ بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في عصر الماليك أن القاهرة وحدها بها عدة يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلا ماوى

(١) سعيد طاهر : المجتمع المصري في عصر سلاطين الماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء التمرج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سوى الطرقاتى وبلا ملبس سوى أسمال بالية (١) . كذلك دهش البعض الآخر عن كثرة الفحاظين بالقاهرة في ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض العطف من السلاطين المماليك وأمرانهم - لا سيما في أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيء وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احترام السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات (٢) .

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم في عصر المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ «فلاح» في ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم دغير العادة أضعافا ، (٣) كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلموا من أذى العربان وبطشهم ، فتعرضت القرى والمزارع لإغارات العربان بين حين وآخر ، وفي كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشى الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والوافع إن حركات العربان في مصر في عصر المماليك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح في أحوال مصر الداخلية في ذلك العصر .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٣٨ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ ( طبعة كالمبورنيا ) .

(٣) ابن دياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

### تورات العربان :

وجدت في مصر في العصور الوسطى قبائل عديدة من العربان وهؤلاء انتشروا في اجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة للشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائما أبادامصدر فتن ومتاهب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم في مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الأمنين من أهالى القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائما إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيبك أن يقيد من قوة العربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لفزومصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان أنفوا من الموضوع للمماليك، وثار ت قبيلة بنى تغلب - وهي أقوى قبائل العربان في الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن تغلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خنجر جواهن البلاد ١ ، (١) . وهكذا أعلن حصن الدين بن تغلب نفسه مملوكا على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٥٣ يمرض عليه خلفاء فمتركا ضد المعز أيبك والمماليك ولم يكتبف حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحرى ليستتير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيبك أرسل جيشا كبير اضده بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣ (٢) .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : البيان والإعراب ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر المماليك ؛ ولذلك لم يستطع العربان الثبات طويلا في وجه المماليك ، وفي كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سبوا كثيراً من الفوضى والمناعب في ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن ثعلب هاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشنقه بالإسكندرية<sup>(١)</sup> ، ويبدو أن شقيق حصن الدين بن ثعلب أحدث استيلاء العربان بالصعيد ، فتاروا دواكثير طمعهم وهما بتغيير المماليك ووثبوا على الأمير عز الدين الطواش والى قوص وقتلوه<sup>(٢)</sup> ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان في مصر كانت تراوهم في أوائل عصر المماليك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة المماليك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطالبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر ، وهي فقرات الاضطراب عادة في تاريخ دولة المماليك .

وهكذا هاد العربان إلى الثورة في الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم ، ولكن الأمير طر نظامى نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد ومعه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلا عن

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف من ١٨٨

المقريزي : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتي فرس وألف جمل ، غنمها منهم<sup>(١)</sup> ، ولم يرتدع العربان في الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهبوا فرصة مرض السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة في منطقة قوص ولكن الأمير طرطاي عاد إليهم ليؤديهم من جديد<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون انتهز العربان فرصة الخطر الذي حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم في الصعيد وأنزل بهم الهزيمة عند قوص وبطش بهم بطشاً شديداً<sup>(٣)</sup> ، وعندما اشتد خطر العربان في الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسبوط إلى منفلوط ؛ تظاهر الأميران بيبرس وسالار - أصحاب النفوذ في مصر في ذلك الوقت - بأنهما يبدآن حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلوا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة انجحت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك د السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ويغتاطوا على سائر الأموال<sup>(٤)</sup> . وكانت هزيمة العربان في تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بحيث القتلى ، في حين فر الباقون إلى المغاور والكهوف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم ( سنة ١٣٠١ )<sup>(٥)</sup> ، وقد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) القرظي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٣) بيبرس الودادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٤) القرظي : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ .

التويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .



أدى تطرف المماليك في الانتقام والقتل في تلك المرة إلى إقفار البلاد وخلوها من أهلها، بحيث أن الفرد كان يمشى في تلك الجهات دفلاً يجد في طريقه أحداً وينزل بالقربه فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار، (١).

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء علي أيدي جيوش المماليك، دفعا من سلم من معتدى العرب فقيراً ورعاً صالحاً، وحمل أكثرهم المسوك والمسبحة هروضا عن حمل الرماح والأسلحة، (٢). وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم وتوقفت بعد سنة ١٣٠١، وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلا سياسياً، وإنما اتخذت صورة اقتصادية، وهو ما تسميه المراجع هادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون في نهب الغلال وسلب المواشى، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنة ١٣١٣، ١٣٣٠، ١٣٧٣، ١٣٧٤ (٣) في عهد السلطان الناصر محمد (٤) ومن أخطر الحركات التي من هذا النوع والتي قام بها العربان، حركة ابن الأحمد شيخ قبيلة هرك سنة ١٣٥٣ (٥٧٥٤) في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٥).

وفي نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية - بل القاهرة - من عيب العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بقية السلب والنهب (٥)، حتى الحجاج وهم في طريقهم إلى بيت الله

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢٢ .

(٢) بيبس الدواهار : زبدة الفسكرة ج ٩ ص ٤٠٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٢٩ ، ٣٣٥ .

ابن حجر : إنباء الفجر ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٤٩ .

العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١ .

الحرام عبر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١). وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا هامًا من مصادر الفتنة والقتال وعدم الاستقرار (٢).

### الحياة في المرمه :

انصفت المدن المصرية في عصر المماليك - مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد - بتلاصق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوق والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر في عصر المماليك بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوروبية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين في الطرقات ، فضلا عن كثرة الدواب . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنا ويسرة ليشقوا طريقهم ، خير مبالين إذا سقط بعضهم المارة تصعب حوافر الخيل . والجمال العديدة يظوف بها السقاءون وهي تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء . وقد روى المغربي عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتي ألف جمل ، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء يجولوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣) . أما الخيول التي قامت بدور سيارات الأجرة في أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطهيرها ليستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم .

(١) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ - ٥٤ .

(٣) رحلة البلوى المقريزي ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسى باسل القاهرة فى عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب، كل منها له بابان وحارسان، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لاسد الحاجات اليومية للمساكن. وفى الليل تضاه تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تناق أبوابها وتشد الحراسة عليها، فيرتب لها جماعة من الطواف لتكشف الأذقة وطاق الدروب وتمقد أصحاب الأرباع وتأديب المخائف، ومن سار فى الليل لغير سبب قبض عليه. وعظمت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكس والرش بالماء، وهى المهمة التى قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت. كذلك وضعت آنية ملوثة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسهيل إطفاء ما يقع من حرائق. وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجدومين من القاهرة، وإصدار من يبق منهم داخل أسوارها بالقتل<sup>(١)</sup>

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة فى عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم، والمؤسسات والمستشفيات لعلاج المرضى، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب، والحمامات التى اختلفت بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء، فضلا عن عديد المساجد والمدارس. أما يتجوز ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأسراء والمماليك والجند، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات. ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الخطئة والقتارة وسوء معاملة المسجونين فيها، حتى أن الإعدام كان فى كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك من ٨٢ وما بعدها

(٢) السقاوى: التبر المسبوك من ١٤٦

القرىزى: السلوك ج ٤ من ٧٦١.

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة في التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أمالي المدن . وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلي وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطئ النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلباً للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد (١) . كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل ، فضلاعن ولع الناس بالتمهي بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التي كانت تتم عن طريق الرهان (٢) .

واشتهرت الحياة في المدن في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص عائل ومنها ما هو عام شعبي ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذ جرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخبا كبيرا . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكرا - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التي تستحق مشاركة الأهل والأحباب في إحيائها (٣) .

أما الاحتفالات العامة فنما ما هو ديني ارتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومي حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقا

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الدرر ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافة ، ويطلع الخليفة والقضاء الأربعة إلى القلعة ليستمروا السلطان بالعام الجديد (١). وفي طاهر الحرم يكون الاحتفال بعاشوراء فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون في هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وظلالق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرسون على إقامة عزاء الحسين في ذلك اليوم فيشهد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية ، في حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم (٢) ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتلا الأحواض بمصير السكر والليمون ليقدّم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل فيتعاقب القارئون والمشدون والوطاظ ، كما تمد الأسحطة بأنواع الحلوى والمأكوت الذهبية (٣) . وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذي يستمر حتى الفجر ، فتأق طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمرّون في الذكر والسلطان جالس في صدر الخيمة . كذلك يترقب عامة الناس موعد المولد ليقيموا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوي خاصة بالنساء وعندئذ تكثر البدع والمخالفات (٤) .

وكان الاحتفال بدوران المحمل يتم مرتين في السنة في عصر المماليك الأولى في النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٣) سميد عاشور : المهتم المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١٠

وبذلك تهب العزومات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التآهب للحج<sup>(١)</sup>، وتكون الدورة الثانية في شوال وهي دورة خروج الحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون في زيتة الحوانيت والأسواق ، ولا تكون دورة خروج الحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس ، فتوضع الكسوة - وهي من الحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة - على جمل ، ويظرف الحمل بمسارح القاهرة حتى يصل إلى القسطنطينية في يوم مشهور<sup>(٢)</sup>.

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين في كل زمان ومكان ، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين بروية هلال رمضان في عصر المماليك ، كما وصف غيره من الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كيفية إحياء الأهالي ليالي رمضان بإضاءة الفوانيس والمشاعل في الطرقات والبيوت والحوانيت . هذا فضلاً عن الاحتفالات بالقلمة حيث يقرأ صحيح البخاري وتوزع الصدقات على المستحقين<sup>(٣)</sup> ، وفي نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكعك والحلوى ، وإعداد الملابس الجديدة ، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء في عيد الفطر أو عيد الأضحى ، فتخرج جموعهم إلى شاطئ النيل لاستئجار المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء ، وفي جميع هذه الأحوال تسكث المفاصد الخلقية<sup>(٤)</sup> ، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى .

أما الأعياد القومية في عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ما ارتبط بالسلطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو لإبلال السلطان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ ( طبعة كاليفورنيا ) ٩  
مورد الطائفة ص ٩٩ .

(٤) سعيد طاشور : المجتمع المصرى في عصر سلطين المماليك ص ١٨٩ .

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفي جميع هذه الحالات تزين القاهرة ومصر بالزيينات الفاخرة ، ويخرج السلطان في موكب حافل فيخرج الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزفاريده النساء (١) ، وُمة مناسبة سعيدة حرص المصريون منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها كل عام هي عيد وفاة النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخليج في موكب تسير فيه الحرايرق والسفن المزيّنة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى مقهاس الروضة يمد سباط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم (٢) .

### الثورات والفتن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة في العاصمة ؛ ولاتلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتتحول تلك الصورة الهادئة المرحية إلى صورة مضطربة قاتمة .

ومعظم الثورات والفتن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي تهيئت في تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ في داخل دولتهم ؛ هي اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً صريحاً بأنهم جميعاً - بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذي مروا به - متساوون ، ولا فرق بين ملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالشجاعة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) لوقوف على الحياة الاجتماعية في عصر المماليك في صورة مقفلة دقيقة ارجع الى

كتاب :

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - المؤلف .

في استخدام السلاح والقدرة على استغلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً في السلطنة ، والملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذي يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن ينتزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولاشك في أن عدم وجود نظام وراثي أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التي شهدها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفي أن يرجف بوفاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد<sup>(١)</sup> ، وكان يكفي أن يعلن قيام سلطان جديد في الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - في الشام أو في مصر - عدم رضاهم عنه وثورتهم عليه ، مما ينذر بدور جديد من أدوار الشدة التي اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد في ذلك العصر ، وفي جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تهدد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان<sup>(٢)</sup> ، ثم ينتشرون في الأسواق والطرقات لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يجمعون أحياناً على النساء في بيوتهن وفي الحمامات

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .

المقريزي : الملوك ج ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .



فيخطفوهن (١) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سهبت الإشارة إلى معظمها في صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتي المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة في الشام أو في مصر ، فإنها انفجرت جميعاً في نتائجها وهي إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واختفائه إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات في مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صبغ ذلك العصر بصبغة خاصة ليس لها نظير في تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وجهله يتصف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويكفي أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والحواشيت والأبواب التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتعطل جميع مظاهر النشاط العمراني ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقامى الناس طوالها الجوع والفوضى والفرع (٢) ،

### المجاهات والاضطرابات:

ولم تكن الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسببه سواء التوزيع الإقطاعي وقلة النفقة المعطاة لهم من السلطان لحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيرة ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات في

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤

أبو المحاسن : النهوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم في مياه النيل في تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجامع عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدي إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجامع مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذي أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمراني في البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجامع والأوبئة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك ، ولذلك نكتفي بالإشارة السريعة إلى أهمها لتأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ما حدث سنة ٦٩٤ هـ - ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار في الشام ، فاشتد الجلاء واضطر الناس إلى الصلاة الاستسقاء<sup>(١)</sup> . وفي نفس الوقت - وكان ذلك في عهد السلطان العادل كتبغا - انخفض فيضان النيل عن مستواه فتزايد الجلاء واشتد البلاء ، وجاء الجلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضعة آلاف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقماء بأمر اضرم<sup>(٢)</sup> .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير في قسوته ومرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في مصر والشام ، وإنما دهم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حبتان البحر وطير السماء ووحش البر<sup>(٣)</sup> ، وقد عرف ذلك الوباء في أوربا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقريزي الكثير من البلاد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة السكرية ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقريزي : السلوك - حوادث سنة ٨٤٩ هـ ج ٢ ص ١٧٣ .

التي انتشر فيها ، في آسيا وأوروبا وأفريقية ، فضلا عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقرئى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا فلم يوجد من يضم الزرع ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك في دمياط وهم في سفنهم والشباك بأيديهم مملوءة سمكا ميتاً ، وهكذا أفقر الريف من الزراع وأفقرت المدن من سكانها ، بحيث غدت القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزارحه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمراني ، فتمطلت أكثر الصنائع . . . ، وصارت كتب العلم يتأدى عليها بالاحمال . . . وهدمت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام ، حتى المساجد والزوايا أغلقت معظمها ، وتطل الأذان من عدة مواضع (١) .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضاً عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد (٢) . وقد حدث في عهد الأشرف قايتباي وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . عندما دهم الطاعون بالقاهرة ونشئ جملة واحدة ، وقتل في الناس فتكا ذريعا ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى جملة واحدة ، ومشئ نحو بلاد الصعيد (٣) . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند نشئ الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيداً عن العاصمة طلباً للنجاة فيقصدون مرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحياناً من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن إياس من أن

(١) المقرئى : السالوك ج ٢ ص ٧٧٢ - ٧٨٦ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٩٢ ( نشر محمد مصطفى ) .

السلطان برسباي أصيب في طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ، فحصل له ما يخوليا ، أي ارتباك في قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفي الكلاب إلى الخيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها (١) .

في كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الأزمات التي كانت تحصل بهم في ضوء فساد الناس وخر وجههم عن طاعة الله وإسرافهم في المعاصي مثل شرب الخمر وغير ذلك . لذلك نجد في المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تعالى في أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فيسارع الناس إلى إراقة الخمر ، والكف عن السيئات عسى أن يتوب الله عليهم ويكشف عنهم الغمة ، وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة - مثلما حدث سنين ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ - إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمر وتكريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة (٢) ، ولكن مفعول هذه الأوامر كان لا يستمر طويلاً ، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق وضعهم ولم ينتهوا عما هم فيه (٣) .

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) ابن حجر : لنبأ القمر ج ٢ ورقة ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٣٤٩ .

المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ .

العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ .

(٣) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

## الفصل الحادى عشر

### الحياة العلمية والدينية

#### النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مصر سنة ٥٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابيه الشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم<sup>(١)</sup>. والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً للنشاط العلمى واسع؛ يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر. ويرتد السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر، عدت هذه البلاد محل سكن العلماء ومخط رحال الفضلاء<sup>(٢)</sup>. أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء للشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم وهذا بلد ضيق عن علمى، وهجروها إلى مصر<sup>(٣)</sup>.

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء. وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائداً ويقول سمع التاريخ أعظم من التجارب<sup>(٤)</sup>. وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، تصبية لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ وظهر في عصر  
بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم محي الدين بن عبد الظاهر وابن  
خلدكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان النورى — من حرص  
على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد  
بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التي تناقش  
فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء (٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء  
المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقهاء والحديث واللغة العربية،  
بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣).

### المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمى من حرصهم على إنشاء كثير  
من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس  
مثل المساجد. والمعروف أن السلطان صلاح الدين عنى عناية خاصة بإنشاء  
المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية  
والمدرسة القمحية (٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بنى أيوب قد  
استمروا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شيء مراعاة للمذهب السنى  
ومحاربة العقيدة الشيعية في البلاد؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء  
المدارس لإظهار الشعور التقوى والزلفى من ناحية وليتخذوا من المدرسة أداة

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس النورى ص ٤٩ .

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .

(٤) المقرئى : المواظ ص ٢٦٣ - ٣٦٤ (بولاق) .

تضمن بقاء الحكم في أيديهم ولما عدم على تدعيم مركزهم في أعين الشعب (١).  
ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية  
نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة  
الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق  
التي أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التي شيدها  
سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيد في القرى والريف مثل مدرسة  
سرياقوس التي أنشأها السلطان برسبای. ومن جهة أخرى فإن سلاطين  
المماليك لم يقتصرُوا في إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها في  
مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي  
أنشأ مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان النوري  
مدرسة في مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس  
من السلاطين. ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الجالية  
أو المحمودية التي بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء  
السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقرئ لهذه المدرسة فوصفها بقوله  
لأنها من أحسن مدارس مصر (٢).

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل  
بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان،  
ويمد سماط فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه.  
وبعد أن يتخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين  
والمهندسين، يعين المدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique en Egypte,  
pp . 60 — 64 .

(٢) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٧ .

والفراشين وغيرهم (١).

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر، يخضع السلطان على صاحبها ويكتب له نوقمها من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس تفصيلاً كانت أو حديثاً. وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر «مكون علمه، للطلاب، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه مفرح الصدر ليتميل إليه طلبته» ويربهم كما يربي الوالد ولده، (٢). كذلك طلب من المدرس «أن ينظر في طلبته ويحتم كل وقت على الاشتغال» (٣).

وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح (٤) أما الطلبة فقد تمتهروا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ما يختاره من أنواع العلوم الشرعية، (٥) وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيد ليتعلم على فقيه أو محدث مشهور (٦) فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك. ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية (٧).

(١) ابن حجر: إنباء النمر ج ١ ص ٧٧٢

المريزي: السلوك ج ٣ ص ٤٦٤ .

(٢) القلاشندى: صبح الأعمى ج ١١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤٦ .

(٤) المريزي: السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٥) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥ .

(٦) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥ .

(٧) القلاشندى: صبح الأعمى ج ١٤ ص ٣٢٢ - ٣٢٦ .



والواقع إن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكنتها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف - من أراض وبيوت وأسواق ومعاصر وغيرها - ؛ وهي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين (١) .

### المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم . لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نهضة منقطعة النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان ملاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بمخزاة كتب جليلة القدر ، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة طامرة بالكتب محتفظة بأهميتها ، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

أما مكتبات المدارس والجامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والغنى . فإذا كان السلطان الظاهر بعبس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه الحق بتلك المدرسة خزاة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم (٣) . وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك من ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) أنقرى : المراجع ج ٢ ص ٢١٢ .

أبو الحسامين : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم علي : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من كتب التفسير والحديث والفقهاء واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء<sup>(١)</sup> . وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد ، إذ أسأبها « خزانة كتب جليلة » .

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك ، فنسمع عن خزانة الكتب العامرة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم<sup>(٢)</sup> . هذا مع ملاحظة أن خزانة الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس لحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانات والجوامع ، وذلك تحقيقاً وعميماً للفائدة العلمية المرجوة . وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب « خازن الكتب » ومهمته ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وتزيمها بين حين وآخر ؛ فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة<sup>(٣)</sup> .

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة ، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يجمعها صاحب المدرسة على خزنتها ، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء<sup>(٤)</sup> . ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر ، هي التي تطلبت تحريم إعادة الكتب خارجياً تحريماً يائناً إلا في حالات نادرة خاصة . ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصر على الاطلاع

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢ .

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٩ .

الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على المكتب وعدم استهلاكها (١).

### المطاب :

وإذا كانت المدارس في عصر المماليك تمثل المعاهد العليا أو الجامعات فإن المكاتب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم. ويبدو أن الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكاتب كان تعليم أيتام المسلمين، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة في الثواب. وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب « المؤدب » الذي أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه »؛ واشترط فيه أن يكون « خيراً ديناً أميناً على أطفال المسلمين، متين الخلق هذا متزوجاً عارفاً بصناعته صالحاً للتعليم ». وساعد المؤدب في همله « العريف » وهو أشبه بالمعيد في المدارس، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب (٢). وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم. وقد ذكر النويري كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل - الذي أنشأه - فقيهين - « يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، ورتب لها جامكية في كل شهر وجرأية في كل يوم؛ وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف. ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رحلان خبزاً، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف » (٣).

(١) المرجع السابق ص ٦٥.

(٢) سميد هاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة في أواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ، فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتيم ، صرف من المكتتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذي (١) .

فإذا أتم الصبي حفظ القرآن في المكتتب ، احتفل به احتفالا كبيرا يسمى « الاصرافة » فترين أرض المكتتب وحيطانه وسقوفه بالحزير ، ويقوم أهل الصبي صاحب الاصرافة بزينة بقلاند الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها نياح من حرير وعمام ، على حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافة فتعطيه ما تقدر عليه من المال (٢) .

### الفصاط الدينية :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مفتصبون للحكم والعرش من أصحاب الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفي

(١) ابن الأخرة : معالم القرية في طلب الحسبة ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام  
المماليك مسلمين ، يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء  
سنن الأولين ، ويعصرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهم إذاً حكام  
صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .  
وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن جزءاً كبيراً من النشاط الديني في عصر  
المماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي . ذلك أنه على  
الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من  
سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار  
المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك . وقد لجأ سلاطين المماليك إلى  
استخدام العنف أحياناً لسكبت الشيعة ، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا  
أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع ، فتصادر أملاكه  
وتنهال عليه العقوبات والإهانات ، حتى يظهر التوبة من الرفض ، (١) .  
وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ،  
فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٥٦٦٥هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة  
وتمحريم ما عداها ، كما أمر بالأيولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح  
لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ، ما لم يكن مقلداً لأحد  
هذه المذاهب ، (٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب ، وانبعثت فيها سلاطين المماليك ،  
لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد ، هي إنشاء المدارس . وقد  
سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى  
التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المقرئ : المواظ ج ٤ ص ١٦١ .

في مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة - قبل أي اعتبار آخر - مركزاً لتدعيم الفقه السني . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين ، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب العمدة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٣ ( ٥٦٤٠ هـ ) ، وهي أول مدرسة بنيت في القاهرة على المذاهب الأربعة - الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي - واستمرت هذه المدرسة تؤدى رسالتها في خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - على أيام المؤرخ نقي الدين المقرئ (١) . وهكذا سار المالكي على سنة الأيوبيين في إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يجعلوا منها أداة للخدمة السنة ومذاهبها . من ذلك ما أورده النويري من وصف للمدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ يقول أنه كان بها أربعة أو اثنين كل منها خاص بأحد مدرسي المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلي والشافعي بالإيوان البحري والحنفي بالإيوان الشرقي والحنبلي بالإيوان الغربي (٢) .

ولم تكن المدارس هي المؤسسات الدينية الوحيدة التي أكتسبت عصر الماليك طابعه الديني الخاص ؛ بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلام المدرسة والجامع في ذلك العصر ، قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة - كما يتضح من اسمها - استهدفت أولاً خدمة العلم وجاء نشاطها الديني ضمئياً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلاً ؛ وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد في التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانوياً ، لأن

(١) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٣٧٤ ( بولاق ) .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية - من فقه وحديث وتفسير - احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الديني في عصر المماليك تطلب إقامة دمالا يكاد يهوى، من المساجد، وبخاصة في مصر والشام. وقد قدر المقرئى عدد المساجد التي تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً، في حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهري بأكثر من ألف مسجد (١). وفي عهد السلطان الناصر محمد، شيد السلطان الناصر وأمرؤه ثمانية وعشرين مسجداً وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بالافتتاحه في حفل كبير (٢).

### التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية في مصر على عصر سلاطين المماليك، هي انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر في ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوي وأبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التي وصل إليها المسلمون في المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق، حيث صادف أسلوهم قبولاً كبيراً في مصر بالذات . والمروف في التاريخ أن حركات العزلة والانقطاع للعبادة تقوى دائماً نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتألمهم لسوء أحوالهم، فيسبحون نهجاً دينياً ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها هسى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم (٣).

(١) المقرئى . المخطوط ج ٤ ص ١٩٠

خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ .

وكان المسلمون في عصر بالذات في القرن السابع الهجري يشعرون بسوء  
أحوالهم نظرا للأخطار التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية  
فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها ،  
وكثرة الفتن واختلال الأمن ؛ فضلا عن تجدد المجاعات والأوبئة بين حين  
 وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين ، فازدادت  
 أعدادهم في سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم الفقراء ، إيمانا في لصق صفة  
الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة  
الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر ، والرقابية  
نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها اللون الأسود وهكذا  
وأقامت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يخلع عليه  
السلطان في القلعة ثم يعادها في حفل كبير وقد أحاط به أتباعه<sup>(١)</sup> . فإذا ارتبط  
أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة  
التصوف ، والتزم المرید بطاعة شيخه طاعة عمياء<sup>(٢)</sup> ، وبالغ بعض شيوخ الصوفية  
في عصر المماليك ، فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم ، ألا يبقى  
المرید تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف في الملابس والمأكل  
حتى بالغ بعضهم في ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش  
بعضة أيام . ولكن بعض الصوفية بالغوا في التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة  
المجاهذ أو الدراويش . وقد اشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم  
الغريبة التي زعموا أنها من الدين ، فخلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه ، وأزال

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشرنافى : لوائح الأوار ٣ ص ٢٤٢ .



رموش عينيه ، حتى بدوا في صورة منخيفة أثارته دهشة من رأوهم من الرحالة المعاصرين (١) .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهي التي أطلق عليها خانات ووريات وربط ودوايا . ذلك أن سلاطين المماليك وأمراءهم عنوا بعناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيّدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والأحوج يقدم للزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتي الفقراء المعتبرين ، كما كان يفضل الأعراب على المتزوج .

وجرت العادة أن يمين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية من عرف بصحة المشايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة (٢) وقد كرات كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها ، بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفية في معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون في وصفها (٣) . أما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون كالمدح للنساء والأرامل ، أي ملاجئ لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أو أواخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس بما أثار استنكار المعاصرين (٤) .

(١) سميّد طاهر : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٦٦ .

(٢) حجة وفت يبيرس الجاشنكيز ( المحكمة الشرعية ) .

(٣) المفريزي : المواعظ ج ٤ ص ٧٧٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) سميّد طاهر : المجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٣ - العصر المماليكي)

### المظفر العباسية :

وثمة عمل خطير تم في عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستنصر العباسي أن يخلقه أحد أبناء بيته في بغداد ، إذ خدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين في البلدان المجاورة أن يفتنموا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم ، مما يعود على من ينجح في ذلك بالمكاثرة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بمطقتها وبيعتها (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبي - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في استئالة أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليماثله خليفة ، ويحظى من ذلك بعض المكاسب السياسية التي تمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث إلى صحبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فنكر السلطان المظفر قطز في إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطي من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول في عين جالوت - بوصول أحد أمراء بني العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

(١) سعيد عبد الفتاح هاشور : الظاهر بغير من ص ٤٧ .

بغداد<sup>(١)</sup>. غير أن العمر لم يعمل فطر لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد.

وقد شاءت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في مصر بالذات. ومما يقال من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس، فإن هذه المشروعات لم تتحقق، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية، وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى<sup>(٢)</sup>.

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس - وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو ناصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي - وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بني مهنا يشهدون على صحة نسبه. وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير، فرد على الأمير البندقدار بأمره بالقيام في خدمته وتعظيم حرمة، كما أمره أن يرسل معه حججا إلى مصر. وهكذا فادر الأمير العباسي دمشق فسار بأوفر حرمة إلى جهة مصر، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالاً حائلاً، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضي القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، لاستقباله. وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهودة ، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان في مكان جميل قد هيء له بها ، وبالغ في إكرامه وإقامة ناموسه ، (١) .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاعة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، في حين جلس السلطان متادباً ، إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربيان ومخادم من البغادة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها (٢) . وبعد السلطان بايع جميع الناس على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بلقب المستنصر بالله ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسي الجديد ، فقد قام بدووه بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) الزويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا في نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعى فى الحكم بعد أن غدوا متمتعين بديممة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفى يوم الجمعة التالى مباشرة صلى الخليفة بالناس فى جامع القلعة ودعا فى الخطبة للملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك ووثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة<sup>(١)</sup> . وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه فى هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للزفة فى النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرا عليهم تقليد الخليفة للملك الظاهر فى اجتماع هام وكان أن عقد ذلك الاجتماع فى المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان والديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريه والحجازية واليمنية والقرانية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا .

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهى حبة بنفسجية اللون وحمالة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس واتجه فى مركب كبير نحو القاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح ووضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وأعداز نصره<sup>(٢)</sup> . على أن هذه المظاهرة الضخمة التى صحبت لإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ،

(١) المرجع السابق

ابن لياس : بدائم الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٢) المعريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحمل دون تشكك بعض المؤرخين في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله .  
من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول في حوادث سنة ٦٥٩ هـ . « قدم إلى مصر  
جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر  
بالله . » كما يقول أبو الفدا في موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة  
الأسود . » أما مفضل بن أبي الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر  
بالله الأسود » (١) .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء  
العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد  
سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة  
التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة  
العباسي أن أصبح شبه معجور عليه في القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسؤولين  
في الدولة دون إذن السلطان وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه  
حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى  
السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما  
عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على  
أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد (٢) . وقد هجر المقرئ  
عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة إن خلافته دليس فيها  
أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين (٣) .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا في عصر دولة المماليك  
الجراكية الخروج عن عزلتهم والمشاركة في الأحداث السياسية المحيطة بهم

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣ .

مفضل بن أبي الفضائل : التيج السديد ص ١٠٥ .

(٢) الألفشندي : صبح الأعمى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) المقرئ : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذي اقيه الخلفاء العباسيون منذ احياء الخلافة العباسية في القاهرة على أيام بيمرس ، أثر في تحريك الخلفاء في الدولة الثانية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك في الثورات التي طفح بها عصر المماليك الجراكسة<sup>(١)</sup> وكان أن تحفقت. مطامع الخلفاء العباسيين في ذلك العصر عندما ولي الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م ( ٥٨١٥ ) ؛ وهي حالة فريدة من نوعها في عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن لإسداء الثغرة ، حتى يتجلى الموقف بين الأمرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التي وضعه بها فيه .

---

(١) إبراهيم طوخال : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

## الفصل الثاني عشر

### نظام الحكم والقضاء

#### النظام الإقطاعي:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معاني الكلمة ؛ فقسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قيراط يربط للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء . وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة ، في حين أخذ المماليك السلطانية الأراضي الأقل خصوبة ؛ أما أراضي الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والتركان (١) .

وكان الإقطاع أمراً شخصياً بحيث لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً في المقطع أن يظل محل السلطان في أن يتمتع بفلات الإقطاع وإيراده فحسب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يستولى على إقطاعه فوراً (٢) . أما المناسبات التي تجرى فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد في الحكم ، فيجرى حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منفع وزيادة وإنقاص - لمكافحة الأناصار ومعاوية الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجنود أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية ٣ قدكتور زيادة .



ويستبعد غير القادرين ويوفر لإقطاعاتهم ليوزعها على الأكفاء القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أو شق قناة أو ترعة ؛ قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات (١) . على أنه حدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا قياسها وحصرها في سجلات ، وتقدير قيمتها وخصوبتها . وتشبه هذه العملية في الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها في عصر المماليك إعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية في عصر المماليك الروك ، وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أما الروك الحسامى فقد فقد تم سنة ١٢٩٧ م ( ٩٦٧ هـ ) واستغرق لإجراؤه مجود ثمانية وخمسين يوما ولكن الأمراء والجنود لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له لإقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، «وبان في وجوههم التغيير لقلعة العبرة» (٢) . وهكذا ظل الأمراء والجنود في حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م ( ٧١٥ هـ ) ، فاستغرق لإجراؤه خمسة وسبعين يوما ، وترتب عليه زيادة أنصبة الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر في الروك الحسامى (٣) .

وفي جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطبايق إلى ميدان الفروسية (٤) . فإذا وقع اختياره عليه

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المرزبى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العيني : مقاد الجمان ج ٢٣ ق ١ ص ٥٤ .

المرزبى : المواظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

لينجحه إقطاعاً أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حين فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد احتص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمراءهم . كذلك روى أن يعين في منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولأجفاده الثلثان (١)

أما الأمراء والمماليك المسنون الدين لا يقوون على تحمل تبعات الإقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمسكوك المفروضة في مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد » . فلما رآك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع ، وصارت الإقطاعات كلها أراض وبلاداً (٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ البروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسماً بين عدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمدوبه المسمى « القاصد » . وفي جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز المظالم أن يرفع أمره إلى الديوان السلطاني أو إلى السلطان في دار العدل (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ .

المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٣) سعيد طاشور : المجتمع المصرى ص ٢٠ - ٢١ .

على أن النظام الإقطاعي لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك ، إذ لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذي اعترى الدولة وأجهزتها في أواخر عصر المماليك . وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعاتهم عن طريق السبع والتنازل والمقاضة . فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل ما لا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذي أدى إلى دخول كثير من الكتّاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش في عصر المماليك يعتمد في نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانهيار دعائمه (١) .

#### السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعي ، وهو في الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها . وقد تلقب سلاطين المماليك بألقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » ، و « قسيم أمير المؤمنين » . ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التمسك بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم ، في حين يلقى اللقب الثاني ضوئاً على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسي في القاهرة ، بوصفهما شريكان في حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب السياسي والحربي ، والآخر يمثل الجانب الديني . هل أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا في ألقاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التي اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا السلطان الأعظم العالم العادل ، وذلك « السيد الأجل الكبير » وهكذا .

(١) السيد الباز العربي : الإقطاع الحربي بمصر ص ٢٢ .

والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً  
مكتمته قوته وشخصيته وكثرة نمائيكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى  
منصب السلطنة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في المهمة  
على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار  
من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ،  
ويباشر سلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين (١) .

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التي تتمتع بها سلطان المماليك أنه  
استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك  
استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم  
في مشور - أى مجلس المشورة - الذى تألف برياسة السلطان وعضوية أنابك  
العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المثين  
وعدد من أربعة وعشرون أميراً . فإذا كان للسلطان قاصراً تولى رئاسة هذا  
المجلس الرسمى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم  
بنفسه في هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيئته  
وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت  
اختصاصات مجلس المشورة في عصر المماليك ، فنظر في شئون الحرب  
والصالح ، ونائب شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى في الدولة .  
على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ،  
أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً  
مطلقاً (٢) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

القاغندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وكان السلطان يقيم ومعه امرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة في عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان لحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور لحواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومواليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيع المال وخرانة الخالص (١) . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما فأقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، بما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذي تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسماطة وصدقات وكل ما يحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المؤمنين له مساعدون وغللمان عديدون (٢) . ومن هذه البيوت الشرايطخانة - أي بيت الشراب - ويحوى مختلف أنواع الاشربة والأدوية التي يحتاج إليها السلطان ؛ والطبخت خاناه وفيه أنواع الآواني والطشوت والاباريق اللازمة لغسل الأيدي والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه وفيه أنواع الفرش والبسط والحيام والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خاناه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خاناه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطبلخاناه وبه الطبول والأوراق وتوابعها ، والحوائج خاناه ويختص بالأسماطة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطاني (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلقندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ - ١٣ .

الدويرى : نهاية الأربع ج ٨ ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .

### النظام الإداري :

بلغت النظم الإدارية في دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والاحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان في شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن في تصريف شئون الدولة ، بل كان « السلطان الثاني » على قول القلقشندي (١) ذلك أنه اشترك مع السلطان في إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب « كاهل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى الأمري » (٢) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنة على نوعين في عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته في مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، في حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السلطنة في نيايات الشام - وهي دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك - فناب كل منهم عن السلطان في وحدته الإدارية ،

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ - ١٧ .

(٢) الأمري : الترميز بالمصطلح الشريف ص ٦٥ - ٩٩ .

واعتبر ممثلاً له في إدارتها . وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان  
- أو نائبه في مصر - في المسائل التي لا يستطيعون الافراد بالبت فيها ، ولما  
كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية  
والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائماً من كبار الأمراء أرباب  
السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية (١) .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكي ،  
وكان لقب أتابك يطلق عند السلاجقة على المؤدب أو المرابي أو الوصي ، ثم  
أصبح من ألقاب التشریف التي تطلق على كبار الأمراء ، حتى غدا في عصر  
المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة  
تمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة  
الضاربة بين كبار الأمراء (٢) . ولا أدل على نفوذ الأتابك وقوته من أن  
كثيراً منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل  
قوتهم . أما إذا ولي الحكيم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك  
الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصوري  
عندما استبد بالسلطان الناصر محمد في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر  
بالآتابك إلى إعلان نفسه سلطاناً سنة ١٢٩٤ (٣) .

أما الودير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومن الواضح  
أن نفوذ الودير في دولة المماليك تضاملاً عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

(١) الخالدي : كتاب المفسد الرفيع ص ٩٠ - ٩٣ (مخطوط) ٩

الفقهندي : صبح الأعمى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها ٩ .

Wiet : L'Egypte Arabe pp . 366—398 .

(٢) الفقهدي : صبح الأعمى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) هل إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة . ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرهوسة ناقصة »<sup>(١)</sup> ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأفلام أو المعتمدين وأطلق عليه وزير الصحبة ، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط<sup>(٢)</sup> . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تلقى في بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك ، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شأناً ، والى القاهرة الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة توصياً عنها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن وإذا شب حريق في العاصمة ، بادر الولى على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الولى للقضاء عليهم ، وإذا تفشى شرب الخمر أمرع الولى إلى مناطق عصر الخمر في القاهرة لمعاينة أصحابها ومصادرة خمرهم ، وإذا نشأ تعاطى الحشيش كانح

(١) مقدمة ابن خلدون ؛ ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدي ؛ المقصد الرابع ص ١٩٦ .



والى من أزع الخدرات بحجة باب الموق وأحرق منتجاتها<sup>(١)</sup> . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة : ورجاله فى صورة حرك دائمة ، فى الهارب طوف معهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافئته ، وفى الليل يتصيد السكارى واللصوص والعاثين للذنب عليهم ومحاكمتهم . هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلاقها ليلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد . ونظراً لأهمية وظيفة والى وخطورة مسؤولياته ، فإنه كان لا يستطيع النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفاً من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك<sup>(٢)</sup> . وقد ساعد والى القاهرة وولاية آخرى ، أهمهم والى القسطنطينية ويشرف على مصر (القسطنطينية والعسكر والمطمانع) ، ثم والى القرائة للإشراف على شؤون القرائة ومنع المساخر فيها ، وأخيراً والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلاقها فى المساء<sup>(٣)</sup> .

وثمة مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل النيابات الشامية ؛ هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٣٦٥ وأصبحت ثغر مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثرت عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسماً خاصاً من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية فناسب ما لا نفر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تهويل مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ بالذات من ولاية يحكمها والى إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الانتباه ؛ وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلاً عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الصليبية الشهيرة على الإسكندرية ،

(١) القرينى : المواظع ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدى : المقصد الرابع ص ١٢٨ .

(٣) سميرد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٢ .

أثر في هذا التحول (١) .

إما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والفرنية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفود والنستراوية، وحوكم كل منها والى ما عدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب في زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة، هو تخوفهم من كثرة الأعراب وما يقومون به فيما من فتن وفورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها هى الجزيرة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسبوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملاقا بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا في عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما في دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا . وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف « والى الولاة » ، وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، فى حين كان أرباب القلم

(١) القاشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ج ٤ ص ٢٤ ج ٩ ص ١١ ص ٤٠٥ .

(٢) القاشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين - كبارهم وصغارهم - لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في عصر المماليك ؛ وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءاً من الطابع العام الذي انصفت به دولة المماليك . وكثيراً ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون وأوهام ، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة ، وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

### الدواوين :

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية في عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاوص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى في دولة المماليك ، وهي الدولة ذات الصبغة الحربية ، والتي اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . وانهم طبيعة عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكي تألف من ثلاثة طوائف أساسية هي المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم التلقيندى بأنهم « أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم قوم الأمراء رتبة بمدرجة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

(1) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 86 .

(٢) التلقيندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتي الطائفة الثالثة التي تشمل عماليك الأمراء ، وهم المماليك الذين اشترىهم أمراء المماليك - كل حسب مسمته ورتبته وإقطاعه - وتمهدوم بالتربية والعناية (١) .

وأشرف ديوان الجيش في دولة المماليك على هذه الطوائف الثلاث التي تألف منها الجيش المماليكي ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء وبمخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير في ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلقشندي ، وصار لكل أمير ديوان خاص ويحمل يسمي أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته ممالك جدد إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش في دولة المماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان - الذي عرف باسم ناظر الجيش - فكانت وظيفته أهم الوظائف في الدولة ، وكان يماونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجنود وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق وأشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية . واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً الأمانة العامة والكفاية المطلقة (٣) .

(١) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية من ١٤٤٥ .

(٢) السيد الباز الريني : الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك من ٦٠٠ .

(٣) الخالدي : المقصد الرقيم من ١٣٦٠ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها؛ فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء في عصر المماليك بناظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودخائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا يطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم<sup>(١)</sup>. وروعي في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون « فصيح الألفاظ طالق اللسان أصيلاً في قومه وقوراً حليماً... »<sup>(٢)</sup>.

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولاً فأول، ويحضر — بحكم منصبه — العيين التي يؤديها الولاة والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب. ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد البروتوكول والتسلك بهذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أوحاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ورتبته. بل إن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت في نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانه الشخصي المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندي صفحات كثيرة في كتابه صبح الأعشى. ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم « نائب كاتب السر »، الذي ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٦٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥.

هني ناظر الديوان في الرد عن المكاتبات الواردة في حالة تغيب الناظر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان (١). ويلى نائب كاتب السر في المرتبة كتاب الدست الشريف، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجالس السلطان بدار العدل، ويوقعون على الشكاوى والقصاص المرفوعة إليه (٢).

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، واشترط فيه الدارية الخاصة بألقابهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان، ويشترط في هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشتهر بحسن الخط على أنواعه وارتبط بكاتب السر في عمله موظف كبير اسمه الدوادار، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذى يختتمها بنخاتم الدولة ويقيدها في سجلات خاصة (أرشيف)، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة في عصر المماليك، وكان اختياره دائماً من كبار الأمراء (٣).

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء، هي إدارة البريد التى تولت ربط مختلف أطراف الدولة بعضها ببعض. وكان البريد على نوعين: برى وجوى، فالبريد كان بواسطة الخيل

(١) الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٣٤.

(٢) القلقشندي: صيغ الأعيان ج ١ ص ١٣٨.

(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠.

الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٢١.

القلقشندي: صيغ الأعيان ج ٥ ص ٤٦٢.

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعيناب والإسكندرية ودمياط  
وغزة وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريديين  
وخيوطهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء وماوى. ومن الواضح أن مهمة  
هؤلاء البريديين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان  
إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين. وربما كانت هذه التعليمات  
شفوية ؛ ولذلك روعى في البريدى أن يكون بصيرا بمخارج الكلام  
وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك عما فيها ، صدوقا بريئا من الطمع (١) ، أما  
البريد الجوى فيرجع الفضل الأول فى تنظيمه إلى السلطان الظاهر بيبرس ،  
فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد  
روعى فى الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق  
الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران  
السريع . وكانت الرسالة توضح تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة ، فإذا  
كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلت  
إحدهما الطريق أو قتلت أو افسرتها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة  
الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ،  
بميت إذا وصلت رسالة مع حمامة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان  
وهرضت عليه (٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد  
لتكون بمثابة محطات ، ولطه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حمامة  
من هذا النوع إلى البرج عرفوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبعثوا بها إلى البرج  
التالى ، فى حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .  
أما الديوان الثالث فى الإدارة المالية فهو ديوان الأقباص (الأوقاف) ؛

(١) اللؤلؤندى : صبح الأهمى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ، كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوسة عليها . وكانت شئون الأحياس فى العصر الأيوبي من اختصاص القاضى ، ولكن المماليك قسموا هذه الشئون إلى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمية ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالباً قاضى قضاة الشافعية - ، ومنها ما اختص بالأوقاف الأهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالباً من أولاد الوانف ؛ ومنها الأحياس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدوادار وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف فى عصر المماليك على الحوانيت والحانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة - كما كان الحال فى العصور السابقة - وإنما اتسعت الأوقاف فى ذلك العصر حتى شملت كثيراً من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختص بمراقبة حسابات الدواة، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقداً ، حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

(١) المرزبى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٦ ( بولاق ) ٤

الحالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٢) عبد الطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك ،

ص ١٣٤ - ١٣٥ .



أصنافاً مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يومياً ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهرياً ؛ أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقرئى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلام قدراً ؛ إذ صار له دأمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الخمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمراً عظيماً ، (١) لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصير في بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢) .

وتفرع على ديوان الناظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديواناً أطلق عليه « ديوان الخاص » ، الإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزانة السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو القب الذي حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣) .

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت صهر الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون - وبخاصة القلقشندي والمقرئى - ؛ مثل ديوان الطواحين ويشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأهرام ويشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بهركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٤ ( بولاق ) .

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سعيد طاشور : عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٥ .

المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » في عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العماير وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

### القضاء والمظالم :

أما مشون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع المشون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضي القضاة الشافعي بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقرئ أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ؛ ثم يليه الحنفى فالمالكي فالحنبلي .

أما الجيش المماليكي فكان له قضاء المسكر ، وهم مختصون بمشون الجنود وليس لهم ولاية على غيرهم ؛ كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين المسكر والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة المسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعي والحنفي والمالكي ، وأحيانا كان يوجد قاضي حنبلي . وكان قضاء المسكر يحضرون

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة ، كما جرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، أملمته كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التي لم تفت عند حد الفصل في قضايا الأحوال الشخصية ، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون اليتامى والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا في المساجد وأحيانا في دور القضاء إذا وجدت . وعند افتتاح جلسة القضاء ، يتقدم المتقاضون أمام القاضي وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء . وكان يساعد القاضي عدة موظفين منهم الجلوازالذي يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة ، كما يقوم بتقديم المتقاضين حسب دورهم ؛ وربما حمل في يده عصا أو سوطا يضرب به كل من يحاول الإخلال بنظام الجلسة . أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب القاضي واستئذانه في دخول الزائرين عليه ، في حين قام الأعوان بإحضار الخصوم إلى المحكمة (٣) . وأدى ازدياد المتقاضين في ذلك العصر إلى صعوبة مهمة القاضي ، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون السجلات والعقود ويذكرون الشهود . وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى والأحكام ، كما قام الترجمان بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين ، إذا كان هؤلاء لا يعرفون العربية (٤) .

(١) القلائد : ص ٤٦ ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) المفريزي : المواظ ج ٢ ص ٩٢ ( بولاق ) ٩

القلائد : ص ٣٤ ج ٩ ص ٣٥ - ٣٥ .

(٣) السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود من نوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٩ - ١٣٥ .

وكانت هناك محكمة عليا في عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، ففهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر في المظالم ؛ أي القضايا التي اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو تلك التي تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تمهد برئاسة السلطان نفسه في يومى الاثنين والخميس غالباً من كل أسبوع . وكان السلطان في الوقت المحدد للنظر في المظالم يجلس في دار العدل - أو بعد ذلك في الإيوان - على كرسي من الخشب المغنى بالحجر ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفي والحنبلي . ويلى القاضي المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي فالحنفي فالمالكي ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الخمسة (١) . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضي الحنبلي الوزير ثم كاتب السر . وهكذا استدير الحلقة ويقف وراء السلطان بمالك صفار من السلاحدارية والجدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً تقريباً ذور السن من أكابر المثمنين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفاً . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادرية معرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها ثم تقرأ الشكاوى واتقصد على السلطان ، فإحتاج منها إلى مراجعة القضاة مشاورهم السلطان فيما يرجع إلى ما يقولون (٢) ، وما يتعلق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر في الباقي بما يراه . وعلى مر الزمن اقتصر جلوس سلاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لالتى سوى لإثارة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودي أن أحداً لا يتقدم بشكايته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولاً ، فإذا

(١) سميد عاشور : المجتمع المصري ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضي شعبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢٠ .

لم ينصفوه ذهب إلى السلطان ومن خالف ذلك عوقب (٢).

وكانت وظيفة المحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية في تلك العصور حتى أنه كان يحدث في كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضى يتصف بشيء من البطء لأنه يقرم على التورية والأناة والتثبت من صحة الوقائع ، فإن عمل المحسب قام على أساس سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالأداب العامة ونظام الأسواق ومرافعة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٣). لذلك ذاب المحسب - ونوابه - على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموابين والمكاييل والمقاييس والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور ، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات ، فن وجدده المحسب وقد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشترا بزانة ، أو خرج من معبود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة فقاه حتى يضعف منه المجلد ، (٤).

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التي كانت توقع على المذنبين في عصر المهاليك . وأولى هذه العقوبات السجن في أحد سجون ذلك العصر التي وصف المقرئى بعنتها وبالظلام وكثرة الوطاويط والروائح

(١) ابن لياس : بدائم الزهور ج ٢ ص ١٢٩

أاريخ ابن الفرات : ج ١ ص ١٧

(٢) الفلشندي : صبح الأمشى ج ٤ ص ٣٦

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥

وجدير بالذكر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محسبين هم محسب القاهرة وله التصرف بالحكم في القاهرة والوجه البحرى كله ؛ ومحسب مصر (الفساط) وله التصرف بمصر والوجه القبلى كله ؛ ومحسب الاسكندرية وقوزه قاصر على النهر .

انظر الفلشندي : صبح الأمشى ج ٤ ص ٣٧

المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٤١٥

السكرية والقبايح الممولة» (١) ، وبعد ذلك تأتي عقوبة التشهير والتجريس وهي أن يطاف بالذئب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه ويزفه المنادون ليجتمع الناس حوله ، وفي نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصر أعضاء الذئب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه ، أو خلع بعض أضراس الذئب وأسنانه ودقها في رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه ، أو لإجلاله على مقعد معدني محي بالنار وغير ذلك من العقوبات (٢) .

---

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .  
(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٩٨ - ١٠٠ .

## الباب الثالث عشر

### الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهي التي يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التي تتطلب دقة فائقة وعبقريّة راقية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقى الفنون في أى زمان ومكان إنما ترتبط ارتباطاً شديداً باقتصاد الحياة الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير - مثله مثل الرجل الفقير - يفكر أولاً في أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوعاً من الكماليات لا فائز لها من المال والجهد ؛ وإذا اضطرت ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض المآثر والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجتهد دائماً للسهولة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق فرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغنى - فمثل الفرد الثرى - يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائز أمواله فيتميز في ابتكار الكماليات : وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ في الإنفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه في هذه الحالة ومطمئن تماماً إلى أنه سيجد الجراء الأوفى ، وسيكافئ مادياً بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذي يترتب عليه رقى الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا في صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة انصافها

دولة الممالك هي الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة الممالك كانت هزمة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ؛ الامر الذى عاد على المجتمع المصرى - حكاما ومحكومين - بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين الممالك مضطرين إلى إنفاقه فى شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغى ألا تغيب عن بالنا هي أن معظم حروب الممالك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . وتفيض المراجع المعاصرة فى شرح الاموال والغنائم التى غنمها الممالك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين فى الشام - وفى قبرسى - أو الارمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقرئى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالطاسات ، (١) . ومهما يكن فى هذه الآراء من مبالغات فهى تفيدنا أن الحروب الواسعة التى قام بها الممالك لم تكن عملية خامرة على طول الخط وأنها لم تستنزف جزءا كبيرا من الموارد الضخمة التى نعمت بها الدولة .

وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعمت بها دولة الممالك ، هورق الفنون فى ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التى يخرج بها دارس تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، هي أن الحياة الفنية بلغت فى عصر الممالك بالذات أسهى درجات الرقى والروعة . وما زالت التحف الفنية الرائعة التى تزخر بها دور الآثار فى العالم التى ترجع إلى عصر الممالك ، فضلا عن المهار المماليكية الفائقة الحسنى - من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها - تشهد برقى الحياة الفنية فى عصر الممالك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن تلقى نظرة طامة سريعة على أركان الحياة الفنية فى عصر الممالك لتدرك مدى أهمية ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ .



العصر في تاريخ الفن الإسلامي بوجه عام (١).

### المهارة:

يقول الدكتور زكي محمد حسن: «لا ريب في أن عصر دولتي المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيمًا على تشييد المعابر، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة. كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من وجوهات ومنازل وقباب وزخارف جصية ورخامية» (٢).

ونستطيع تقسيم المعابر في عصر المماليك إلى دينية ومدنية، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس. وكان الجامع مربع الشكل عادة، يتألف من محن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران، وأكبرها إيوان القبلة. وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صغر مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف. ومن أجمل المعابر الإسلامية في مصر والشام إطلاقًا جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون، الذي استغرقت عمارته ثلاثة أعوام أتمت سنة ١٣٦٣ أي بعد وفاة صاحبه بعامين. وقد جاء هذا الجامع في اتساع مساحته وروعة تصميمه وجمال زخارفه، آية فنية يفخر بها الفن الإسلامي إطلاقًا. وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحمدي (٣)، الذي استطاع أن يجمع فيه بين الأصايب الفاتحة في فن

- 
- (١) اعتمدنا في العرض التالي بصفة رئيسية على مؤلفات مرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقًا.
- (٢) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧١.
- (٣) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨٠.
- (٢٥ - العصر المماليكي)

العامة والزخرفة في عصره، ويعزى لها على نمط جمال المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جمالية متماسكة. ولهذا المسجد مارتان عظيمتان في الجناح القبلي الشرقي، وكان المفروض أن يكون للمسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى باثنتين فقط بعد أن اهارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها. وامتازت المآذن في جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاققتها وتوسط ارتفاعها.

ومن العمارات الممالكية الجميلة قبة ومدرسة وبيارتان السلطان قلاون، وهي المجموعة التي تمت عمارتها سنة ١٢٨٥. وأجمل ما في هذه المجموعة القبة التي دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد، وهي تتميز آية من آيات الفن الإسلامي، إذ أنها محاولة على أحمدة من الجرايين ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف، أجزاؤها السفلية مغطاة بالنسيفساء الجميل (١).

ومن أهم العمارات ذات الصبغة الدينية في عصر المماليك الجراكسة، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠، وقد روعى في تصميمه أن يكون على هيئة تمجع يضم مسجدا كبيرا وحضريا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وعائقاه لله وفيه، ولذلك اجتمعت فيه مختلف الظاهر العمارات الدينية. ويتألف المسجد في هذا البناء من عمن يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي ينتهي شرقا بقبتين مزخرفتين بزخارف بارزة تمسكها قبة تالفة فوق المحراب. وسقف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية من الأجر، ومحاولة على عقود سرفوعة مديبة. أما حروف الخانقاه فهي كثيرة ومعظما فوق الإيوانات البحرية والقبلي (٢).

كذلك يعتبر مدفن قايتباي بالصعراء الشرقية بالقاهرة من أهم العمارات

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق ص ٧٧.

الباقية من عصر المماليك الجراكمة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وثبة . وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذي خشبيحة جميلة وحوله أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذي يقع المدفن قبله ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة (١) .

أما المآثر المدنية في عصر المماليك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذي يرجع إلى سنة ١٢٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم اندخل القاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتماز هذه القاعة بحال صقونها المنحبة وبالفسقية الزجاجية التي تتوسطها ؛ فضلاً عن وزرتها الزجاجية الدقيقة وإبداع ما فيها من التنجف والأدوات الخشبية ذات الزخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجري ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المدخل والتساعة الكبيرة ذات السقوف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفيما هذا التصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومدخل وكالة قايتباي بباب النصر ، فضلاً عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذي لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام الملون وجميع هذه البقايا وغيرها - مع قلتها - إلا أنها تشهد بسمو الذوق الفني وروعة البناء (٢) .

### الرسم والتصوير :

أما من الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة في الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ - ٨٤ .

لما فيها من اتجاه وثني يرتبط بعبادة الأوثان ، ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية في تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النبات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربي صالح للزينة والزخرفة بطبيعته ، فاستغل الفنانون المسلمون ذلك الخط في كتابة عبارات بالخط السكوفي الجميل على الجدران أو الأواني أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً عن تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم التي تشهد جميعها بمدى رقى هذا الجانب من الفنون عندهم .

وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف ورقيها ، فضلاً عن أن هذه الرسوم انصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر الميلاد ، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير إلى أراضى دولة المماليك في الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضى كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلاً عن إحياء الخلافة العباسية في مصر ، جعل دولة المماليك قبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ومن ثم امتازت التصاوير التي أنتجتها مصر والشام في عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد الأخرى التي حكمها التتار (١) .

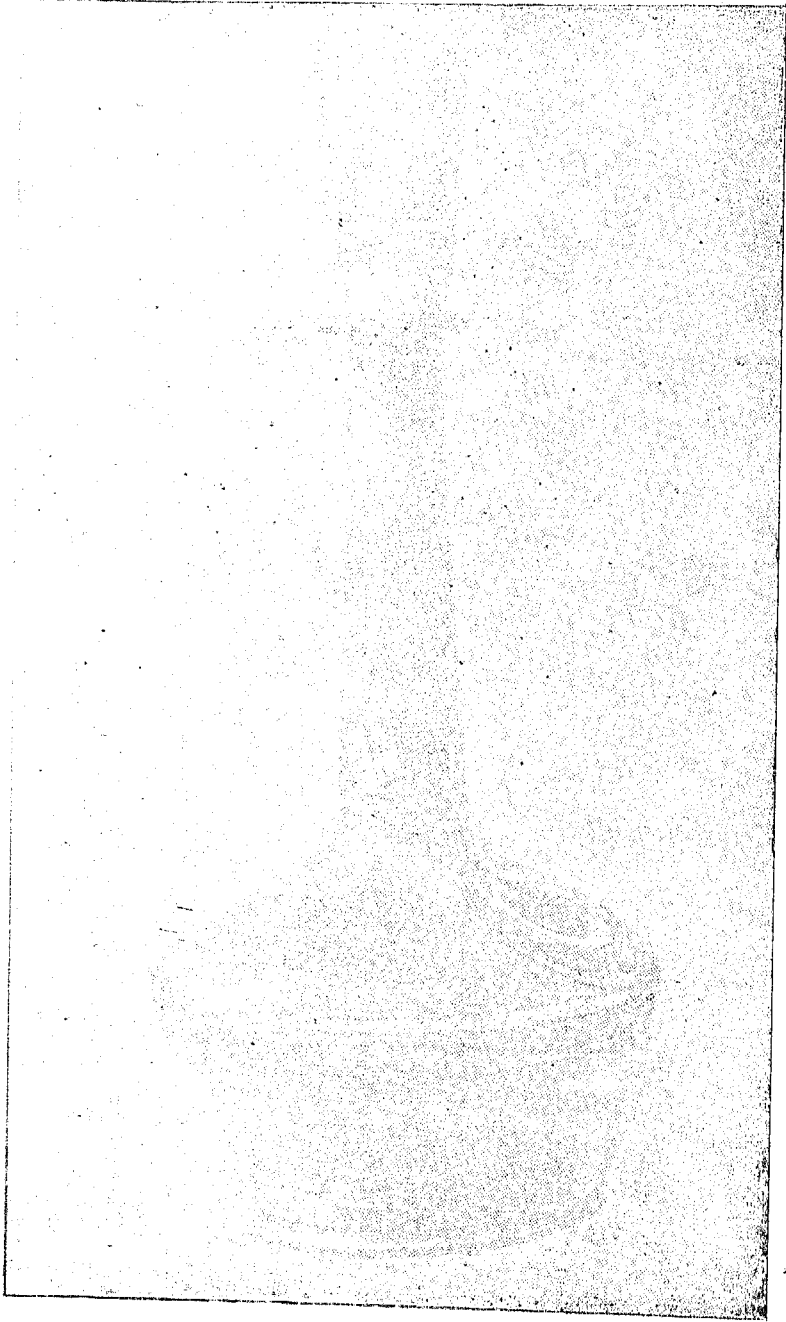
ففي العمارة المماليكية نجد إيوانا المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفت بزخارف جميلة ، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلاً عن بعض الآيات

(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى في العصور الوسطى ص ١٦٥ .



قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر الماليك .  
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش

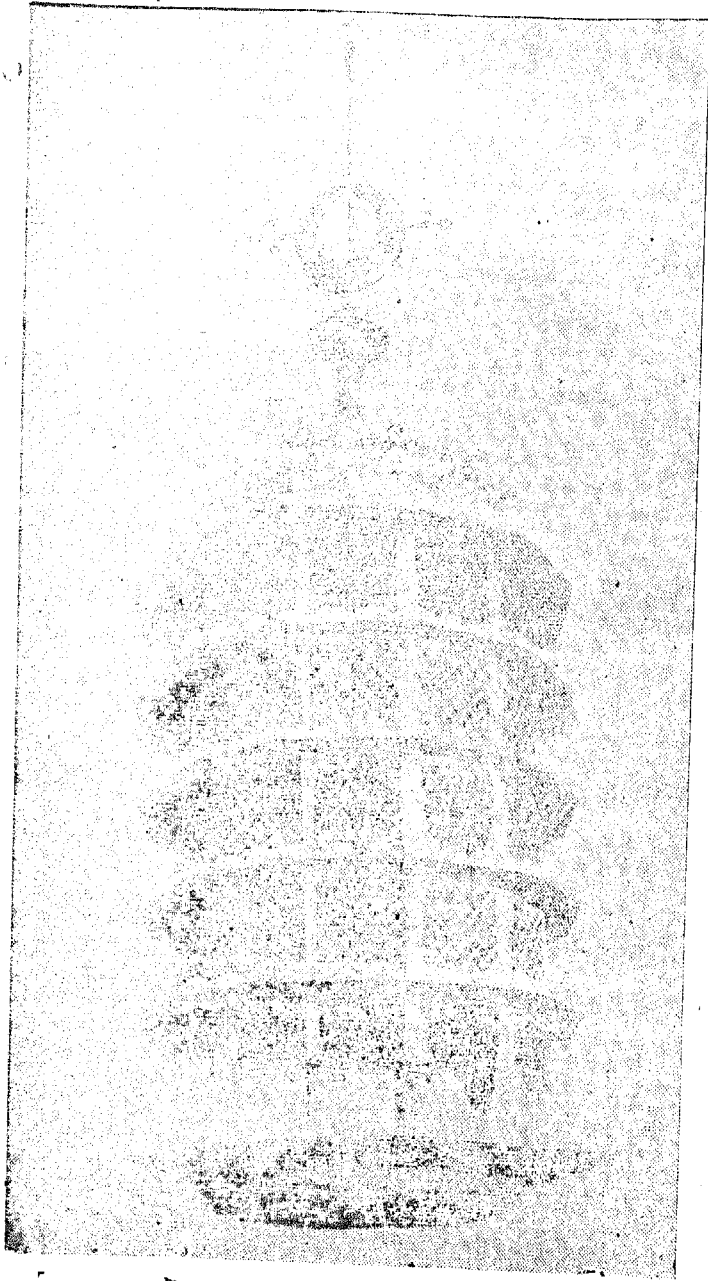




إناء جميل صنع في الشام في عصر المماليك وهو من الزجاج الموه  
بالمفص المتعددة الألوان







تريا من النحاس باسم أحد أمراء الممالك وعليها اسم الصانع الذي  
ذكر أنه أتت في أربعة عشر يوما .



القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجميل المزخرف . كذلك عن المايك بزخرفة سقفوف مبانيهم بالرسوم المذهبية وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو تكسى بالرخام الملون وكذلك الأرضيات أما واجهات المباني من الخارج فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو دعاميك أفقية بحيث تكون طبقة منها صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التنوع في مجال الرسم والزخرفة في عصر المايك على العمار وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور ، فضلا عن أخلافة الكتب . أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً في الشام ومصر في عصر المايك ، ولشهد على ذلك كثرة الألوان التي لدينا والتي تمتاز برسوم الحيوانات والطيور فضلا عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية الجميلة (١) . وبعض هذه الألوان عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحيط بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية ووريقات وزهور باللونين الأبيض والأزرق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر المايك ومزخرفة بالمينا البارزة عن سطح الطلاء ، وبعض هذه الزخارف توأمها عبارات دعاء بخط النسخ أو رنوك مختلفة الأشكال كالنذر أو السبع أو النمر (٢) .

أما زخرفة النسيج في عصر المايك فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة من الروعة في عصر المايك وأجمل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية والتي ترجع إلى عصر المايك مصنوعة من الحرير ، وانخذت زخرفتها شكل عبارات مثل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ولعمة مخلدة » ،

(١) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65 . ( 1944 ) .

(٢) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٤٢٣ - ٤٢٧

و«السلطان العالم» و«عز ملولانا السلطان الملك الناصر» و«دائه». وكانت هذه العبارات في النسيج تحيط بها زخارف أخرى تمثل أوراق الفجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالاً أو بعض السباع (١). كذلك يوجد بمختلف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك كتبت عليها عقود زواج، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود (٢).

والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت في عصر المماليك؛ فصنعت في ذلك العصر كثير من الصناديق والتريات والطاسات والأواني والكراسي المعدنية وغيرها. وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة. وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفي أو خط النسخ، مثل «عز ملولانا السلطان...»، و«المقر العالی المولوی الامیری الکبیری الغازی...»، و«الملك الأشرف قايتباي عن نصره...». وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة في مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك، أو رسوم آدمية كرسوم صياد يستخدم الباز (٣).

وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه في عصر المماليك في ناحيتين، الناحية الأولى هي ناحية الزجاج والبلور، والناحية الثانية هي أغلفة

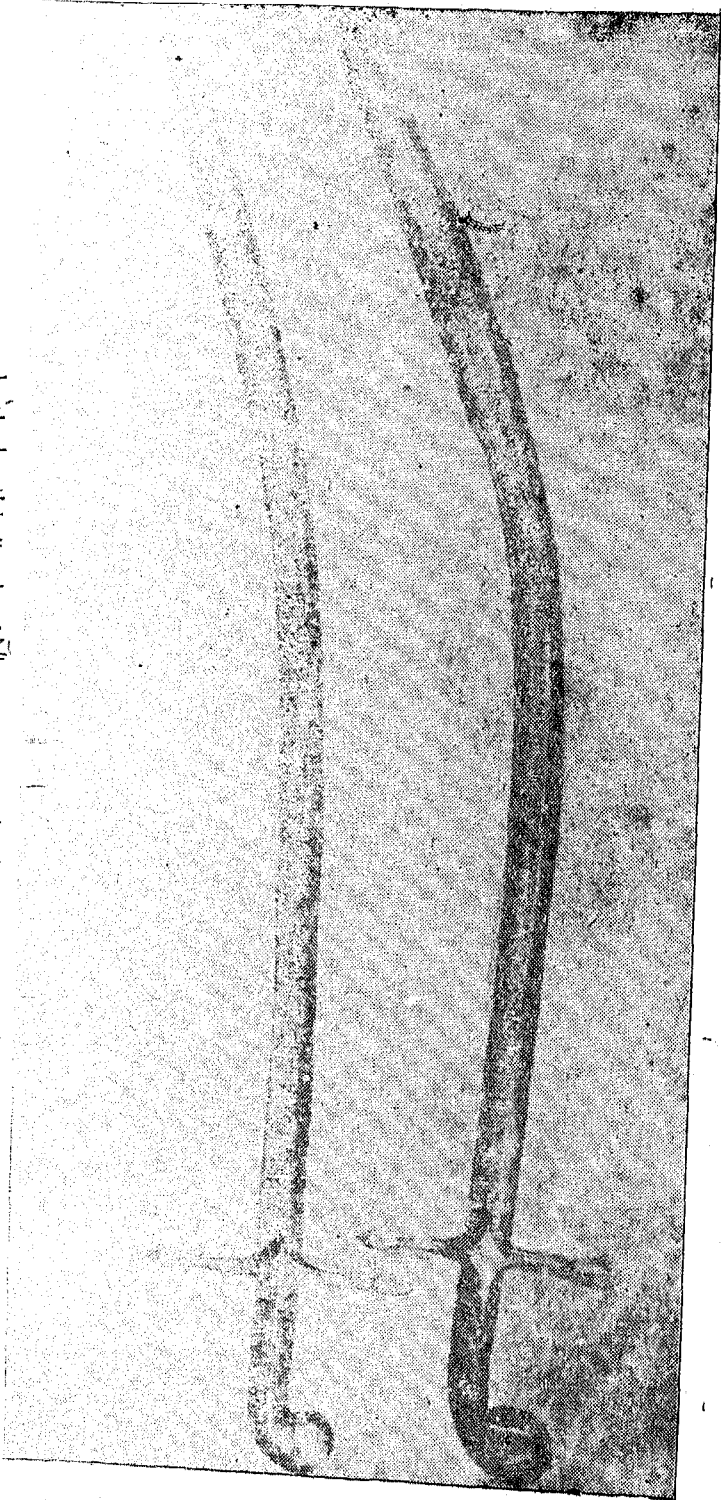
(١) انرجم السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤

فنون الإسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٨.

(٢) سعاد ماهر: عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها.

(٣) Wiet: Objets en Culvres, p. 272 &

زكي محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ - ٤٦٥.



سيفان احمد، باسم السلطان قاضيه الغوري، والأخر باسم السلطان جلومان باي  
وعاشن الملب، الزين بزخارف، وكتابات مسكته بالذهب





مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهي من الزجاج المموه بالمينا  
وعليها كتابات من القرآن الكريم بالخط النسخ





السكرتيب أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكورات الباقية لدينا من عصر المماليك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومزخرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عز لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عز نصره » أو آية قرآنية مثل « وقال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ، أو دقة نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » . وحول هذه الكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللوتس والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم زواجا وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور<sup>(١)</sup> .

وأما عن زخارف أغلفة السكرتيب ، فمعظمها في عصر المماليك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارعة . ذلك أن جلدة الكتاب في عصر المماليك امتازت بزخارف هندسية متشابهة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضمبوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضمبوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريقات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذي نجد منه عدة نماذج في متحف المنزوبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر المماليك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين بواطن جلود السكرتيب بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحيانا أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن في أوائل القرن الرابع عشر<sup>(٢)</sup> .

وكان من الطبيعي أن يختص القرآن الكريم بحوزه كبير من عناية الفنانين في ذلك العصر ، فعزوا بتذهيب المصاحف وتفننوا في زخرفة أغلفتها ، الأمر الذي

(1) Wiet : Lampes en Verre émaillé, pp. 67-100 & .

زي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية من ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٢) ديماوند : الفنون الإسلامية ص ٨٧

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتي يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك الذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو في غلاف المصحف أو فاتحته فحسب ، وإنما تظهر كذلك في سائر صفحاته ولا سيما في فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتب المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩م (٥٧٧٠) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة في غرة هذا المصحف ساحة من مربع ، فوقه وتحتة مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه . أما الشريطان العلوي والسفلي في الساحة ، ففهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات مفصصة المحيط ، وتضم هذه الجوامت كتابة بالخط الكوفي من سورة الشعراء . وفي المربع الأوسط في الساحة إطار يضم ثمان مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . وبعد الإطار مربع داخلي قوام الزخرفة فيه طبق نجمي كامل الشكل ، غنى بالرسوم النباتية الدقيقة في النجمة التي تتوسطه ، وفي الحشوات السداسية الأضلاع المورعة في نظام إشعاعي ودائري حول النجمة . وفي الإطار الخارجي فروع نباتية ووريات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين فحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربي جميل ، وزهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربي . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل محفوظة في المتحف القبطي ونسخت في دمشق سنة ١٣٤٠ ، أي في عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصصتان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريات فوقها في المنطقة العليا بالخط الكوفي « الإنجيل الطاهر » ، وفي المنطقة السفلى « والمصباح الزاهر » بدوع ... ، وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفي وسط كل منها رسم صليب اتخذت عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والوريقات الدقيقة ، وتحتصر هذه الأشكال بينها شكلا نجميا مؤلفا من مهيئين متداخلين وفي وسطه رسم وردية . وحول هذه الأشكال جميعا وفي إطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجردة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسبقان الواقعة في الإطار الخارجي والتي تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة في ذلك المخطوط لا تختلف في أسلوبها الفني عن زخارف الصفحات المذهبة التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا في الرسوم المذهبة ولكنها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامي<sup>(١)</sup>.

#### النحت والحفر :

أما فن النحت في الحجر والرعام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ؛ فإن أهم ما تتصف به هذه المنشآت هي الزخارف والنقوش الفنية التي تحلى جدرانها وسقفها ، فضلا عن المقرنصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمنحوتات الجصية والحجرية في الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا ظاهرا ، واقتصرت في أغلب الأحيان على الأشرطة والألواح المنقوشة التي زين بها المبني بحسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التي مازالت موجودة في مسجد الطاهر ببغداد ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف في عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التي تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثلا

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ - ٥٠٨

رانماً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر<sup>(١)</sup>.

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منجوتة نحتنا دقيقا . ويوجد مدار الآثار العربية في زمن الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر للميلاد ، وسطح الزير من ين بزخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي وفي أسفلها عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي نراه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباطا متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذنان دقيقةتان ومدببتان وعينان ملوستان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع ونكاله<sup>(٢)</sup>. كذلك تجلى فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الغنية بزخارفها النباتية ، فضلا عن الشبائيك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك ، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخزانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المراوح النخيلية والفروع النباتية والوريقات ، فضلا عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمناً وأندر وجودا كالآبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يزخرف بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٣٢ - ١٣٣

(٢) زكي مدحت حسن : فنون الإسلام ص ١٣٢ - ١٣٣ ،

في عصر المماليك صناعة مشربيات الزفاف من الخشب المخروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصري في ذلك العصر . أما الخزانات والدكاك والكراسي ؛ فيوجد منها عدد كبير يدار الأثار العربية وكما تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وصمو الذوق الفني (١).

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر في زخرفة الأبواب والمنابر . وتحتوى المتاحف الكبرى في أوروبا - فضلا عن المتحف الإسلامى بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التى ترجع إلى عصر المماليك (٢).

#### الفنونه الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التى يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجميل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقى الصناعة في عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التى ظهرت فيها مهارة الصانع وصمو ذوقه الفنى في ذلك العصر .

ففي صناعة الخزف بلغ الصانع في عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أنتجوا لنا أنواعاً رائجة من الخزف أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبى وغزال ودمين والأسماذ المصرى وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام من ٤٦٧ - ٤٧٤

(٢) ديمانيد : الفنون الاسلامية من ١٣٢ - ١٣٣

من الفخار المظلي بالينبا ؛ وعجينة هذا الفخار ماثلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يعلوها دهان بالينبا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البني ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة في بيوت الأسراء .

وفي صناعة النسيج أتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التي أشار إليها الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك . وانصف السجاد المصري في ذلك العصر بجمال ألوانه ومناة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما في صناعة الخشب فقد أبدع النجارون في صناعة التحف الدقيقة مثل المنابر والدكك والكراسي والحوامل والصناديق والخزانات وغيرها ، وفطرت مهارة النجارين في ذلك العصر في حفر الخشب وتطعيم مشواته بالعاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف غالباً من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصر في عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت في ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها عاب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت في الأخرى درجة فائقة من الدقة تدل عليها مختلفات ذلك العصر من أبواب وشهدانات وكراسي وهاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج لاذ صنعت مشكيات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، وعمود بالينبا . وأبدع نماذج لهذه المشكيات صنعت في الشام ومصر حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلاد ، وبالإضافة إلى المشكيات العديدة صنعت

في ذلك العصر كقوس وقذبات وآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها في ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر الممالك كان عصر نشاط فني ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتقت في ذلك العصر إلى أسى درجات الرقى والافتقار .

والحمد لله رب العالمين





## كشاف

شرح أم المصطلحات الواردة في مراجع العصر المالكي

(١)

الأبازرة :

تجار البذور .

( المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤ )

أنايك ( أطابك ) :

مقدم المسكر والقائد العام للجيش المالكي .

( القلقشندي : صبح الأهنى ج ٤ ص ١٨ )

أجناد الحلقة :

محترفو الجنديّة من ماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب  
فئات الماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة ، ومرئياتهم  
من ديوان الجيش .

إخوان سلاز :

وظيفة بالمطبخ السلطان يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى  
السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ  
السلطاني ، وهو يقوم مقام المهتر في غير المطبخ من البيوت  
السلطانية .

( القلقشندي : صبح الأهنى ج ٥ ص ٤٧١ ) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة  
يقصد بها الحریم السلطاني . والآدر كذلك من ألقاب الشریف التي  
تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من علية النساء  
دون ذكر أسماءهن .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ،

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ - ١٢٢ )

الادعاء في الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدئ في الصيد لا يصير في زمرة هواة الفن  
إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه  
ادعى لفلان أي انتسب إليه .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣ )

أرباب الخيال :

( انظر الخيال )

أرباب الضوء ( الضوية ) :

الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

أرباب الملعوب :

أصحاب الملاهي المعروفة من المناطقين بالكباش والمنافرين  
بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمنافقين والملاكمين والمشاهكين ..  
والقرادة والدبابة الذين يلعبون بالقرود والدب ... ،  
( المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ) .

### الارتفاع:

ما يتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى  
ما يتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .  
( المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ ، ١١١ )

### اسباسلار ( اسفهملار ) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمرأة الطلبة خاتناه فى عصر المماليك ، على  
أن هؤلاء الأمرء لم يلبثوا أن أهرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا  
أن العامة يظفونه على بعض من يقف بباب السلطان من الأعوان .  
( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ - ٨ )

### الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت  
السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والفلمان . وله  
مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من  
النفقات والكماوى وما يجرى بجرى ذلك من المماليك وغيرهم .  
( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٥٧ ،  
أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ حاشية ١ ) .

### أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح الممالكى على السيد الذى اشترى المملوك  
بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية  
- التى تربط المملوك بأستاذه - من أقوى الروابط فى نظام المماليك ،  
حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أساتذتهم ، فيقال مثلاً يبير من البندقدارى  
نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

استيفاء الصحبة :

( انظر مستوفى الصحبة ) .

الاستيجار :

السجل الحكومى الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقالام وغيرهم ،  
مياومة ومشاهدة ومسانة من الرواتب ... ،  
(المقرزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٦ ) .

الأسطول :

بجوهة مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد  
فقط . والأسطول هو المسكرى الذى يعمل فى البحر .  
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧ ) .

أسلى :

وجمه أسامة . ويقال أيضاً مسلمانى وجمعه مساملة أو مسلمة . ويقصد  
به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .  
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣ ) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها القلقشندى  
فى الترتيب بعد نيابة السلطنة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً  
ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، ولأن  
كان من الثابت أنه تولاها عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن  
صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(القلقشندى : صبح الأهدى ج ١١ ص ١٥٢ - ١٥٥ ،  
المقرزى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١ )

### أشكر لاط :

نوع من القماش أحمر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### أصحاب الأرباع :

الأرباع جمع ربع ، وهي أقسام أو أحياء المدينة الآهلة ، وأصحاب الأرباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلاً .

### اصطبل :

مجموعة من المبانى يبنىها الأمير المملوكى لسكنه وسكن أسرته وعماله وخيوله .

### الأطلاب :

الحرس الخاص لأمراء المماليك ، ويحملون سلاحاً كالاجناد .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٢٩ حاشية ٢ ) .

### الأطلس الخطائى :

نوع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمالى الصين .

( Dozy : Dict. Ar. )

### إقامة :

وجمها إقامات ، ما يلزم الجنود من المؤونة والملف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥ ) .

### إكديشن :

وجمها إكديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينتسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اصطبل السلطان أو الأمير  
ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .  
زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٣٨ حاشية ( ٣ ) .

أمير جاندار :

( انظر الجاندار ) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد .  
كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب  
القشريف .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٨ ) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك  
كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ج ٥ ص ٤٦١ ) .

أمير طبلخاناه :

مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية ، صاحبها  
يلى أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لاحقيته  
في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المؤمنين . ويطلق  
على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته  
أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ( ١ ) .

أمير عشرة :

مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة ماليك . ويكون صفار  
الولاية من طبقة أمراء العشرات .

أمير علم :

هو الذي يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية، ويشترط  
فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من الواكب السلطانية.  
( القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٥٦ - ٥٨ )

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء في عصر الماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب  
السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت  
مقدم على ألف جندي من أجناد الخليفة في وقت الحرب .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١ ) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير . كما كان  
يتحدث على الأطباء والكهالين ومن شاكرهم .  
( القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥ )

الأمراء السلطانية :

الخازن والعمود التي تخزن فيها الغلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح  
إلا في حالات الشدة والمجاعات .  
( خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٤٢ - ١٢٣ ) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاقي أو أوجاني ، وهي فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤ )

إبلجى :

وجمها إبلجية ، السفير أو المبعوث .

( Dozy : Supp. Diet. Ar. )

( ب )

باب سر لطيف :

هو الباب الذي يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى في حالة الزحام في الحفلات مثلا أو عند التخفي في حالة وجود حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

( عبید اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦ ) .

بابا :

وجمها بابية ، وهو د لقب عام لجميع رجال العظمت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصفى وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكانه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدمه من تنظيف قاشه وتحسين هيئته ، أشبه بالآب الضفيق .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠ )



البادهنج ( باداهنج أو بادنج ) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذي يوجد وسط المبنى للتبوية ( المنور  
أو المشمشينة ) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

( Dozy ; Dict. Ar. )

البازدار :

هو الذي يحمل الجوارح والطيور الممدة للصيد على يده .

( القلقةشمندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩ ) .

بازهر ( بازدهر ) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

الباشورة :

وجمها بواشير ، وهي سد من القراب لمنع وصول الخيالة والرجال

والسهام إلى موضع المحاربين .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤ )

البرالية ( الممالك ... ) :

الممالك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم الخرجية

أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية .

( القلقةشمندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦ ،

المقريزي : المراءظ ج ٢ ص ٢١٧ ) .

البره دار :

هو الذي يكون في خدمة مباشرى الديوان في الجمل ، متحدثاً على

أعوانه والمتصرفين فيه ...

( القلقةشمندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨ ) .

( ٢٧ — العصر المائلي )

للوك :

نقل المسافر ومتاعه .

( كتر ميج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧ )

بركمتوان ( بر كسطوان ) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية ٥ ) .

الهر كيل :

مرتاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكية نوع من السفن .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعه بشت ، العباءة من الصوف بلونه الطبيعي .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

البشتكي :

نوع من الخمر نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعها بشاخين ، وهي ما يطلق عليها اليوم الفانوسية المزركشة  
أو دابر السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون  
حول الغرفة كلها .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

البهمة دار ( البهمة دار ) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ ) .

بطال :

وجمها بطالون ، أى الأجناد والامراء العاطلون من أهال الدولة  
ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو اضطراراً  
إلى الاحتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الإنزواء والابتعاد .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤ ) .

البطسة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة  
من هذا النوع كانت تسع لعدد كبير من الجنود يصل إلى نحو  
سبعائة .  
( النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٢٢٢ ) .

البطاطاق :

قباء بلا أكام أو بأكام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان  
يصنع من القطن البلبكى الأبيض أو من السنجاب .  
( Dozy : Dict. Vet. Ar. )

البطط :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يهمل  
إلى مصر كل سنة .  
( المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩ )

بقيار :

بجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، نوع من العمام السكار كان  
يلبسها الوزراء أصحاب القلم .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤ ) .

البككة :

المشك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

بليق :

وجمعه بلايق ، نوع من النظم الخاص بالأغاني الشعبية .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطهير الحمام . وكان البندق يرمى بالأقواس ثم صار يرمى بالمزاريق والأنايب عن طريق ضغط الهواء من مؤخر الأنبوب . والبندقانيون هم صانعو البندق .

( ريدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٣ ) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨ ، السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤ )

البواردى :

وجمعه بوارديون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التليح .

( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١ ) . ويفهم من بعض كتب الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة بالصلق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .  
( ابن الأخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ص ٩٦ ) .

البواقى :

ما يتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين من مال الحراج .  
( المقريرى : المواظ ج ١ ص ٨٢ )

بيدر :

وجمعها بيدار ، الموضع الذى تدرس فيه الغلال .

بيضة :

وجمعها بيض ، خوذة من الحديد يلبسها الجندى لوقاية رأسه ، وسميبت  
كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البيكار :

وجمعها بيكار ، الحرب عامة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

بجاستان :

( انظر مارستان )

( ت )

التهريس :

هو أن يهبر المذائب فى طرقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه  
ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً فى نهاية المطاف .  
( انظر التهرير والتوسيط )

التحتانية :

القميص الذى يلبس تحت الملابس ، وعكسه القوقانية .

( Dozy : Dict. Vet. . . )

نقلت :

مقعد : وتحت الملك ( مرير الملك ) منبر من رخام بصدر إيوان  
السلطان الذي يجلس فيه .

تفريج ( الجوارح ) :

تدريب الجوارح .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢ ) .

تخليق ( المقياس ) :

التخليق هو التطهير بالرائحة العطرية المسماة ( خلوق ) ، ومعنى تخليق

المقياس تطهيره ومسحه بالزعفران عند وفاة النيل .

( التلغشندى : صبح الأهنى ج ٤ ص ٤٧ ) .

التذرع بالسخام :

تأطبخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفحم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً

للحزن .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤ ) .

تذكرة :

وجمعها تذاكر ، مكتوب بصدر من السلطان إلى نوابه وقصاده

لذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند

الجهات التي يقصدونها .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥ ) .

التراي :

الأطفال من أسرى الحروب .

( المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٩٤ ) .

الترسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة  
شخص بوضعه تحت المراقبة .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ه ) .

التركاش :

السكنانة أو الجمعية التي توضع فيها النشاب .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

التصمير :

عقوبة تقضى بتمريرة المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على  
شكل صليب ، وتندق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات  
خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنديات .

التشهير :

عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في  
المدينة ليشهر ، وقد تزفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجتمع الناس  
حول ، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه تشاهير ، وهي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

التصقيح :

إحصاء البيوت والمقارن لأجل فرض ضريبة عليها ، والتفويض  
تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ - حاشية ٢ ) .

تعبية :

وجمعها تعابى ، أى ثياب أر قطع من قاش .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

تفصيلة :

نوب .

التقليد :

المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص فى وظيفة كبيرة .

التفويض :

( انظر التصقيح ) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الامراء فى العصر المملوكى ، غير معروف  
وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بغاوى :

نوع من الخمور نسبة للى الامير تمر بغا .

التوميط :

عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواحدة السيف ، على أن تكون  
الضربة قوية تحت السررة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتتهار  
أعضاء المحكوم عليه للى الأرض .



تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .  
(زيادة : المقرزى ج ١ ص ٩٣٣ حاشية ١)

(ج)

الجامشكبير :

الامير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الامير  
خوفاً من أن يدمس عليه فيه سم أو نحوه .  
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجالية :

وجمها جوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم  
كل سنة .  
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، الزويرى : نهاية الأرب  
ج ٨ ص ٢٢٦)

الجاليش :

راية عظيمة فى رأسها خصلة من الصعر تحمل فى مواكب السلطان ،  
لاصبها المواكب الخاصة بالحرب . وكان المالك يطلقون اللفظ أيضاً .  
على الطليعة من الجيش .  
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧  
ص ١٠١) .

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الرائب المربوط لظهر أو أكثر .

( Dozy : Spp. Diet, Ar. )

الجاندار :

الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٩ )

الجتز :

مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مظلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ ) .

جرانهي ( جارحي ) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهي آلة حريرية تستعمل لرمي السهام والنفط

والحجارة ويقال لمستخدمها من الجنود جرخي .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١ ) .

جريدة :

فرقة من العسكر الخيالة لإرجالة فيها . ويقال ركب السلطان

جريدة .. أي ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أتقالا

أو حشداً .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨ ) .

جفت :

وجمهه جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة في الحجر على شكل إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإبرانات .  
( عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٥٨ )

الجفته :

وجمها جفتاوات ، اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان ، قرينان في السن ، يركبان أمام السلطان في بعض المواكب السلطانية ، ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ ) .

جفهر :

جمبة من جلود لاختب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦ ) .

الجدار :

الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ ) .

الجدار :

هو الذي يمشى في المواكب السلطانية عن يمين السلطان حاملاً دبوساً له رأس منجم مذهب ، على أن يتجه نظره إلى السلطان من أول خروج الموكب حتى انقضاؤه .

جنابة :

وجمها جنابات ، وهي ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات  
تأديبية على رعيته .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١ ) .

جنب :

وجمها جنائب ، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب  
لاحتمال الحاجة إليها .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٣ ) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والمخفكيات الجوارى اللاتي يلعبن على  
الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقاص الأفراح . واتمنى معظم هذه  
الفئة من الرقاصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٣ ) .

الجنوبة :

النقالة التي تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين ( في حضرة عظيم ) .

الجركان :

غصن مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برأسها خشبة مخروطية  
معموفة تزيد عن نصف ذراع ، تستخدم في لعب الكرة ( برلو ) .  
( القلقشندي : صبح الأعيان ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ ،  
ص ٤٣٥ ) .

الجوكندار :

هو الذي يحمل جركان السلطان أثناء لعبة الكرة .  
( القلقشندي : صبح الأعيان ج ٥ ص ٤٥٨ ) .

( ح )

الحاجب :

أمير وظيفته أن ينصف بين الأمراء والجنود ، تارة بنفسه وتارة  
بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ،  
وعرض الجنود وما ناسب ذلك .  
( القلقشندي : صبح الأعيان ج ٤ ص ١٩ ) .

حاجب الحجاب :

تسمى وظيفته الحجووية الكبرى ، وهو يقوم بالنظر في مخاصمات  
الاجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك .  
( المقرئني : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩ ) .

### حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها في الأماكن التي ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .  
( القلقشندي : صبح الأعتى ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١ ) .

### حراة :

وجمعه حرايق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية ( كالنار الأخرقية ) ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التي تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .  
( قاموس محيط المحيط ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٠٦ ) .

### حرمى :

وجمعه الحرمية ، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأماكن .

### حرفوش :

وجمعه حرافيش أو حرافشة ، أى الرعاع والدماء وضفاف الخلق .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الحرمدان :

حقيقية السفر ، المحفوظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ. أيضاً على حقيقية الخلاق .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الطهرمية :

قاعة خاصة بالطهرم في عمارة القصر أو البيت الإيملاي، وهي تشتمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحفرتين من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهي التي عرفت بعد ذلك في العصر العثماني بالحرملك.

( عبد اللطيف إبراهيم هلي : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤ ) .

### حبرير خبار :

هو الثوب أو القماش الذي يبدى أكثر من لون واحد .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الحماية :

وجمعها حمايات ، وهي مكس يرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاقي ؛ ويقوم الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرر .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣ ) .

### الحمل :

وجمه حمل ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظلاً من الأموال إلى خزائن السلطان .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الحوائج خانا :

ومعناها بيت الحوائج : وهي الجهة التي منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر ، وكذلك توابل الطعام ... ،

( القلعة شندی : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٢ ) .

### الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هي الشرايعخانه ، والطهقت خانه ،  
والغراش خانه ، والملاح خانه ، والركاب خانه ، والحوائج خانه ،  
والمطبخ ، والطبلخانه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل  
فيها وتديرها .

### حوندار :

وجمعه حوندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من الكراكي  
والبلهونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور، وأصل اللفظ حيوان دار .  
( القلقهندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠ ) .

### حياصة :

وجمها حواصص ؛ وهي الحوام أو المنطقة .

( Dozy : Dict, Vet. Ar. p.p. 146 - 147 )

### ( خ )

### خانون :

لقب لقبه به الملكات والأميرات .

### الخازندار :

المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

### الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد  
الأمراء المقدمين . كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا



على الأربعمائة . وقد تمتع الحاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلواته بغير إذن ، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر وأثارة الركوب والملبس .

( كترمير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١١٥ - ١١٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ - ١٨٠ ) .

حاطية :

وجمعها خواطى ، المرأة الداعرة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الحان :

وجمعها خانات ، وهى الوكالات أو الفنادق المدة لاستقبال التجار وبضائهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الحان . كذلك يوجد بالحان بئر مياه وميضأة ومسجد صغير .

( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨ )

خان :

وجمعها خانات ، أماكن العبث واللهو .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

خانقاه :

وجمعها خرائق وخانقاوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر .

( ٢٨ - العصر المملوكي )

خبز :

وجمعه أخبار . من معانى هذا اللفظ. فى هصر المالك لإطاع من الأرض ، يقال أخبار الأجداد أى إقطاعاتهم .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الخبز القار :

أو المقر بالنار ، وهو الخبز المقعد الذى يملك مدة أطول فى النار حتى يمكن حفظه أو تخزينه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخوانق يفضلون هذا النوع من الخبز على غيره .  
( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٦٩٩ ) .

الخرستان :

وجمعا خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .  
( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٣ ) .

الحرگاه :

بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة وينشئ بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد .  
( القاقشندى : صبح الأضنى ج ٢ ص ١٢٨ ) .

الخروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والخروبة أيضاً مكبال .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١ ) .

### الخزان :

الشخص الذى يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان فى الأسفار والحروب .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ حاشية ١ ) .

### خمداش :

زميل فى الخدمة ، والخمداشية هى رابطة الرماله بين الأمراء الذين  
نشأوا بمالك عند أستاذ أو سيد واحد .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٨٨ ) .

### الخطبة :

لعبة تلعب ببيض البندق والحلوى والماء وما شابهها ، وهى تقوم  
على أساس القرعة فن وقع له الحلوى أو البندق أكل وشرب الذى  
بجواره وقد تكون الحلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ،  
فيضطر من بجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك  
المجموعة .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥ ) .

### الخواجا ( الخوجة ) :

المعلم ، التاجر ، الكاتب .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الخوائيق :

المرض المسمى بالذبحه

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### الخوخة :

باب صغير فى بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن  
يخصص هذا الباب الصغير للاستهال اليومي ، فلا تكون حاجة

إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الانتضاء أو الضرورة . وقد يقصد  
بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢ ) .

خوشطاشية :

وجمعها خوشطاشية ، وهي امرأة من موظفات القصر السلطاني .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صينية من الخشب أو المعدن .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء ،  
( سيد ، سيدة ) .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

خيل النوبة :

الخيل التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ،  
وتسمى أيضاً فرس النوبة .

( د )

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهي آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ،  
وتكون من عدة أذوار تصمد إليها الجند لمهاجمة الحصون وتسلق  
الأسوار .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجمه دبائيس : آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه الإبرة . كانت تصنع من هود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ فى أحد طرفيه رأس من حديد قطرها ثلاث بوصات تقريباً .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

درابة :

جمعها دراريب ، إحدى مصرهى الباب .

( Dozy : Sopp. Dict. Ar. )

الدراة :

جمعها دراربع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .  
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢ ) .

الدرب :

وجمه دراب : باب السكة الواسع .

دراج :

وجمه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلقشندى ، الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير ، .  
( القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٢٨ ) .

الدركاه :

وجمها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لدخل بناء كبير .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمراء دستورا ، أى أعطاهم إذنا بكذا .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العبادة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

( Dozy : Dict. Vet. Ar. )

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للاراضى المزروعة التى مسحها السلطان من المساحين ، ويلزمه أن يعمل القناديق والقوانين والنبجلات ، ويفصل الأرض بيقاعها وأصناف مزرعاتها وقطايها وأسماء المزارعين .  
( ابن عاتق : قوانين الدواوين ص ١٠ ) .

منة :

وجمها مدن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .  
( عبد الطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩ ) .

الدوادار :

أى عمك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

## دولاب :

وجمها دولاب ، وهي الآلات العجبية المستعملة في الزراعة والصناعة  
مهما ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤ ) .

## الدينار الديواني :

الدينار الشرعي الصادر عن الديوان أو دار الضرب السلطانية ، فهو  
مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بوزن معين وعيار معين من  
الذهب ، ولذلك يكون مقبولاً في المعاملة لدى الناس في الأسواق .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨ ) .

## الدينار الصوري ( المخصص ) :

تطلق الدينار الصورية أو المخصصة على الدينار الإنجيزة ، وسميت  
كذلك لنعش صور أمهاتها من ملوك الإنجيز على وجوهها .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ ) .

## الدينان الخاص :

هو الدينان السلطان الخاص بالنظر في أموال السلطان والتحدث  
في جهاته ومضائقه .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦ )

## ديوان المفرد :

الديوان الذي يتولى نفقة المالك السلطانية من جامكيات وعليق  
وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧ )

ديوان الموارث الحشرية :

( انظر الموارث الحشرية ) .

( ر )

رأس المبصرة :

كبير الامراء المتقدمين في السن من اكابر امراء المائة ، وهم امراء المشورة .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧ ) .

رأس النوبة :

وظيفة يقوم اصحابها بالحكم على المالك السلطانية والاخذ على  
أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم  
مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ) .

الرباط :

وجمه ربط ورباطات ، وهو في الأصل مكان إقامة الحامية الرابطة  
عند زحف العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث  
يرابطون للزهد والعبادة .

الربيع :

عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة ، ولكل ربيع  
باب يتصل مباشرة يسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ،  
وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربيع المخصصة لسكنى العامة  
بأجور شهرية زهيدة .

( أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣ ) .



### الرخمت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والماشية والحبل والرياش ، والرخموانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير في الأسفار .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦ ) .

### الرزق :

وجمه أرزاق ، وهي المراتب سواء كانت يومية أو شهرية .

### الرزقه :

وجمها الرزق ، وهي الأطيان التي كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجاج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإنعام رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضي ما هو موقوف صرف ربه على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ربه إلى مستحقه ، والرزق التي من النوع الأخير تنحل بانقراض أصحابها .

( أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦ ) .

### رستاق :

وجمه رسانيق ، وهي القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسي ومنه بالعربية رزداق وجمه رزاديق .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢ ) .

### الرفرف :

سقف خشبي مائل ، يحمل على كباش ( كوابيل ) خشبية مثبتة في

الحوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من  
المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل في تغطية الميضأه وسط الصحن  
المكشوف في المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .

( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠ ) .

رقيقة :

وجمها رقايع ، وهي الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامه أو غيرها .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣ ) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب ، تجعل على رقبة الفرس  
السلطان في موكب العيدين ، وتكون من تحت أذني الفرس إلى  
نهاية عرقة .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ) .

ركاب :

وجمها ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء  
لترويضها وتدريبها ( سائس ) .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الركاب خاناه :

أى بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم وغيرها من معدات  
ركوب الخيل ، وله موظف وكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢ ) .

الركابدارية :

هم الذين يعملون العاشية بين يدي السلطان في المراكب ، وهم تابعون  
للركاب خاناه .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢ ) .

### الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى : ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ... بحسب ما يختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك دهناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر وشون الغلال والأملك والمراكب وغير ذلك . .  
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢) .

### روشن :

وجمعها رواشن ، وهى النافذة أو الكوة للإضاءة وقد يقصد بها الخرجات فى العماير .  
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

### الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .  
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢) .

( ز )

### زاوية :

وجمعها زوايا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال .

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية في العصر المماليكي فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .  
( انظر مادة زاوية في دائرة المعارف الإسلامية - بروفانسال ) .

زيدية :

وجمها زبادى ، وعاء للشرب أو للطعام .

الزحافة :

وجمها زحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار .

الزراق :

وجمعه زراقون ، أى رامى النفط من الزرافة وهى الانبوبة التى يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وبها دمن السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المسامع ... وفى كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يحمل على رموس الخالين ويزف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العمد وتجديده المستعملات جماعة كثيرة ... ،

( القلقشندى : صبح الأثرى ج ٤ ص ١١ - ١٢ ) .

الزردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الورد كاش :

الصانع الذي يعمل في السلاح خاناه، في صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ ) .

الزهر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المزيفة ، ويطلق اسم الزغلية على من يفيها .

( Dozy i Supp. Dict. Ar. )

زكاة الدولة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض  
على من يستخدم الدوايب ( أى الآلات والمجلات ) في الرى أو  
القول أو صناعة السكر أو غيرها .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١ ) .

زكاة العداة :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركية ،  
وكانت تصل في كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار ( زنان دار ) :

الموكل بحفظ الحرم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو  
الأمير من الخدام والحصيان .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ )

زئار :

جمعه زائير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة في العصور الوسطى .

( Dozy : Dict. Vet. Ar. )

الزئارى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفيل بحيث لا يرى الذيل ، وكان الزئارى يغطى بدل الكنبوش لمن عظمت مقدرته ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأتلس الأحمر أو الجوخ .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية ه ) .

زنجير :

سلسلة .

الزبار ( أو الزيارة ) :

جمعها زبارات ، وهي آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق .

( م )

الساق :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد السباط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السباط .  
( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤ ) .

ستارة :

وجمها ستائر ، حائط أو حاجز خارجي يهتدى خلفه المدافعون عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من قذائف العدو .

( Dozy : Supp. Dict. Are. )

السراخور :

وجمها سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ،  
وتحرف أحياناً إلى سلاخور. وسلاخورية .

( القلقشندي : صبح الأئمة ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢ ) .

صيرير الملك :

هو تحت الملك : وهو عبارة عن د منبر من رخام يصدر إيوان السلطان  
الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مستند إلى  
الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل  
عليه ونحو ذلك ... ،

( القلقشندي : صبح الأئمة ج ٤ ص ٦ - ٧ ) .

سقرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، ويوجد نوع من النبيذ الحبشي اسمه  
سقرقة .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ )

سقمان :

خف فان يلبس في القدمين فوق خف آخر ، إعتاد أن يلبسه  
السلطان والأمراء والجنود والحريم في عصر المماليك .

( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٣١ حاشية ٥ ) .

سكرجة :

وجمها سكارج ، وهي الأواني .

السياط :

المائدة : ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكلين .

السمط :

الثوب الذي ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وجعه سناجق ، وهي أياك صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

( القلقشندي : صبح الأعيان ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨ ) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجعه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة سافية الماء في جامع أو غيره .

( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ - حاشية ١ ) .

سوسى :

نوع من الملابس أو الأقمشة المزخرفة أو المطرودة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت في عمل القمصان ( السواسي ) .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

( ش )

شاد ( أو مشد ) :

مفتش ، فيقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع



حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ،  
فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢ ) .

شاد العماير :

يكون صاحب هذه الوظيفة دمتكلم في العماير السلطانية بما يختار  
السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار ،  
( الفلقشمندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

( Dozy : Dict. Vet. Ar. )

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة ، ويقال للوظيفة  
الشحنكية .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

الشرابخاناها :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة - ومنها الأدوية -  
التي يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأواني النفيسة المصنوعة من  
الصينى الفاخر .

( الفلقشمندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ . الفويرى : نهاية الأرب )

ج ٨ ص ٢٢٤ ) .

( ٢٩ - المصدر المقابل )

الشرابي :

هو الذى يصنع الاثربة والادوية ، وهو أحد رجال الشرايخاناة ،  
مثل الشربدار .  
( القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ) .

الشرب :

وجعه شرابي . قمش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم  
الاحيان للعائم .  
( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرايخاناة السلطان أو الامير ، وكانت  
هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الامير  
الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاحمه الساقى .  
( القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤ )

الشربوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها  
المعممون ، وقد ألقى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .  
( Dozy ; Dict. Vet. Ar. )

الشش :

لوح من الخور ،

( أبو المحاسن : النجوم - طبعة كاليفورنيا ج ٩ ص ٧٩٨ - ٧٩٩ )

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والقرنيات التى  
كان يظهر بها السلطان فى المواعظ سواء داخل القلعة أو خارجها .  
( القاموسندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩ ) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للنقود أو غيرها

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الشلاق :

الزعر والرعاع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الحرف  
فى قلوبهم ، والشلاق الضرب بالسوط .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١ ) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدق من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .  
( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥ ) .

شممة :

وجمعها شمرح وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

شمبر :

وجمعها شمابر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر الفاتح ، عرضه  
شهران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رءوسهن فوق  
العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها ،  
( زيادة : السلوك ج ٣ ص ٥٢٨ حاشية ١ ) .

شبن ( شبنية ) :

وجمه، شوانى . أكبر نوع من السفن الحربية عرفته مصر فى العصر  
الممايكي ، وكان يجدف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة  
والجدافون

( ابن مباتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٢٢٩ - ٢٤٠ ، المقرئى :  
المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ ) .

( ص )

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١ ) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بغير ثمن معين .  
( المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤ ) .

صفه :

مسطبة ، أريكه ، مقعد .

صولق :

وجمه صوالق ، وهو جراب أو كيس من جلد نوضع به حاجات  
السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .  
( المخطط التوثيقية ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ،  
حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨ ) .

( ط )

الطارمة :

وجمه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس  
السلطان .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الطاريء :

ثالث سماط سلطان يمد في أول النهار ، ويكون منه ما كور السلطان .  
( المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١ ) .

الطبائى :

طيبب الأمراض الباطنية .

طبر :

وجمه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب بـر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان - أى فأسه - عند ركوبه فى المواكب .  
وأمر طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطار .  
( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢ ) .

طبقة :

وجمها طباق ، وهى ثكنات الممالك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة  
تضم الممايك المجلوبين من لد واحد .

( المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ ) .

الطراحة :

وجمها طرايح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

طراد ( طريدة ) :

وجمه طرائد ، وهو نوع من المراكب الجارية يستعمل غالباً في  
حل الخيول والفرسان .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

( ابن ماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٢٣٩ ) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب  
عليه عادة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبي المدخل  
الرئيسي للعمارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على  
واجهة العمارة .

( عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨ )

طرخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوباً عليه ، وإذا كان له أن يقيم  
حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرود ، وكانت تصنع  
منه بعض الخلع السلطانية

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

طريدة :

( انظر طراد ) .

الطشت خاناه :

أى بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي  
والقماش وغيرها ، فضلا عن المقاعد والخاد والسجادات التي تلزم  
السلطان ، ولطشت خاناه مهتار يشرف عليه .

( القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١ ) .

الطشت دارية :

هم غلمان الطشت خاناه .

( القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١ ) .

طلب :

لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ،  
ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ  
فأصبح يطلق على المكتتية من الجيش .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢ ) .

الطمغا ( تمغا ) :

البراءة التي تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعمفو عن مجرم أو تامين  
خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١ ) .

الطواشى :

وجمه طواشية ، وهم الحصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ،  
وفى الحریم السلطاني ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ،  
ويعد شيخهم من أعيان الناس .

( المقرئى : المواظ ج ٤ ص ٢١٩ ) .

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .  
( القلغشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢ ) .

( ظ )

الظرف :

وجمه ظروف ، وهو الوطاء وكل ما يستقر فيه غيره .

( ع )

العاقدة :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ،  
وهو دون القاضى فى الرتبة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

العامل :

وجمه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الديوانية وكتابتها .  
( القلغشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ ) .

العبرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المسالى القديم مقدار المربوط  
من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل  
عن كل قرية من عين أو غلة .

( حيد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٠٥٠ ) .



عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤ ) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتام المسلمين بالمكتب ، ويكون بالمكتب عادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصاية :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١ ) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .

( القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣ )

العنبرينه :

نوع من الخلى العنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والعنبريون هم تجار العنبر المستخدم فى الخلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .

( المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣ )

( غ )

الغاشية :

قبة د من أديم مخروزة بالذهب ، يحاها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه ( السلطان ) عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ )

غراب :

وجمه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلة والجدافون .  
( ابن عماتى : قوائين الدواوين ص ٢٢٩ - ٢٤٠ ) .

الغفار :

وجمه غفائر ، المطف .

( Dozy : Supp. Dict, Ar. )

غلام :

وجمه غلمان ؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل ، وهذا اللفظ. د في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١ ) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

( Dozy : Supp Dict. Ar. )

الغيار :

نوع من الملابس تميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى .

( Dozy : Supp. Dict, Ar. )

(خ)

فانوسية :

وجمها فانوسيات ؛ كمية معينة من شمع الفوانيس .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الفراش عاناه :

بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام  
اللازمة للسلطان في أسفاره وإقامته خارج القلعة .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ ) .

فرس النوبة :

فرس مجرب بالمرج والغاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان  
لاستخدامه في الطوارئ أو للركوب إعلانياً بقيام سلطان جديد .  
( ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٣٢ ) .

الفرمان :

وجمه فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاية  
والوكلاء والقواد يعلن فيها تقليد مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من  
النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦ ) .

الفلس :

وجمه فلوس ، عملة صغيرة ، وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق . ( الفلقتشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤ ) .

فهاد :

وجمه فهاده ، وم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود . ( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤ ) .

فوطه :

مرادف البقجة ، وهي قطعة من قماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان . ( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١ ) .

الفوقانية :

وجمها الفوقانيات ، الرداء الذي يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية . ( Dozy ; Dist. Vet. Ar. )

( ق )

القباء :

ملبوس ( فرجية - قفطان ) وقد وصف المقرئى الأبية على عصر المماليك بأنها إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكم على هيئة ملابس الإفرنج اليوم .

( Dozy ; Supp. Vet. Ar. )

القبر :

آلة موسيقية .

قبع :

وجمه أقباح ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً .  
وكان يوضع تحت الطربوش الذي تلف حوله العمامة . وجاء في خطط  
المقرنزي ذكر سوق الإقباعين .  
( ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤ ) .

القبق ( القباق ) :

القرعة المسلية ، وأطلق في عصر المماليك على الهدف المستعمل في  
لعب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على  
شكل قرعة مسلية من ذهب أو فضة .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشية ٦ ) .

قرباص :

وجمها قراييص ، وهي الحجارة .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

القرط :

البرسيم .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤ ) .

قراطس :

وجمها قراطيس ، وهي نوع من الفلوس النحاسية أو الدراهم المنقوشة  
على شكل أصبع .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

القرفل :

قيص النساء ، أو الثوب الذي لا يكامله والمرقل كذلك سلاح يشبهه  
الدرع يتخذ من صفائح الحديد وبغشى بالديباج الأحمر والأصفر .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤ )

• عبد الطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ( ٣٠٠ ) .

القصة :

الطالب ، الإلتباس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة  
السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤ ) .

القطاعة :

وجمها قطاطيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمها قطائع ، وهي الفئة من الجند .

القلمة :

وجمها قلاع ، فصد بها - فضلا عن معناها الأصلي وهو الحصن -  
قوس النصر أو الزينة التي تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب  
ليمر من تحتها موكب السلطان .

قلنصوة ( أو قلنسية ) :

وجمها فلانس ، لبائن للرأس ( طاقيّة - طربوش ) تصنع من جلده  
الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

### القلوبات :

اللوز والجوز والبندق والفسطق وسائر أنواع المكسرات المنفشرة .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

### القمح :

نوع من الخمر يصنع من ابن الخيل ، واللغظ. ترى لأصل .

( زيادة : السلوك ص ٦٧ حاشية ٢ ) .

### القمذ :

وجمعها قنود ، عصارة قصب السكر إذا جمد

### القرود :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحيوانات .

النادرة

### القياسة :

وجمعها قيايس ، سفينة تستعمل في الإبحار في المياه القليلة العمق كشراطيء

البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطينة السير .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

### القياسية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الركابة ،

أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلمه طباق

للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

### القيطون :

والجمع قباطين وقباطن ، الحجر الصغيرة فى لغة أهل مصر ، والحبة

فى لغة المغرب .

( Dozy ; Supp. Dict. Ar. )

( ك )

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن ، وهم كذلك أرباب المال والأعمال المصرفية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية ( بالسودان الغربى ) فانسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٢٧ حاشية ٢ ) .

كاملية :

وجمعه كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

( Dozy : Supp. Vet. Ar. ) .

كبش :

وجمعه كبوش وأكبش ، آلة حريرية لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهدمها .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

كجاوة :

هودج النساء ( فارسية ) .

( أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠ ) .

كحال :

طبيب العيون ه



### الكسراز :

كوز ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

( Dozy : Sopp. Dict. Ar. )

### الكراخ :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس ( كردوسة ) :

وجمها كراديس ؛ وهي الفرقة الحربية الراكبة والنظفة العظيمة من الخيل .

( Dozy : Sopp. Dict. Ar. )

### الكراغند :

وجمه كراغنديات ؛ وهو المصطقب الفصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

### الكسابه :

هم الذين ينتهزون فرصة الفتن للنهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم .

### الكساره :

وجمها كسارات ؛ وهي من أدوات التعذيب .

( Dozy : Sopp. Dict. Ar. )

### الكشاف :

وجمه الكشافة ؛ جماعة معينة من المسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

( ٣٠ - العصر الماليني )

الكلابى :

وجمه الكلابية والكلابية ؛ ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى  
تربية الكلاب وبمعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بكلاب  
الصيد عند سلطان أو أمير وقد يقصد باللفظ أيضا الفوفاء والدهماء .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١ ) .

الكلايب :

ومفردتها كلاب ؛ وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلونه .  
( Dezy : Supp. Dict. Ar. )

الكابنده :

وجمها كابنديات ؛ وهى لباس الرقبة أو الكوقية يلبسها النساء على  
رءوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق رءوسهن من اللباس .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ ) . وهى كذلك جزء من غطاء الرأس  
سواء كان عمامة أو كلونه ( زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٤ حاشية ١ ) .

كفته ( كفتاه أو كفته ) :

انظر كلوته .

كاوتة :

وجمها كاوتات ، غطاء الرأس : طاوية صغيرة تلبس وحدها أو بهامة .  
وتسمى أيضا كفه وكفتاه وكفته .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١ ) .

كر :

وجمه كرات ، لفظ فارسى معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع  
النقود والأشياء الثمينة فيه .  
( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١ ) .

كذبوش :

وجمه كذابيش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على  
البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحيانا إلى  
كذفوش وكذافيش .

كوسة :

وجمها كوسات ، وهي صفوفات من نحاس تشبه الترس الصغير ،  
يلدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . وتكوسى هو الذى  
يعضرب بالكوسات .

( القلشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ : ١٣ ) .

( ل )

اللاطية ( اللاطئة ) :

وجمها لاطيات ، وهي القلائد الصغيرة تعلق بالراس أى تلتصق بها .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

اللبخة :

لعبة استحدثت في عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم  
التحطيب أو النبت ، فكان الشخص يخرج له عشرة من الفطار  
ويجمعون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع ، .

( زيادة : السالك ج ٢ ص ٧٠٣ ، الشعرانى : الطبقات الكبرى

ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ) .

(٣)

المارستان ( البيمارستان ) :

مصانفنى لعالمة المرضى وإقتسامهم .

مباشر :

وجمه مباشرون ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشر والحتم :

اصلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفى الجمارك فى العصر الحالى ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس .

( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١ ) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك موظف من موظفى السلطان .

( مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ) .

مثال :

وجمه مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية إيدانا بإعطاء أحد الممالك إقطاعا من الإقطاعات الخالية .

( الفلقشندى : صبح الأهنى ج ١٣ ص ١٥٣ ) .

مهارة :

وجمها مهائر ، وهي صناديق تشد إلى جانبي الرجل ، وكان للمهاير سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المهايرين .  
( المقريزي : المواظع ج ٢ ص ١٠١ ) .

المخابيل :

وجمها المخابيلون ، الرجل الذي يدير لهبة خيال الظل .

مخفية :

وجمها مخافي ، طبق واسع عميق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام في الموائد الكبرى وللروائب المقررة للإمراء .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٣ ) .

مدورة السلطان :

خيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له في الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها صرج الفرس وتقاط بقماش الصرج .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

مرمة :

وجمها مرمات ، نوع من السفن الكبار .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذي كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتابة .  
( القلائدندي : صبح الأعيان ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٨٠ ) .

### الروزي :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

### المزملائي :

هو الذي يقوم بتسبيل الماء في السبيل ، ويتولى الخدمة في الأوقات

المحددة ليسهل الشرب على الناس والحيوان .

( عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٦٨ ) .

### المسألة :

( انظر أسفلى ) ،

### المسترفة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ،  
وتكون حبيسا غالباً .

( عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢١٧ ) .

### المستوفى :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له

والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله وهو ذلك . ومن

المستوفين مستوفى الصحة وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور

العامة مثل كتابة المراسيم وأسجيلها . ومثله في النفوذ مستوفى الدولة .

وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر ونحته المستوفى والشاد .

( القاموسى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ ) .

مصنوعة :

وجدها مسخر : وهي ألعاب لإضحاك الناس .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

مسطبة :

الجزء الأمامي من الدكان ، وتمتد خارج إغلاق الدكان نفسه لارض  
البضائع عليها أو الجالوس المقتردين على المتجر .

مسطح :

وجده مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

المسقفات الهلالية :

هي العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحواري ورباع وغطات  
وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتي تدور دخلا هلالياً أو شهرياً  
( مال هلالى ) ، ويطلق عليها كذلك اسم المسقفات الهلالية .

( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢ )

المشاركة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة  
في الأوقاف .

( ابن عماني : قوانين الدواوين ص ٣٠٢ ) .

المشتريات ( المشتريات ) :

هم المالك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلطان يهتريهم لنفسه .

المشير :

( انظر الإشارة )

### المصانعات :

أموال الرشوة والمداراة .

### مطلق :

جمعه مطلقات ، وهي ما يرسله السلطان من رسائل عامة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لا يراد إظهاره إلا عند الوجود عليه ، وفي هذه الحالة تصدر مختومه .

( الفقه هندی : صبح الأعيان ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٣١ ) .

### المعادي :

المراكب التي استخدمت لتمدية الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التمدية . ومن هذه المعادي في عصر المماليك معدية انبابة ومعدية المقياس ومعدية الجسر بالجيزة ومعادي جزيرة الذهب .  
( المقرئى : المواظ ج ١ ص ١٠٤ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١ ) .

### المعالج :

وجمعها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١ ) .

### المعامل :

وجمعه معاملون ، وهم المتعمدون الذين يمدون المطبخ السلطاني بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )



### المصرة :

آلة للتعذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما بوضع بينهما وجه الماعقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ؛ ثم تعد الخشبتان شداً وثيقاً حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر نظم المصور بين الخشبتين .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣ )

### المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتي دون المدرس في الأهمية ، ورمته أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحفظوه .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤ ) .

### المفرد :

هو الديوان الذي كانت تخرج منه في زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع تأسيسه إلى أيام الفاطميين .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ ، خليل بن شاهين : زبدة كنهف الممالك ص ١٠٧ ) .

### المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

### المفرد :

يطلق اللفظ على الجندي أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من أصميد ( هل مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٥ ) .

مفردى :

وجمعه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون  
ديوان المفرد مباشرة .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢ ) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة في عصر المماليك ، فيقال المقام  
السلطاني أو المقام العالي السلطاني للسلطان ، والمقام الملكي للملك  
نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالي فقط  
فكان من الألقاب التي اشتبك فيها أرباب السيوف والأقلام .

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥ ) .

مقدم الدولة :

هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد  
المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرف بمتعلقات الوزارة  
كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ...

( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨ ) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه  
ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان للأمراء أيضاً مقدمون للقيام على  
شئون ماليهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث في شأنهم وبمهم  
فيهم ، كما كان يحضر تفرقة الجانكية عليهم .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٣ ، ابن إياس : بدائع

الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١ ) .

### المقر نص :

وجمعها مقر نصات ، خلية مهارية استخدمت على نطاق واسع في  
حصص الممالك في أجزاء مختلفة من العارة مثل أركان القباب  
والمنارات .

( عهد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٩١ ) .

### مقنع :

وجمعها مقانع ، وهو منديل تغطي به المرأة رأسها ويكون اضيق من  
القناع ، أو هو النصيف الذي نضمه النساء فوق وجوههن .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية ١ ) .

### مكاحل البارود :

هي المدافع التي يرمى فيها النفط . وهي أنواع .  
( أبو الحسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧ ) .

### المكس :

وجمعها مكوس ، وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان  
أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي .  
( المقر بزي : المواظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ،  
القاقتندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١ ) .

### مكوك :

وجمعها مكايك ، وهو مكبال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع  
قدر نصف ويبة ، والويبة ثلاث كيلات .

الملطافات :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التفجير والتأمين ، تمهيداً لما يرمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٣ ) .

الملوطة :

وجهما ملايط ، قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو السكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

( Dozy : Dict. Vet. Ar. )

المماليك الأحداث :

هم المماليك الحديثو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١ ) .

ماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين لبسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً المخرجية .

( المقرئى : المواعظ ج ٧ ص ٢١٧ ) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

الممالك الحربية :

هم الممالك الذين يوكاون بحراسة مكان من الامكنة .

الممالك الخاصكية :

قسم من الممالك السلطانية يتميزون عن بقية الممالك السلطانية بانصراهم وهم صغار في خدمة السلطان ؛ وهو الذى يتولى تربيتهم وهتهم .

الممالك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من مالِك من سبقه في السلطنة ، ومرتباهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمه مناخات ، وهى الامكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية - كالاصطبلات لأنواع الخيل - وجميعها كانت تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية .

( خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقرئى : المواضع ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ) .

منجنيق :

وجمه مجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة .

( القلقشندى : صبح الأعدى ج ٢ ص ١٢٧ ) .

ملقور :

وجمه مناشير ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لانهماج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .

( القلقشندى : صبح الأعدى ج ١٣ ص ١٥٨ ) .

المنطقة ، المنطق ) :

نوع من الأحزمة التي توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء في دوزي أنه لا يجوز للرجال التحلي بالذهب والفضة إلا في ثلاثة مواضع هي الخاتم والمنطقة وحلية السيف .

( Dazy : Dict. Vet\_Ar. p. 420. )

المنفر :

الذي ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار الثمر إخوانه ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه .  
( الفلَقَشْنَدِي : ج ٥ ص ٤٧٠ . أبو نُحَاسِن : التَّجْوِم ج ٩ ص ٤٧ ، حاشية ٣ ) .

المهمندار :

هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم .  
( الفلَقَشْنَدِي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩ ) .

المواريث الحشرية :

هي تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١ ) .

المودع :

ورجمه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لغرض معين ،  
ومودع الحكم صندوق يوضع في عهدته قاضي القضاة لحفظ أموال  
اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣ ) .

المؤدب :

مدلم المكتب ، الذي يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم علميا  
وخلقيا .

الميعاد :

درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه  
المواعيد ميعاد الرقائق ( رقائق الحديث النبوي ) .

( Dozy : Supp. Diet. Ar. )

الميعات :

وظيفة من الوظائف الهامة في المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤمن حارف  
بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة  
بالميعاتي . وكان يعتمد في تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المزونة  
والساعة الرملية وغيرها من الآلات .  
( عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١٦ ) .

( ن )

الفاص :

استعمل هذا اللفظ في مصطلح مؤرخي عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المالكي  
سميت باسمه أولاد الناس ، سميت أبناء أمراء المالكي فقط .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢ ) .

ناظر :

وجمه نظار ، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا  
الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأقاليم  
التي قاموا بها ، فنظار الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ،  
ونظار الخاص ينظر في خاص أموال السلطان ، ونظار الدولة يشارك  
الوزير في التصرف هامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر  
النظار أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظر .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ) .

ناظر الأمراء :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شئون الخلال السلطانية  
وما يصل إليها من خلال وما يصرف منها .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ ) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، يقوم بمشاركة الاستاد  
- وهو من أرباب السيف - في إدارة البيوت السلطانية كلها من  
المطابخ والشرايخانة والحاشية والقلمان .  
( القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١ ) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم بالتحدث على ديوان المواريث الحشرية ، من يموت



ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق  
جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .  
( القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ ) .

نَدَب :

وجمهه أُنْدَاب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .  
( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

نَدَب :

نَدَب الذُّشَاب اللَّعْب به ، يقال لعب أُنْدَابًا في الميدان ، وكان عارفاً  
بأُنْدَاب الحرب .

( كتر مير ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٨ أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٦٨٧ )

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

النَّصْفِيَّة :

وجمهها نَصَافِي ، قماش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ  
على ثياب من القطن الخشن .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

النَّقْرَةُ :

انظر النُقْضَةُ .

نَقِيب :

وجمهها نَقِبَاء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير  
تأدية الخدمات الصغيرة لسببه .

( القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢ ) .

( ٣١ - المعر المالكي )

قريب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد  
الحلقة ونحوهم .

( القلقشندى : صبح الأمشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦ )

قريب الممالك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة نقدة الممالك وموضوعها ، التحديث  
على الممالك السلطانية والحكم فيهم ، .

( القلقشندى : صبح الأمشى ج ٤ ص ٢١ ، زيادة السلوك ج ٢ ،  
ص ١٦٥ حاشية ١ ) .

النوبة :

الوقعة الحربية ، ويقال ضرب النوبة أى صدر الأمر للمسكر بالتهقير .  
( زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢ ) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سوريا ، أو لجموعة من المطربين إذا  
اجتمعوا ( أوركستر ) .

النوبة :

فرق الجند التى تناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس  
يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النياية :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناسخ ووزير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك قواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لا يختص الواحد منهم إلا بما يتعلق بمحدوده لنيابته .

( القلقشندي : صبح الأهنى ج ٤ ص ١٦ ) .

( هـ )

الهرجة :

هناير تستعمل خاصة في الحل كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها نفوب ، ومفرد هارج .  
( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٩٣ حاشية ٤ )

الهناب :

قدح الشراب

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

( و )

وافدى :

وجمعه وافدية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى بلد جديد ، وأصلق هذا اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك في مصر والشام . واختص به - بوجه خاص - الأفراد الذين هاجر معظمهم من بلاد المنغول إلى مصر ووافدى مستأمنين أحراراً لا أجلاباً

مملوكين . واندج كثير من أولئك الوافدية في فرق المماليك السلطانية حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، خير أنهم ظلوا دون المماليك الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا زئمة ممالكية .

( زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠ ) .

الورق :

الدرام الورق - إفتح الواو أو ضمها - هي الدرهم المضروبة .

ورقة :

وجمها أوراق ، استعملت في عصر المماليك بمعنى الصك الذي يكتبه المدين للدائن .

وزير الصحبة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيراً متنقلاً ، يرافق السلطان في أسفاره وحرابه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الضئون ، وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .

( زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢ ) :

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الخداء .

( Dozy : Supp. Dict. Ar. )

الوطاق :

الخيمة الكبيرة التي تمد للعظماء .

الوكالة :

فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

( ى )

اليرك :

رئيس المجلس ، ومن براقب من مضى فينبهه .

( أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٣ ) .

\* \* \*



## قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم على طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة

( القاهرة ١٩٦٠ )

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

( القاهرة ١٣٥٧ هـ )

— أحمد هزوت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

( مقال نشر في حواشيه كلية الآداب )

— ابن الأخوة :

معالم القرية في أحكام الحسبة

( كوبرج ١٩٣٧ )

— آدم ميتز :

الخطارة الإسلامية

( القاهرة ١٩٥٧ )

— ابن إياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة بولاق في ثلاثة أجزاء ( ١٣١١ - ٨١٣١٢ ) ، وكذلك

رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية

المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها الدكتور محمد مصطفى .

- ابن أيبك :

كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب

( مخطوط )

- ابن بطوطة :

رحلته ، المسماة تحفة النظائر في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار

( باريس ١٨٨٠ )

- البلاذرى :

فتوح البلدان

( القاهرة ١٣١٨ هـ )

- البلوى المفرق :

رحلته ، المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق .

( مخطوط )

- بيهرس الدوادار :

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

( مخطوط )

- توفيق اسكندر :

نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية .

( مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧ ) .

- توماس أرنولد :

الدعوة إلى الإسلام

ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد طابدين واسماعيل النحر اوى .

( القاهرة ١٩٥٧ )



ابن الحاج :

المدخل — أربعة أجزاء .

( القاهرة ١٩٢٩ )

ابن حبيب :

درة الأسلاك في دولة الأتراك .

( مخطوط )

ابن حجر :

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

( الهند ١٩٢٩ )

أربعة أجزاء

حسن أحمد محمود :

الإسلام والثقافة العربية في أفريقية .

( الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣ )

حسن الباشا :

التصوير الإسلامى في العصور الوسطى

( القاهرة ١٩٥٩ )

حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية

( القاهرة ١٩٤٦ )

جزءان

الحالدى :

كتاب المقصد الرفيع الملاها الحالدى لديوان الإنفا

( مخطوط )

- ابن خردادبة :

الممالك والممالك

( ليدن ١٨٨٩ )

- الخطيب :

زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان

( مخطوط )

- ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

( يولاق ١٢٨٤ هـ )

- خليل بن شاهين الظاهري :

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك .

( باريس ١٨٩١ )

- ابن دقاق :

الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين

( مخطوط )

- ديمان :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

( القاهرة ١٩٥٣ )

- رشيد الدين الحمذاني :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نعمات ومحمد موسى هندواي

وفؤاد عبد المعطي الصياد .

( القاهرة ١٩٦٠ )

- زكى محمد حسن :

١ - فنون الإسلام ( القاهرة ١٩٤٨ )

٢ - أطلس الفنون الزخرفية والتجاوير الإسلامية .

( القاهرة ١٩٥٦ )

- ابن ذابل :

آخرة المماليك .

نشره عبد المنعم عامر

( القاهرة ١٩٦٢ )

- زيتير شمتين :

تاريخ سلاطين المماليك

( لندن ١٩١٩ )

- سبط بن الجوزى

مرآة الزمان

( الهند ١٣٥١ هـ )

- السبكي :

معيد النعم ومبيد النقم

( لندن ١٩٠٨ )

- السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى . ستة أجزاء

( القاهرة ١٣٢٤ هـ )

- السنخاوى :

التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

( القاهرة ١٨٩٦ )

- السخاوى :

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .

( القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦ )

- سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الأثرية

( القاهرة ١٩٦٠ )

- سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ - الحركة الصليبية ( جزءان ) ( القاهرة ١٩٦٣ )

٢ - قبرس والحروب الصليبية

( القاهرة ١٩٥٧ )

٣ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

( القاهرة ١٩٦٢ )

٤ - مصر فى عصر دولة المماليك البحريةية .

( القاهرة ١٩٥٩ )

( القاهرة ١٩٦٣ )

٥ - الظاهر بيبرس

- أسيد الباز العريزى :

الإنتطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

( القاهرة ١٩٥٦ )

- مهرة الظاهر بيبرس ( خمسون جزءاً ) ( القاهرة ١٩٢٦ )

- السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

( القاهرة ١٣٥١ )

- السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

( القاهرة ١٨٨١ )

- السيوطى :

خزوات قهرص ورودس .

( فينا ١٨٨٤ )

- ابن شاکر الکتبى :

( مخطوط )

عيون التواريخ .

- ابن شاکر الکتبى :

فوات الوفیات .

( بولاق ١٨٨١ )

جزءان

- أبو شامة :

کتاب الروضتين فى أخبار الدولتين

( القاهرة ١٢٨٧ هـ )

- ابن الهدى باق :

أخبار الأعيان فى جبل لبنان .

( بيروت ١٨٥٩ )

- الشربىنى ( يوسف بن محمد بن عبد الجواد ) :

( بولاق ١٨٩٠ )

هو القحوف فى شرح نصيدة أبى شادوف .

- الشعرانى :

لوائح الأنوار فى طبقات السادة الأخبار

( القاهرة ١٨٨١ )

جزءان

- صالح بن يحيى :  
تاريخ بيروت  
( بيروت ١٩٢٧ )
- عبد الرحمن فهمى :  
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .  
( القاهرة ١٩٦٤ )
- عبد الطوفان إبراهيم على :  
١ - المكتبة المملوكية  
٢ - دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك  
( رسالة تحت الطبع )  
( القاهرة ١٩٦٢ )
- عبد الوهاب عزام :  
مهاسن السلطان النورى .  
( القاهرة ١٩٤١ )
- ابن هريشاه :  
مجانب المقدور في أخبار تيمور .  
( القاهرة ١٢٨٥ هـ )
- على إبراهيم حسن :  
دراسات في تاريخ المماليك البحرية .  
( القاهرة ١٩٤٨ )
- حماد الدين الكاتب :  
الفتح القسى في الفتح القدسى .  
( القاهرة ١٣٢٢ هـ )

- العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

( مخطوط )

- العيني :

السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد

( مخطوط )

- أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر

( القاهرة ١٣٢٥هـ )

١٤ جزء

- ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

( بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢ )

- ابن فضل الله العمري :

التعريف بالمصطلح الشريف .

( القاهرة ١٣١٢هـ )

- ابن قاضي شہبہ :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

( مخطوط )

( فيل تاريخ الإسلام ) .

- القلمشندی :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزء

( القاهرة ١٩١٣-١٩١٧ )

— القيروان :

المونس في أخبار إفريقية وتونس

( تونس ٥١٢٨٦ )

— ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

( القاهرة : ٥١٣٥٨ )

— أبو المحاسن ( ابن تفرى بردى ) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى

ثلاثة أجزاء

( مخطوط )

— أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار المكتب المصرية حتى نهاية الجزء

الثاني عشر ( ٥٨٠٨ ) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا

نشر وليم بير ( كاليفورنيا ١٩٣١ ) .

— أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة .

( كبردج ١٧٩٢ )



— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

( القاهرة ١٩٦٠ )

الطبعة الثانية

٢ — دولة بني فلان في مصر

( القاهرة ١٩٤٧ )

— أبو محمد عبد الله باخرمه :

تاريخ نجر عدن

( لندن ١٩٣٦ )

— محمد كرد علي :

خطط الشام

( دمشق ١٩٢٥ )

جزءان

— محمد كمت التنبكتي :

تاريخ الفتح في أخبار البلدان والجيش وأكابرة الناس

( باريس ١٩١٢ )

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك في مصر

( مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخ ، ١٩٥١ )

( ٣٢ — المص المالى )

٢ - المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ - حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

- محمود محمد عرنوس :

تاريخ القضاء في الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

- عبيد الدين بن عبد الظاهر :

١ - الألفاظ الخفية من السحيرة الشريفة السلطانية الملكية

الأشرفية . (القاهرة ١٩٢٠)

٢ - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور

نشر مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

- المسعودي :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧)

- مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن الصميد  
( باريس ١٩١١ )

— المقرئى :

١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة ؛ نشره محمد مصطفى زيادة وجمال  
الدين محمد الشيال .

( القاهرة ١٩٤٠ )

٢ - البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

نشره وستنفلد ( جوتنجن ١٨٤٧ )

٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك

نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ١٧٥٥ هـ ؛  
وبقية المكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ - شذور العنود فى أخبار النقود .

( اسطنبول ١٢٩٨ هـ )

٥ - المواظ والاعتبار بذكر الخطاط والآثار .

طبعة بولاق فى جزئين ( ١٢٧٠ هـ )  
والطبعة الأهلية فى أربعة أجزاء .

( القاهرة ١٩٠٧ م )

— نظير حسان معداوى :

نظام البريد فى الدولة الإسلامية

( القاهرة ١٩٥٣ )

— النويرى : ( أحمد بن عبد الوهاب )  
نهاية الأرب فى فنون الأدب .

( مخطوط )

— النويرى السكندرى ( محمد بن قاسم بن محمد )  
الإمام بالإعلام فىما جرت به الأحكام والأمر المقضية فى واقعة  
الاسكندرية ( جردان )

( مخطوط )

— ابن واصل :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . نشره وحققه جمال الدين  
الشبال حتى نهاية سنة ٦١٥ هـ . وبقية الكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :

تاريخ ابن الوردى ( جردان )

( القاهرة ١٩٣٩ )

تالياً : المراجع الأوربية :

- Allau :  
The Cambridge Shorter Hist. of India.  
(Cambridge, 1924)
- Alvarez :  
Portugheus Embassy  
(Glasgow, 1905)
- Arnold :  
The Caliphate
- Atiya :  
Egypt and Aragon  
(Lepzig, 1938).
- Beazley :  
Note Book of Med. History  
(Oxford, 1917)
- Coubeaux :  
Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie.  
(Paris, 1929)
- Demombynes :  
La Syrie a l'epoque des Mamelouks  
(2 vols.)  
(Beirouth, 1921)
- Demombynes :  
Masalik Alabsar  
(Paris, 1927)
- Diehl :  
Venice  
(Paris 1916).

- D'O Hsson :  
Hist. des Mongols (4. Vol.)  
(Amsterdam, 1852)
- D'O Hsson :  
Tableau de l'Empire Othman.  
(Paris, 1824)
- Grousset :  
Hist. des Croisades et du Royaume  
Franc. de Jerusalem (3 vol.)  
(Paris, 1934)
- Hauteceour, et Wiet :  
Les Mosquées du Caire.  
(Le Caire, 1932)
- Heyd :  
Hist. du Commerce de Levant au  
Moyen Age. (2 vols.)  
(Leipzig, 1885)
- Hobson (R. L.) :  
A Guide to the Islamic Pottery of the  
Near East.  
(London 1944)
- Howorth :  
The Hist. of the Mongols (4. vols.)  
(London, 1885)
- Ibrahim Salamaï :  
L'Enseignement Islamique en Egypte.
- Joinville :  
Hist. de Saint Louis  
(Paris, 1874)
- Kammerer :  
Le Regime et le Status des Etrangers en  
Egypte  
(Memoires de la S. R. G. d'Egypte —  
Tome 15 — Le Caire. 1929.

- Kingt  
The Knights Hospitallers in the Holy  
(London, 1931)
- Lane-Poole :  
A Hist. of Egypt in the Middle Ages.  
(London, 1936)
- Lane-Poole :  
Med. India Under Mohammedian Rule.  
(London, 1912)
- Machaut :  
La Prise de l'Alexandrie  
(Geneva 1877)
- Mas. Michael :  
Hist. of the Arabs in the Sudan.  
(London, 1922)
- Makhiaras :  
Recital Concerning the the Sweet Land of  
Cyprus. (Oxford, 1932)
- Marco Polo :  
Travels. (2 vols)  
(London, 1903)
- Piloti :  
L'Egypte au Commencement du Quinzieme  
Siecle.  
(Le Caire, 1930)
- Quatremere :  
Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans  
Mamlouks de l'Egypte — 2 vols.  
(Paris, 1837—1845)
- Reinaud :  
Traité de Commerce entre la republique  
de Venice et les derniers sultans Mameloucs  
d'Egypte.  
(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)
- Ronciere :  
La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age.  
(S. R. G. d'Egypte, 1925)

- Runciman :  
A Hist. of the Crusades (3 vols.)  
(Cambridge, 1957)
- Schefer :  
Le Voyage d'Outremer de Jean Thonaud.  
(Paris, 1864)
- Schlumberger :  
Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291  
Par l'armée de Soudan d'Egypte.  
(Paris, 1914)
- Setton :  
A Hist. of the Crusades  
(Pennsylvania, 1958)
- Stevenson :  
The Crusaders in the East.  
(Cambridge, 1907)
- Van Berchem :  
Titres Califiens  
(J. A. 1907)
- Wiet :  
L'Egypte Arabe  
(Paris, 1916)
- Wiet :  
Lampes et Bouteilles en Verre émaillé  
Catalogue General du Musée Arabe du  
Caire.  
(Le Caire, 1929)
- Wiet :  
Objets en Cuivres : Catalogue Genral du  
Musée Arabe du Caire.  
(Le Caire, 1932)
- Ziada :  
Foreign Relations of Egypt in the 15 th  
Century.  
(Thesis).



## فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ... .. ج - و

الفصل الأول : قيام دولة المماليك في مصر ... .. ١

لهأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية ( ص ١ ) - اذدياد

نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين ( ص ٣ ) - المماليك

البحرية ( ص ٤ ) - المماليك البحرية وإنزال الهزيمة

بالفرسنيين ( ص ٧ ) - نهاية الدولة الأيوبية في مصر ( ص ٩ ) -

السلطنة شجر الدر ( ص ١١ ) - السلطان المعز أيك

( ص ١٥ ) - السلطان المنصور على بن أيك ( ص ٢٢ ) .

الفصل الثاني : المماليك والتتار ... .. ٢٦

سقوط الخلافة العباسية في بغداد ( ص ٢٦ ) - التتار في

الشام ( ص ٢٨ ) - السلطان المظفر قطز ( ص ٣٠ ) -

موقعة عين جالوت ( ص ٣٢ ) - توحيد مصر والشام

( ص ٣٦ ) - السلطان الظاهر بيبرس ( ص ٣٨ ) - علاقة

المماليك بتتار فارس بعد بيبرس ( ص ٤٦ ) .

الفصل الثالث : المماليك والصليبيون ... .. ٥٢

الشرق الأدنى بين خطرين ( ص ٥٢ ) - لويس التاسع

في بلاد الشام ( ص ٥٥ ) - الظاهر بيبرس والإسنيلاء

على أنطاكية ( ص ٥٨ ) - أبناء الظاهر بيبرس ( ص ٦٦ )

صفحة

السلطان المنصور قلاون والصليبيون ( ص ٦٩ ) - السلطان  
الأشرف خليل بن قلاون ( ص ٧٣ ) - طرد البقايا الصليبية  
من الشام ( ص ٧٤ ) .

الفصل الرابع : المماليك والنوبة ... .. ٧٧

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك ( ص ٧٧ ) - السلطان  
الظاهر بيبرس والنوبة ( ص ٨٠ ) - السلطان المنصور  
قلاون والنوبة ( ص ٨٤ ) - السلطان الأشرف خليل  
والنوبة ( ص ٩٢ ) - السلطان الناصر محمد والنوبة  
( ص ٩٨ ) - العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر  
المنصور الوسطى ( ص ١٠٠ ) .

الفصل الخامس : بيت قلاون ... .. ١٠٣

السلطان الأشرف خليل بن قلاون ( ص ١٠٥ ) - السلطان  
الناصر محمد بن قلاون ( ص ١٠٧ ) - السلطان العادل كتبغا  
( ص ١١٠ ) - السلطان المنصور لاجين ( ص ١١٣ ) - سلطنة  
الناصر محمد الثانية ( ص ١١٥ ) - السلطان المظفر بيبرس  
الجاشنكير ( ص ١١٨ ) - سلطنة الناصر محمد الثالثة  
( ص ١٢٢ ) - عصر أولاد الناصر محمد ( ص ١٢٥ ) -  
الوباء الأسود ( ص ١٣٢ ) - عصر أحفاد الناصر محمد  
( ص ١٣٤ ) - حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية  
( ص ١٣٥ ) .

صفحة

الفصل السادس : دولة المماليك الجراكسة ... .. ١٤٠

- أصل المماليك البرجية وتكوينهم ( ص ١٤٠ ) - ظهور  
المماليك البرجية على مسرح الحوادث ( ص ١٤٣ ) - ازدياد  
نفوذ الجراكسة ( ص ١٤٩ ) - برقوق وتأسيس دولة  
المماليك الجراكسة ( ١٥١ ) - خصائص دولة المماليك  
الجراكسة ( ص ١٥٨ ) - السلطان الظاهر برقوق ( ص ١٦٠ ) -  
تيمورلنك ودولة المماليك ( ص ١٦٤ ) - عصر أبناء  
برقوق ( ص ١٦٦ ) - السلطان المؤيد شيخ محمودى  
( ص ١٦٢ ) - السلطان الأشرف برسباى وفتح قبرس  
( ص ١٦٩ ) - السلطان الظاهر جتق وخرورودس  
( ص ١٧٧ ) - دولة المماليك فى أواخر أيامها  
( ص ١٨٠ ) - السلطان الأشرف قانصوه الغورى  
( ص ١٨٥ ) - سقوط دولة المماليك ( ص ١٨٧ ) .

الفصل السابع : بلاد القام فى عصر سلاطين المماليك ... .. ٢٠٠

- امتداد نفوذ المماليك إلى الشام ( ص ٢٠٠ ) - التقسيم  
الإدارى لبلاد القام فى عصر المماليك ( ص ٢٠٥ ) -  
المجتمع الشامى فى عصر المماليك ( ص ٢١٣ ) - ثورات  
القام فى عصر المماليك ( ص ٢٢٠ ) أثر نيابات القام  
فى أحوال دولة المماليك ( ص ٢٣٠ ) .

صفحة

الفصل الثامن : العلاقات الخارجية ... .. ٢٣٣

- الممالك ومغول القفجاق ( ص ٢٣٤ ) - الممالك والدول
- الإسلامية في آسيا ( ص ٢٣٧ ) - سلطنة الممالك والدول
- الإسلامية في شمال أفريقية ( ص ٢٤٣ ) - العلاقة بين
- سلطنة الممالك والسودان الغربي ( ص ٢٥٠ ) - العلاقة
- بين سلطنة الممالك والحبشة ( ص ٢٥٣ ) - العلاقة بين
- سلطنة الممالك ودول التركان ( ص ٢٦١ ) - الممالك
- والعثمانيون ( ص ٢٦٦ ) - الممالك والدولة البيزنطية
- ( ص ٢٧١ ) - سلطنة الممالك والقوى الأوروبية ( ص ٢٧٥ ) .

الفصل التاسع : النشاط الاقتصادي ... .. ٢٨٤

- الزراعة ( ص ٢٨٤ ) - الصناعة ( ص ٢٨٨ ) - التجارة
- الخارجية ( ص ٢٩٢ ) - التجارة الداخلية ( ص ٣٠٨ ) -
- المالية العامة ( ص ٣١٠ ) - السياسة النقدية ( ص ٣١٥ ) .

الفصل العاشر : الأحوال الداخلية ... .. ٣٢٠

- بناء المجتمع ( ص ٣٢٠ ) - ثورات العربان ( ص ٣٢٦ ) -
- الحياة في المدن ( ص ٣٣٠ ) - الثورات والفتن السياسية
- ( ص ٣٣٥ ) - المجامع والأوبئة ( ص ٣٣٧ ) .

الفصل الحادي عشر : الحياة العلمية والدينية ... .. ٣٤١

- النشاط العلمي في عصر الممالك ( ص ٣٤١ ) - المدارس
- والمكتبات ( ص ٣٤٢ ) - المكتبات ( ص ٣٤٥ ) -
- المباني ( ص ٣٤٧ ) - النشاط الديني ( ص ٣٤٨ ) -

ملحة

التصوف والروايا ( ص ٣٥١ ) - الخلافة العباسية  
( ص ٣٥٤ )

الفصل الثاني عشر : نظم الحكم والقضاء ... .. ٣٦٠  
النظام الإقطاعي ( ص ٣٦٠ ) - السلطان ( ص ٣٦٣ ) -  
النظام الإداري ( ص ٣٦٦ ) - الدواوين ( ص ٣٧١ ) -  
القضاء والمظالم ( ص ٣٧٨ ) .

الفصل الثالث عشر : الفنون ... .. ٣٨٣  
العمارة ( ص ٣٨٥ ) - الرسم والتصوير ( ص ٣٨٧ ) -  
النحت والحفر ( ص ٤٠٣ ) - الفنون الصغرى ( ص ٤٠٥ )

كشاف شرح أم المصطلحات

الواردة في مراجع العصر المالكي ... .. ٤٠٩ - ٤٨٦  
المراجع ... .. ٤٨٧ - ٥١٢

## فهرس الخرائط

صفحة	
٦١	١ - بلاد الشام والجزيرة في العصر المماليكي
٩٣	٢ - ملكة النوبة المسيحية
١٧١	٣ - قبرس في العصور الوسطى
٢٥٥	٤ - دولة المماليك في أقصى اتساعها

## فهرس الصور

١٢٩	١ - جامع السلطان حسن بالقاهرة
٢٩٣	٢ - سبخرة من عصر المماليك
٢٨٩	٣ - صورة غزال على إناء من خرف
٢٩١	٤ - إناء من الزجاج المموه بالمينا
٢٩٣	٥ - ثريا من النحاس
٢٩٧	٦ - سيفان من الصلب المكففت بالذهب
٣٩٩	٧ - معكاة من الزجاج

## للمؤلف

- ١٩٥٧ - قبرس والحروب الصليبية  
٢ - أوروبا العصور الوسطى ،  
الجزء الأول - التاريخ السياسي  
الطبعة الثالثة ١٩٦٤  
٣ - أوروبا العصور الوسطى .  
الجزء الثاني - النظم والحضارة  
الطبعة الثانية ١٩٦٣  
٤ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية  
١٩٥٩  
٥ - الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى .  
١٩٥٩  
٦ - النهضة الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ،  
بالاشتراك  
الطبعة الثانية ١٩٦٥  
٧ - المجتمع العربي  
بالاشتراك مع مجموعة من أساتذة جامعه القاهرة ١٩٦٢  
٨ - الظاهر بيبرس .  
١٩٦٣  
٩ - المدينة الإسماعيلية وأثرها في الحضارة الأوروبية .  
١٩٦٣  
١٠ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك .  
١٩٦٣  
١١ - الحركة الصليبية -- جزءان :  
١٣ - ثورة شعب .  
١٩٦٤  
١٣ - العصر المماليكي في مصر والشام .  
١٩٦٥

القائمة لسير . . .